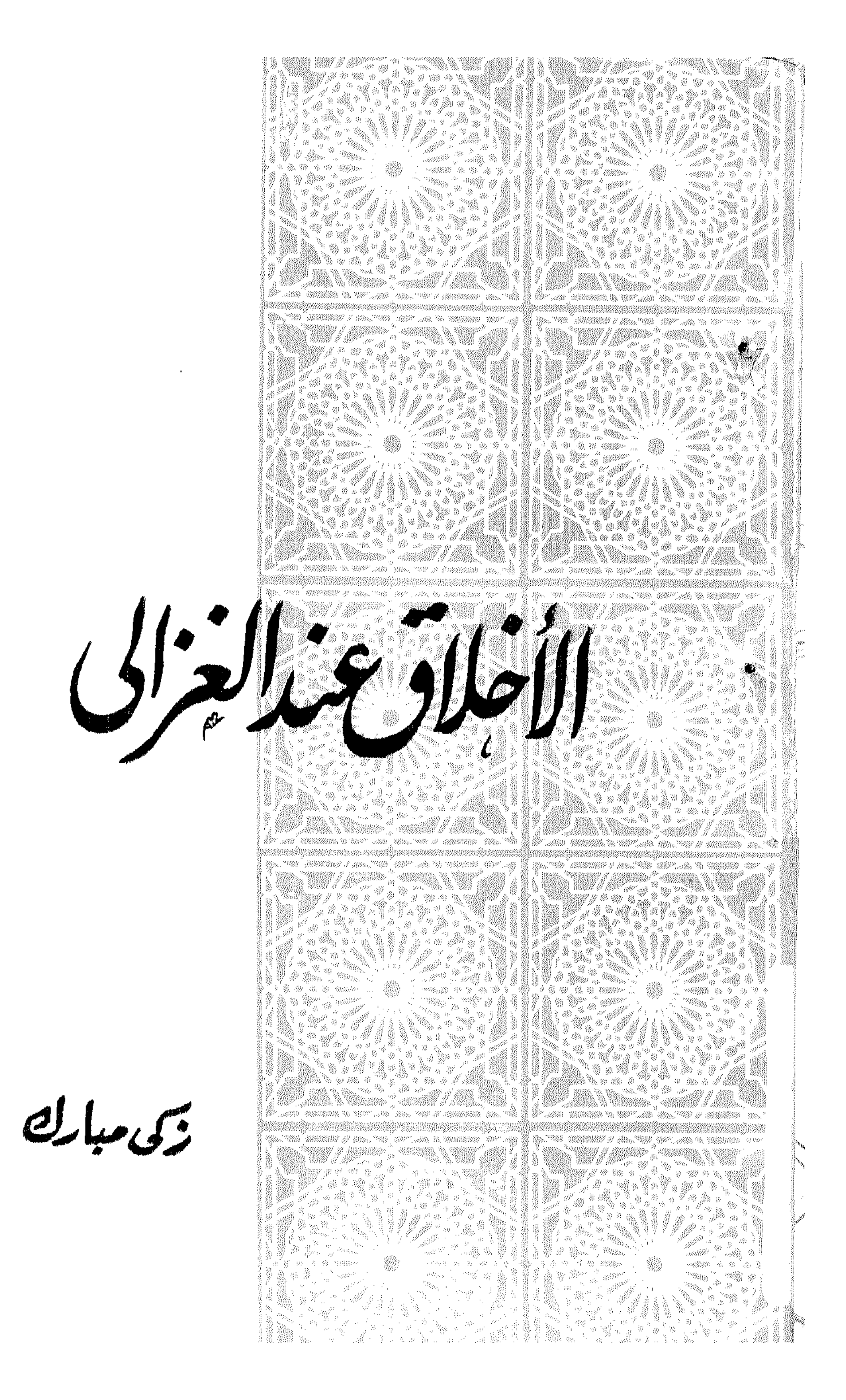


الأخلاق عند الغزالي

زكي مبارك



ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة
ومدير عام التحرير

أحمد شوقي القيعي

رئيس التحرير

أنور زعلوك

الإدارة ٩٢ ش ع قصر العيني - القاهرة

ت ٣٥٥١١١١ / ٣٥٥١١١٠ [illegible]

تلكس دولي ٧٤-٢

سنظل القاهرة .. دائما قلب العروبة والإسلام
النابض تتبوأ مكانتها التاريخية والحضارية ..
في عالم الفكر والثقافة والنشر !!

سكرتارية التحرير.
ثروت الشعراوي
أنور عبد الدايم
محمد يوسف السيد

الإشراف الفني :
م. محمد أبوليلة
حسن أحمد خليل



زكي مبارك

الأخلاق عند الغزالي

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ونوقش فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدا » ولقب « دكتور فى الآداب » .

مقدمة

بقلم : د . منصور فهمي

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوبا بالتوفيق ، حتى قام نفــر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنــه المفتريات ، ويتقولون عليــه الأقاويل . وقد بدأ المؤلف أن يدفع الشر بالشر ؛ ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمي كتب اليه خطابا يوصيه فيه بالرفق ؛ وينصح له بالتثبت ؛ ويدعوه الى مقابلة الشر بالصفح الجميل .

والمؤلف يثبت هنا هذا الأثر الخــالد ؛ ويشكر أســتاذه على نصيحته القيمة . ويعاهد ربه وقومه على ألا يعمل غير ما يعتقد انه حق وصواب .

أخى العزيز :

طالما وجدنا فى تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة . وطالما رأينــا علمــاء المسلمين وفلاسفتهم ينــال بعضهم بعضا بالنقــد والتجريح . وطالما غالوا فى النقد حتى انقلب ايذاء وايلاما .

ولكن هل أخفت شدة النقد يوما فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضن الزمان على المنتقــدين بما هم أهل له من الحــرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ؛ والنقد ليس الا اداه لاظهار الحقائق واضحة جلية ؟

ولئن كان للناقد فضل فى اظهار خطأ المنتقد عليــه ؛ فلقــد كان لهذا الفضل بسبقه الى موارد العلم ؛ وخوضه فى مسائل كانت سببا فى يقظة هذا الباحث الأخير .

***

الا انه يجمل بنا حين ننظر فى كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا فى أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن نتمثل أنفسنا فى أزمنتهم ، وأمكنتهم ، وأن نتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف الادوات ، لكى نلتمس لهم العذر ، اذ رأيناهم لم يصلوا الى الأغوار البعيدة التى ينبع منها الماء صافيا نقيا .

وما ابعد الفرق بين من يدخل الهيجاء بما سلحته به العصور الخوالى من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرعا بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين النور يتفجر من ثريات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك أيها الأخ العزيز نعجب بأصحاب القسى والنبال ، اذ لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفتهم الثبات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التى تنبعث من زيوت المصابيح ، لأنها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام .

فاذا رأينا الغزالى غفل عن حقيقة تنبهنا نحن اليها ، أو اغلق عليه موضوع فتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن فى الرأى ، او نناقض فى فهم فكرة ، فجدير بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه ، وان نذكر كيف كانت وسائله الى الفهم والادراك ، قبل أن نصب عليه جام اللوم والتثريب .

ان اهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيرا على ذاكرتهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يتناولون كثيرا من الموضوعات ، لأن فكرة الاحصاء وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هى اليوم ، وكانوا يرون الجد فى طلب العلم طاعة لله . فمن ثم حفظوا كثيرا ، وكتبوا كثيرا ، ولكن ضاق وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الكثيرة ، فخلطوا الغث بالسمين ، وعرض لهم الضعف ، والتناقض ، والاضطراب .

وكذلك كان من أكبر الخدمات ان يتناول الشباب المثقف كتب

المتقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم يبين ما فيها من الخطأ والصواب .

ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التي انشئت لوصل القديم بالجديد ، وحث الخلف ، على الانتفاع بميراث السلف ، وانقاذ الجيل الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطيء من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ، والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من الأفكار ، وموتا لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن في النقد الصحيح تهذيبا للمشاعر ، وتنويرا للعقول .

وانما يخطيء من يبالغ في حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن لهم سيئات ؛ أو يبالغ في بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيرا من الحسنات . والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جور ولا محاباة ، وقد يذهب بصاحبه الى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من الروايات المتعددة التي ننظر منها الى الحقائق شكلا واحدا منسجم الترتيب ننظر من نواحيه الى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء ، ولكنهم أعداء لمبارع التوفيق .

* * *

وأنت يا أخي درست مؤلفات الغزالي ، وفهمتها ، وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ، حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام ، حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالي بأكبر من أن يخطيء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد راعهم أن يقسو قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاس شديد ، بل انهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك فارس اللوم ، ومر التأنيب .

كانت رسالتك منارا للجدل والمناقشة، ويعلم الله أنا لن نغضب لذلك . لأنا نريد أن تخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك الا أن تكون خادما للحقيقة ولو شق اليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن فى رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخـــدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع الى الحق فضيلة ، والتمـــادى على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق الا الضلال .

* * *

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنـــا شوطا بعيدا فى سبيل الآراء الحرة ، المدعمـــة بالقوة والنهوض . وان كنا نأسف على أنه لا تزال هنـــاك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطلق ، وكان الخير فى أن تستروح به ، وتسكن اليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير ، وعدد المفكرين قليل .

لقد زاد اغتباطى برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعهـــا فى هذا المدى خطوات . وان كان يحزننى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضى علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فانا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجـــديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمـــود . وهم جميعا من المسرفين .

واذا كان لى أن أنصحك ــ ومن الواجب أن أنصحـــك ــ فانى أدعوك الى حرب هذه الضلالة . وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف ، فانكم جميعا طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال ..

لقد فات كثيرا من عشاق الجديد ان يضموا اليهم أنصار القديم بالرفق والمجاملة وانت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ، فماذا يضرك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادلتهم بالتى هى احسن ، لتسيروا أصفياء فى التوفيق بين القديم والجديد .

اننى أخشى عليك كثيرا أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن يصنع هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ، ومختلف الأرجاء ؟

ولكن اياك أن تجزع ، وقد بدئت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على انك خادم من خدام الاصلاح ، وهو خير لقب تلقى به الله .

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام .

منصور فهمى

تعقيب للمؤلف

اكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء الأزهر الشريف عرا لا تقدر على فصمها الليالى . ولن انسى ما حييت انى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ حسين والى والشيخ سيد المرصفى . فاذا قضت الظروف بأن تنقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات ـ لا قدر الله ولا سمح ـ فانى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين لأساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل .

اللهم ان كنت تعلم انى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وان كنت تعلم انى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب على فانك وحدك التواب الغفور .

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

وبعد فهذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، والذى سلقنى العلماء من أجله بألسنة حداد .

هذا هو كتاب (الاخلاق عند الغزالى) اقدمه للجمهور : ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من الصواب .

هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض . وما أنا والله بنادم على راى رايتـه ، أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ، ولغو اللاغين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ، وصغار النفوس ؛ وانما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون .

على أن الغزالى رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولاقى ضعف ما لاقيت ، حتى لنجده يطمئن أحد اخوانه بقوله : « رايتك ايها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع

سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيهـــا ما يخالف مذهب الأصحـاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشـعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينتــه ولو فى شيء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق على نفســك ، لا تضيق به صدرك وفل من غربك قليلا ، (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميـلا) ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضــلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرســلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أســاطير الأولين ، واياك أن تشتغل بخصـــامهم ، وتطمع فى افحامهم ، فتطمع فى غير مطمـع ، وتصوت فى غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى ازالتها   الا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس ، لما تلى على اجلهم رتبــة آيات اليــأس . أو ما سمعت قوله تعــالى : « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهــم بآية ولو شـــاء الله لجمعهم على الهــدى فلا تكونن من الجاهلين » (١) . وقوله تعالى : « ولو فتحنــا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقـــالوا انما سكرت أبصـــارنا بل نحن قوم مسحورون » (٢) . وقوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هــذا الا سحر مبين » وقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبـــلا ما كانــوا ليؤمنــوا الا أن يشـــاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (٣) .

---

(١) كبر : شق . النفق : سرب فى الارض .
(٢) يعرجون . يصعدون . سكرت : حبست من النظر .
(٣) قبلا : عيانا ومقابلة ، واخطأ النسفى حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل .

وقد صار الغزالى بعد ذلك حجة الاسـلام . ونحن لا نريد أن يفتن الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو ان نظفر فقط بالسلامة من تقول المفترين ، وتزيد المعتدين ؟

« على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنـا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

محمد زكى عبد السلام مبارك

الباب الأول

فى العصر الذى عاش فيه الغزالى

تمهيـــد

أريد أن أذكر شيئا عن العصر الذى عاش فيه الغزالى ؛ وليس ذلك لأن الغزالى صورة لعصره . بل ليعرف القارىء الى أى حد تأثر الغزالى بعصره وأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس عصرا من العصور ، لنعرف من نبغ فيـــه من الفلاســفة ، والكتــاب ، والشعراء ؛ وانما ندرس شخصية الكاتب ، أو الشـــاعر ، أو الفيلسوف . ثم نبحث عن المؤثرات التى كونت تلك الشخصية ، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقا لما أحاط بالشخص من الظروف .

ولتوضيح هذا أذكر ان الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذى عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصـــول التى كونت وجهة نظره فى الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع فى درس ابى نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر ان عصر ابى العلاء انتج رجالا يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وان عصر ابى نواس اخرج رجالا لا يسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب ان ندرس أولا ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار فقد تكون نتيجة لمطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذى ظهرت فيه . كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات .

والا فحدثنى كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكى صورة لهذا العصر ، وهو يكون من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ! وامثال الشيخ السبكى عديدون ، ولكنى خصصته لكثرة مؤلفاته ،

وقد يعثر عليه باحث يوما فى زوايا التاريخ ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التى كونت عقلية هذا الرجل الذى يدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

انه لا شك فى تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغى أن نعرف ان من الناس من يعيش فى قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وانما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ ففى مصر اليوم ، أناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ، كما فى مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعفينى القارىء من ضرب الأمثال .

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالى واكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة فى عصره ، ليتمثل القارىء زمان الغزالى ومكانه وليعرف ما تمس الحاجة اليه مما أثر بالفعل فى حياته العقلية : فان الغرض من هذا الكتاب انما هو ان ندرس بالتفصيل آراء الغزالى فى الاخلاق .

الفصـــل الأول
الدولة السلجوقية

— ١ —

لا نريد أن نفصل وصـول تلك العشيرة التركية الى الغلبة والاستيلاء على اكثر الأقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ، التى تعيأ الغزالى ظلها الظليل .

ذكر الأستاذ محمد الخضرى (بك) فى محاضراته فى الجامعة المصرية ان عشيرة السلاجقه انقسمت الى خمسة بيوت : الأول السلاجقة العظمى ، وهى التى كانت تملك خراسان ، والرى ، والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز . والثانى سلاجقة كرمان . والثالث سلاجقة العراق . والرابع سـلاجقة سورية . والخامس سلاجقة الروم .

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى اسسها ركن الدين أبو طالب طغرل بك وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ ــ ١٠٣٩ م الى سنة ٥٢٢ هـ ــ ١١٢٧ م . وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم .

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو اخو الب ارسلان ، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة . من ٤٣٢ هـ ــ ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ ــ ١١٨٨ م . وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان .

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سـنة ٥١١ هـ ــ ١١١٧ م . وانتهت سنة ٥٩٠ هـ ــ ١١٩٤ م على أيدى شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة .

واما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تتش بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدات دولتهم سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م . وانتهت سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م . على ايدى الدولتين : النورية والأرتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة .

واما سلاجقه الروم : ملوك قونية واقصرا ، فكانوا من بيت قطامش بن اسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدات دولتهم سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م . وانتهت سنة ٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م . فهى اطول دول السلاجقه حياة ، اذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول .

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسيه لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقه العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ ، اى ١٤٣ سنة .

واستخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، اولهم القائم بأمر الله الذى انتهى فى عهده العصر البويهى ، وآخرهم الناصر لدين الله الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة .

— ٢ —

عاصر الغزالى أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين ابى شجاع ألب ارسلان ، وجلال الدين ابى الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبى المظفر بركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثانى ، ومحمد بن ملكشاه .

وقد ولد الغزالى فى آخر عهد طغرل بك ، الذى ملك بغداد ، وتقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت اخيه . والذى تطلع الى أن يتزوج من البيت العباسى . وهو امر لم تجر به العادة .

فارس سنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها فى حديث طويل .

أما ألب ارسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ، وفى عهده اسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الغزالى ، وسنعود اليها بعد قليل . وأما محمد بن ملكشاه فهو الذى وضع له الغزالى كتاب التبر المسبوك فى نصيحة الملوك .

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوق ، وما نريد ان نزيد .

الفصل الثانى

الباطنيـــة

فى الوقت الذى كان فيه السلاجقة يبســطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة الى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التى اجملنا حالها فى الفصل الماضى ، كان الفاطميون يســيطرون على المغرب ، وعلى مصر ، ويهمون ببسـط سلطانهم على اقطـار المشرق ، بعناية الدعاة .

والذى يعنينى الآن هو اجمال دعوة الباطنية ، لأن الغزالى شغل بهم ، وكتب فى الرد عليهم ، وان لم تصلنا كتبه فى هــذا الباب ، وسترى حين نتكلم عن خطته فى التأليف كيف اتهم بالميل اليهم ، اذ شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقربها من متنــاول العقول .

واحب ان يعرف القارىء أن اكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس الا اثرا للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، و (كل حزب بما لديهم فرحون) .

والواقع أن الدعاة كانوا غاية فى المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف يملئون تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس والأضاليل ؛ وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم الفاطميون ومن لف لفهم من علماء الاسلام !!

ولولا خوف الاطالة لشرحت للقارىء طرائق الباطنية فى نشر الدعوه Propagande فقد كانوا امهر من الانجليز والفرنسويين ، والامريكان فى العصر الحديث ، وكانت جنايتهم شديدة الخطر فى مسخ عقول الأمم الاسلامية المسكينة ، التى قيدها الجهل ، ثم رماها بين ايدى طلاب الملك من العباسيين والفاطميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء .

كان دعاه الباطنيه لمكرهم ينتقلون بالطالب من حال الى حال ، فيفهمونه أولا ان الآفه التى نزلت بالأمة فشتتت شملها ، وفرقت جمعها ، ليس لها من سبب الا ذهاب الناس عن ائمتهم الذين يعرفون بواطن الشريعة ، لأن دين محمد — فيما يزعمون — ليس هو ما يعرفه العامة ، بل هو علم خفى غامض ، ستره الله فى حجبه ، وعظمه عن ابتذال اسراره ، فلا يطيق حمله ، ولا يقوم بأعبائه الا ملك مقرب ، أو نبى مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوغلون مع الطالب فى مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أئمتهم ، ورفعهم الى الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس .

واشهر دعاة الباطنية فى الشرق هو الحسن بن الصباح . الذى رحل الى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد الى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة (الموت)

وتحصن بها ، ثم ثبت قدمه فى الأقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولأتباعه ألف حساب ، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب .

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من امر الباطنية فليرجع الى كتب التاريخ ، ثم ليرجع الى تفصيل آرائهم ان شاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، فان فى آرائهم غرائب وأعاجيب ، وقد ورد ذكرهم فى عدة مواطن من كتب الغزالىّ ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » فليعد اليه من أراد ان يرى مناقشته لبعض ما يقولون .

الفصل الثالث

الحروب الصليبية

— ١ —

قد عرفت أن سلطان السلاجقه امتد على بلاد الروم ، فى قونيه وافصرا ، وما اليهما من البلاد ، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميين ، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الافرنج الى قتال المسلمين ، فقد أمن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وانها لفرصة سانحه ، لا يصح أن يضيعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة !

لجأ قيصر الروم الى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فرآها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وأمرائها ، فدعاهم الى الدفاع عن النصرانية ، واخراج بيت المقدس من ايدى المسلمين .

وأود ان يعرف القارىء ان الساسة يعتمدون دائما على استغلال العواطف ، واخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد

دعاة الحروب الصليبية بدا من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا ان المسلمين يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء العذاب ، وقد نجحوا فى استنفار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم باسم الدين الى ميدان القتال .

والدين أداة من أدوات الفتح ، والاستيلاء ، فى أيدى الشعوب القوية ، وغل فى اعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين ، لأن القوى الرشيد يملك بدينه آخرته ودنياه ، اما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم فى ضعفه الذى يسميه دينا حتى يحيق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفاعيل ، فى حين ان المسلمين كانوا يبكون فى مساجدهم يوم الجمعة ليوقظوا الهمم الخوامد ، والنفوس الرواكد ، فما استمع لهم أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ! ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين لا يقوم بنفسه ، وانما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق الحياة ! والا فحدثنى لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم يغضبوا لزحف النصارى على أملاك المسلمين ؟

الملك . العظمة . الحياة . تلك آمال الأمم ، وأمانى الشعوب ، فان ادى الدين الى الملك والعظمه والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما ان نزل بهم الى الحضيض فهو بدعة ابتدعها الأحبار والرهبان ، وأمثال الأحبار والرهبان . ومن كان فى ريب مما نقول فليسأل التاريخ .

ثم أخذ الصليبيون فى فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها امارات سميت بالامارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التى كان يتألف منها حملة الصليب .

واول ما اسس من هذه الامارات امارة الرها بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٧ م . ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ — ١٠٩٨ م ، ثم فتحوا بيت المقدس . وقتلوا من اهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم ، بعد ان سجل التاريخ من سوء راى الفواطم ما يمنعنا من ذكره الحياء .

— ٢ —

اتدرى لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟ لتعرف انه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره ، فى اعداد الخطب وتحبير الرسائل ، لحث اهل أوروبا على امتلاك اقطار المسلمين ، كان الغزالى (حجة الاسلام) غارقا فى خلوته ، منكبا على اوراده . لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد ! ويكفى ان نذكر ان الافرنج قبضوا على أبى القاسم الرملى الحافظ يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليفتدى ، فلم يفتده أحد ، ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عددا لا يحصيه الا الله ، كما ذكر السبكى فى طبقاته .

وما ذكرنا هذه المأساة الا لنعد القارىء لفهم حياة الغزالى ، ولنقنعه بأنه ليس من الحتم ان يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة لعصره ، فان كتب الغزالى لا تنبئنا بشىء على تلك الأزمة التى عاناها المسلمون حين ابتدات الحروب الصليبية .

ومن الخطأ أن نقصر الاخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل عن الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجباته ، ويتعسر وجود حالة لا تقضى فيها الأخلاق .

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة الى « نظـام الملك » : وزير السلطان ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه . مكث فى الوزارة ثلاثين سنة : عشر منها فى سلطنة ألب أرسلان . وعشرون فى سلطنة ملكشاه . وقد مات « نظـام الملك » قتيلا ، ولكن اختلف المؤرخون فى سبب قتله : فمنهم من يروى أنه لمـا أسرف فى النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العـلم ٦٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، وشى به بعضهم الى السـلطان ملكشاه ، وقالوا (ان الأموال التى ينفقها نظام الملك فى ذلك تقيم جيشا يركز رايته فى سور القسطنطينية) فعاتبه ملك شاه فى ذلك فأجابه « يا بنى : انا شيخ أعجمى ، لو نودى على فى من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركى ، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا ! وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب ، اذا احتشدوا كافحوا عنك بسـيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مدى مرماها الى ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى ، والخمور ، والملاهى ، والمزمار ، والطنبور ، وأنا اقمت لك جيشا يسمى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليـل على اقدامهم ، صفوفا بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقـوا ألسنتهم ، ومدوا الى الله أكفهـم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جورجى زيدان فى كتاب « التمدن الاسـلامى » عن كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن « نظام الملك » توفى مقتولا سنة ٤٨٥ هـ .

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن « نظام الملك » ولى حفيده عثمان بن جمال الملك أعمال مرو ، وأرسل السلطان اليها شحنة(١) اسمه قودن ، وهو من خواصه ، فنازع عثمان فى شيء . فحملت عثمـان حداثة سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن وسجنه ، ثم أطلقـه ؛ فقصد السلطان ملكشاه مستغيثا شـاكيا فاغتاظ السـلطان ملكشاه لاسـتبداد « نظـام الملك » وبنيه ، وخروجهم على حدود سلطتهم . وأرسل الى نظـام الملك رسالة يقول فيها : (ان كنت شريكي فى الملك ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيـابة ، فهؤلاء أولادك قد جاوزوا أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا ... الخ) .

فقال نظام الملك لحاملى تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : اذا كنت لم تعلم بعد انى شريكك فى الملك ، فاعلم ! فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأيى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فقمت بتدبير أمرك ، وقمعت الخـوارج عليك : من اهلك وغير اهلك ، وأنت فى ذلك الوقت تتمسك بى ؟ فلما قدت الأمور اليك ، واطاعك القاصى والدانى إقبلت تنتحل لى الذنوب ، وتسمع فى الوشايات . قولوا للسلطان : أن دواتى مقترنة بتاجك ، فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! » .

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودس لنظام الملك من قتله بعد ذلك .

والأقرب الى الصواب ما ذكره الأستاذ محمد (بك) الخضرى فى محاضراته بالجامعـة المصرية من أن نظـام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره الى قلعة الموت ، وحصر فيها الحسن ابن الصباح ، واخذ عليه الطرق .

---

(١) الشحنة فى التعابير القديمة يساوى ناظر المالية فى التعابير الحديثة .

وهذا لا ينافي ما نقل من النفرة التي وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه ، فان حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف ، وعلى الاخص في تلك الأيام المظلمة ، التي طبعت بطابع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى ، والحكم للجبروت !!

وقد اكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل ابن عطية البكري :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

* * *

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر في أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارسه في اواسط القرن الخامس لتأييد مذهب اهل السنة . وهكذا كان المسلمون ينشئون المدارس لتثبيت الملك ، كما يفعل الأوربيون والأمريكيون في هذا الجيل ، ولا عيب في ذلك : فالعلم من امضى الأسلحة في استلال السخائم من الصدور ، والسياسة ادهى وامكر من أن تغفل مثل هذا السلاح !!

وكذلك عنى نظام الملك بانشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضله ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته في الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر فاستغل أهله ، حتى ليذكرون أنه كان اذا دخل عليه الائمة الاكابر لا يقوم لهم ، ويجلس في مسنده ، وكان له شيخ فقير ، اذا دخل اليه يقوم له ، ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه ، وانه سئل عن ذلك فقال : ان اولئك اذا دخلوا يثنون على بما ليس في ، فيزيدني كلامهم عجبا وتيها وهذا يذكرني بعيوب نفسي فارجع عن كثير مما انا فيه !!

وإذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن علمـــاء ذلك العصر كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهى عن المنكر ، وأن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضي اذ ذاك بمجاملة هذا الصنف من الناس .

ومهما تكن نيات نظام الملك ــ والله عليم بذات الصـــدور ــ فانه مشـــكور الصنيع ، فقـد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبـــة الجـرايات ، وبنى لهم الأســـواق ، والمســـاكن ، والحمـــامات ، وظلت مدارسه بأوقافها زمنا ليس بالقليل ، وتخرج منها كثير من العلماء والأدباء .

* * *

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالى ، فقد تلقى العلم فى مدرسة نسابور . وتولى التدريس فى مدرسة بغداد ، وسنعود الى تفصيل ذلك فى غير هذا الباب .

الفصـــل الخامس
روح ذلك العصر

ــ ١ ــ

من الصعب تحديد الروح السائد فى عصر من العصـــور ، وانما غاية المؤرخ ان يذكر الشواهد والأمثال ، ويستخلص منها ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذى يدرسه .

وأنا أرجح ان تكون السذاجة هى الصفـــة الغـــالبة فى ذلك العصر مع شىء من المكر فى الأمراء والعلماء . ومن الشواهد الدالة على هذه السذاجة ما ذكره الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » من ان الناس كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد :

انها عين اصابت الاسلام ! وما نقل السبكى من أن أحد معاصريه سمعه يقول : « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت الى مقدمهم وقال : ارجع ويحك والا هلكت ! فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هى بشىء تنتفعون به ، فقال لى : وما هى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى انك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم الى المخلاة . قال الغزالى : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى » .

والسذاجة ظاهرة فى هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لا تبقى الى حفظها حاجة ، آفة عظيمة فى تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته فى حسن الفهم ، وأصالة الرأى ، وصواب الحكم .

ومن شواهد السذاجة ما أورده نظام الملك فى وصيته (١) التى تركها لخلفه من الساسة حيث يقول :

« كان الامام الموفق النيسابورى من جلة علماء خراسان ، مبجلا مهيبا ، وقد نيف على الخمس والثمانين ، وكان السائد فى عقيدة أهل زمانه ان كل من قرأ عليه العلوم العربية نبغ فيها ، وبلغ الغاية ، وانساق اليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهنى أبى من بلدة طوس الى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل . وهنالك حظيت به ، فوشجت بيننا أواصر المودة ، وتأكدت عرا الصداقة ولحظنى بعين

(١) مقدمة السباعى لرباعيات عمر الخيام .

عنايته ، وأنزلته من نفسي أخص منزلة ، وألطفها ، ولبثنا على ذلك سنين عدة . وكنت أول مانزلت به ، وجلست في حلقته ، لقيت تلميذين في مثل سني ، حديثي عهـد مثلي بالقـراءة على الامام الموفق . وهما عمر الخيـام والحسن بن الصباح ، وكانا آيتين في الفطنـة والذكاء فأنس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة أحسـن صحبـة وأمتنها . فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانفضت الحلقة ، اجتمعنا فتذاكرنا ما تلقيناه عليه من المعـارف . وكان الخيـام من أهالي نيسـابور ، أما الحسن بن الصبـاح فكان أبوه ناسـكا ورعا متقشفا ، ولكنه كان زنديقا ، فأقبل الحسن يوما على عمر الخيام فقال له : لقد صح في اذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميـذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيبا عزا واقبالا وثروة وجاها ، فهب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعـا فانه لا بد ان يقـع لواحد منا ، فماذا يكون حق الخائبين على ذلك الفائز الظاهر ؟ قلنا له : اقترح ما تشاء ، فقال : فلنتعاهد الآن على أنه من اصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشيء دون أخويه . فأجبنا : ليكن ذلك كما قلت . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولا في فضاء الله ، الى غزنة ، ثم الى كابل ، ولما عدت تقـلدت منصب الوزارة في سلطنة السلطان الب ارسـلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحباي . فآتياني يطلبان انجاز وعدي القديم واشراكهما فيما انحاز لي من النعمة والثراء » .

والذي يعنيني من هذه الحكاية هو أن يكون « السـائد في عقيدة اهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ الغـاية وانساق اليه العز والجاه » وتلك خرافة لا يسيغها غير ضعاف العقول ، وصغار الأحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان الطلبة يتغنون بها في حلقات الدروس .

وقد رأينا فى الفصل السالف كيف من « نظـام الملك » على ملكشاه بأن أقام له جيش الليل من العلمـاء والفقـراء ، مع انه لا يصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة الى دعوات أهله ودموعهم ، فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء . وانما تحرس الأمم بالعلم فى اقامة ما اعوج من الأخلاق وايقاظ ما خمد من النفوس ، واحياء ما اندرس من آثار العقول .

ومن الشواهد على سـذاجة ذلك العصر التحـدث بالمنامات والأحلام وهى شارة الارتياب فى الواقع ، والايمان بالخيال .

— ٢ —

أما ما كان فى ذلك العصر من مكر الأمراء والعلمـاء ، فدلائله كثيره مبعثرة فى الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات الغزالى شهيدة على ذلك ، فكثيرا ما نراه يشـن الغـارة على العلمـاء الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العـلم والدين ، وهم فى الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !!

ويمكن الجزم بأن الغزالى يمثل عصره أصـدق تمثيل وهو يتحدث عن الأنقيـاء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون النـاس باسم التقى ، وهم فى انفسهم أنصار غى وضـلال وانما قلنا انه يمثل عصره ، لأنه يتكلم فى هذه الشئون بحماسة عظيمة ، ليست صدى لمطالعاته فى المؤلفات القديمة ، وانما هى أثر لغضبته من قوم عاش بينهم ، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء . وقد سبقه المعرى بنقد المتصوفة ، ولكن المعرى كان غير مسـموع الكلمة فى نقدهم ، أما الغزالى فكانت كلمته فى ذمهم شـديدة الأثر ، لأنه صوفى ، ولأن تلامذته كانوا عونا له على نشر ما يريد .

واليك أنموذجا من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عدلوا عن المنهـاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ الزمان كافة ، الا من عصـمه الله على الندور فى بعض أطراف

البلاد ان كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم الاسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات ، والتواجد ، ولو على اغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الأنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل » .
ص ٤٠٥ ج ٣ احياء .

على أن الغزالى كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ، وسترى كيف كان ذلك في غير هذا الباب

أما مكر الأمراء والملوك فقد كاد ينحصر في ختل العامة وجرهم الى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة اسلامية حاربت أختها باسم الملك في دعوة صريحة بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترمى غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وقودا لنار تلك الفتن في مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين . ولعن الله الساسة أصحاب الأغراض .

الفصل السادس
البلدان التى عرفها الغزالى

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التى عرفها الغزالى ، لصلة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج الى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى أبى العلاء ، فليرجع اليه من أراد .

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت(١) لقرب

(١) توفى ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان فى سنة ٦٢٦ هـ . وكتابه من أجود ما عرف العرب فى القواميس الجغرافية .

مؤلفه من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس اذ ذاك .

طـــوس

مدينة بخراسان ، تشتمل على بلدتين يقال لأحداهما الطابران (وهى التى دفن بها الغزالى) وللأخرى توفان ، ولهما أكثر من ألف قرية ، فتحت فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر على بن موسى الرضا وبها أيضا قبر هرون الرشيد . وقال مسعر ابن المهلهل : وطوس اربع مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتـــان صغيرتان ، وبها آثار أبنية اسلامية جليلة ، وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل فى مثله ، وفى بعض بساتينها قبر على بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان ، لم أر مثله علو جدران ، واحكام بنيان ، وفى داخله مقاصير تحار فى حسنها الأوهام ، وازجاج(١) واروقة ، وخزائن وحجر للخلوة ، وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد مجمعين على أنه من بناء بعض التبابعة ، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار الى هذا المكان رأى أن يخلف حرمه وكنوزه وذخائره فى مكان يسكن اليه ، ويسير متخففا ، فبنى هذا القصر وأجرى له نهرا عظيما آثاره بينة ، وأودعه كنوزه ، وذخائره ، وحرمه ، ومضى الى الصين فبلغ ما اراد ، وانصرف فحمل بعض ما كان جعله فى القصر ، وبقيت له فيه بعد أموال وذخائر تخفى أمكنتهـــا ، وصفات مواضعها مكتوبة معه . فلم يزل على هذه الحال تجتاز به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه شيئا ، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبى يعفر صاحب كحلان(٢) لأن الصفة وقعت له .

---

(١) مفردها ازج بفتحتين ضرب من الابنية .
(٢) من مخاليف اليمن .

وقد خرج من طوس عدد كبير من ائمة العلم اشهرهم ابو حامد الغزالى ، وخرج منها الوزير « نظام الملك » . قال ياقوت : واهل خراسان يسمون أهل طوس البقر ، ولا ادرى لم ذلك ؟

وقال رجل يهجو نظام الملك :

لقـــد خرب الطوسى بلدة غـــزنة
فصـــب عليـــه الله مقلوب بلدته

هـــو الثور قرن الثـور فى حر امه
ومقلوب اسم الثور فى جوف لحيته(١)

وقال دعبل الخزاعى من قصيدة يمدح بها على بن ابى طالب رضى الله عنه ويذكر قبرى على بن موسى والرشيد بطوس :

اربع بطـــوس على قبر الزكى به
أن كنت تربـــع من دين على وطر

قبران فى طوس : خـــير الناس كلهم
وقبر شرهم : هـــــــذا من العبر

ما ينفع الرجس من قـــرب الزكى ولا
على الزكى بقرب الرجس من ضرر

هيهـــات كل امرىء رهن بما كسبت
يداه حقا . فخـــذ ما شئت أو فذر

وطوس هذه هى موطن الغزالى . ومولده ، وبها قبره ، الا ان صح ما رواه بعضهم من انه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من طوس . وانا لا أستبعد ذلك ، ما دام ياقوت يحدثنا انه كان لطوس أكثر من ألف قرية . واذا يكون الغزالى بفتح الزاى لا بتشديدها ،

---

(١) مقلوب طوس : سوط ، ومقلوب ثور : روث .

على أن فى طبقات السبكى ص ٩ ج ٤ رجلا آخر يلقب بالغزالى ، ولا ضرورة لأن يكون هذا اسما لعائلة قديمة كما ظن الدكتور زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسبب لتلك القرية الصغيرة : غزالة .

نيســـابور

قال ياقوت : هى مدينة عظيمة . ذات فضائل جسيمة . معدن الفضلاء ومنبع العلماء . لم ار فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ، ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخا ، ومنهـــا الى سرخس أربعون فرســـخا ، ومن سرخس الى مرو الشاهجـــان (١) ثلاثون فرسخـــا . ثم قال : واكثر شرب أهـــل نيسابور من قنى تجرى تحت الأرض ينزل اليها فى سراديب مهيأة لذلك ، فيوجد الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة ، ثم قال : وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس فى الدنيا مثله ، تكون الواحدة منه منا وأكثر ، وقد وزنوا واحدة

---

(١) **مرو الشاهجان** ، هى قصبة خراســـان وكان بها لعهـــد ياقوت عشر خزائن موقوفة تحوى نفائس الكتب . منهـــا خزانتان فى الجامع احـــداهما يقـــال لها العزيزية ، وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجانى ، وكان فيهـــا ١٢٠٠٠ مجلد ، واخرى يقال لها الكمالية ، لا أدرى الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى ابى محمد بن منصور فى مدرسته ومات المستوفى هذا فى سنة ٤٤٩ هـ وكان حنفى المذهب ، وخزانة نظام الملك فى مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتاخرين بها والخزائن الخاتونية فى مدرستها . والضميرية فى خانقاة هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، أكثرها بغير رهن) ويذكر ان فوائد معجمه من تلك الخزائن . وفى مرو الشاهجان يقول بعض الاعراب :

اقمـــرية الوادى التى خان الفهـــا ... من الـــدهر احداث اتت وخطـــوب
تعـــالى اطارحك البـــكاء فاننـــا ... كـــلانا بمرو الشـــــاهجان غريب

ويقول أبو الحسين مسعود بن الحسن الدمشقى :

اخـــلاى ان اصـــبحتم فى دياركم ... فاننى بمرو الشـــــاهجان غريب
اموت اشـــتياقا ثم احيـــا تذكرا ... وبين التراقى والضـــلوع لهيب
لمـــا عجب موت الغريب صـــبابة ... ولـــكن بقـــاه فى الحيـــــاة عجيب

فكانت خمسة ارطال بالعراقى ، وهى بيضاء صادقة البياض كأنها الطلع ، ثم قال : وكان المسلمون فتحوها فى ايام عثمان بن عفان رضى الله عنه والأمير عبد الله بن كريز فى سنة ٣١ صلحا ، وبنى بها جامعا ، وقيل انها فتحت فى ايام عمر رضى الله عنه على يد الأحنف بن قيس ، وانما انتقضت فى أيام عثمان فأرسل اليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية .

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من ائمة العلم اشهرهم الحافظ الامام ابو على الحسين على النيسابورى ، الذى رحل فى طلب العلم والحديث . وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة ٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفى سنة ٣٤٩ .

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور . فمن ذلك قول أبى الحسن الاسترابادى :

لا قدس الله نيسابور من بلد
سوق النفاق بمغناها على ساق

يموت فيها الفتى جوعا وبرهم
والفضل ما شئت من خير وارزاق

والخير فى معدن الغرثى وان برقت
انواره فى المعانى غير براق

وقال المرادى يذم أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مغتربا
الا وحبلك موصول بسلطان

اولا فلا أدب يجدى ، ولا حسب
يغنى ، ولا حرمة ترعى لانسان

وقال معن بن زائدة الشيبانى يشكو ليله بنيسابور :

تمطى بنيسابور ليلى وربما
يرى بجنوب الرى وهو قصير

ليـــالى اذ كل الاحبـــة حاضر
وما كحضـــور من تحب ســـرور
فاصـــــبحت اما من أحب فنـــــازح
وأما الالى اقليهـــــم فحضـــور
اراعى نجـــوم الليــــل حتى كأننى
بأيدى عـــداة سـائرين اســـير
لعـــل الذى لا يجمع الشمل غيره
يدير رحى جمـــع الهوى فتـــدور
فتســـكن أشـــجان ونلقى احبـــة
ويورق غصـــن للشـــباب نضير

وفى نيسابور تلقى الغزالى عن امام الحرمين الفقه والمنطق والأصول حتى برع أنداده ، وزمــلاءه . وتولى فى اخريات أيامـه التدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها الى طوس ، حيث اتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية .

جـــرجان

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من هذه وبعض يعــدها من تلك ، قيل ان أول من أحدث بنـاءها يريد ابن المهلب بن ابى صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء والمحدثين . ولها تاريخ الفه حمزة بن يزيد الســـهمى . قال الاصطخرى : اما جرجان فانها اكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطرا من طبرستان ، واهلها احسن وقارا وأكثر مروءة ويسارا من كبرائهم ، وهى قطعتان احداهما المدينة والأخرى بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضـــياع عريضة ، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينـــة أجمـــع ولا اظهر حسنا من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخيل

والجوز والرمان وقصب السكر والأترج وبها ابريسم جيد لا يستحيل صبغه ، وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها ثعابين تهول الناظر ، ولكن لا ضرر لها .

وقد فتحت فى سنة ١٨ هـ على يد سويد بن مقرن ، وخرج منها عدد عظيم من العلماء ، كانت تشد اليهم الرحال .

وكان بها صنف جيد من الخمر ، وفيها يقول ابن خريم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها
حنيف ولم يلمم بها ساعة غر

ولم يشهد القس المهيمن نارها
طروقا ولم يحضر على طبخها حبر

اتانى بها يحيى وقد نمت نومة
وقد لاحت الشعرى وقد طلع النسر

فقلت اصطبحها أو لغيرى فأهدها
فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر

تعففت عنها فى العصور التى مضت
فكيف التصابى بعد ما كمل العمر

اذا المرء وفى الأربعين ولم يكن
له دون ما يأتى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذى اتى
وان جر أسباب الحياة له الدهر

ويذكر ياقوت أن اهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فهو ناقص المروءة .. وذكر أن مسلم بن الوليد صريع الغوانى مرض مرض الموت بجرجان ، وانه رأى نخلة لم يكن فى بجرجان غيرها فقال :

الا يا نخلة بالسفح من أكناف جرجان
الا انى وإياك بجرجان غريبان

والى جرجان رحل الغزالى ليتلقى العلم عن ابى نصر الاسماعيلى وعلق عنه التعليقة التى حدثتك عما فعل بها العيارون وهو راجع الى طوس .

دمشق

لو انك رجعت الى ياقوت ، وقرات فى معجمه اخبار هذه المدينه لرأيت كيف يضل العرب فى بيداء الخيال ، ولعرفت أن لهم حظا من أساطير الأولين . وهذا الضلال فى ذكر من بنى مدينة دمشق يصور لنا منزلتها المقدسة ، التى احتلت قبلا رءوس المسلمين : فهم تارة يذكرون أن بانيها هو دماشق بن فانى بن مالك ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ، وتارة أخرى يقولون انها بنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذى يقولون انه سبعة آلاف سنة وحينا يزعمون أن ابراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين وحينا آخر يتوهمون أن العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذى بنى دمشق .

واغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل السير ان آدم عليه السلام كان ينزل فى موضع يعرف الآن ببيت أنات ، وحواء فى بيت لهيا ، وهابيل فى مقرى وكان صاحب غنم ، وقابيل فى قنينة وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق .

ووجه الغرابة فيه اخلاده الى من يسميهم « أهل الثقة » وأين وصل أهل الثقة الى اخبار آدم ونوح ، يا أيها المؤرخ الخطير ؟!

وأحب أن أنبه القارىء الى قيمة الاغراق والغلو فى وصف

البلاد فانه نعم الباعث على الرحلة والسياحة وان دل على سذاجة الواصفين وأربعة أخماس الناس يشتاقون الى رؤية دمشق حين يقرءون انها كانت مأوى الأنبياء ومصلاهم ، وانه كان بها مسجد ابراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وأنه لم توصف الجنة بشيء الا وفيها مثله !!

وكانوا يقولون : (عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة الاسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد حديث عجيب ، فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : أنا نريد ان نزيد في مسجدنا كنيستكم يعني كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وان شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فأبوا ، وجاءوا بكتاب خالد ابن الوليد والعهد ، وقالوا انا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد الا خنق . فقال لهم الوليد : فأنا اول من يهدمها فقام وعليه قباء أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد . قالوا ومكث في بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل !! . وقال موسى بن حماد البربري : رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفورا فيها سورة (ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر) الى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف ، التي في قوله تعالى :(حتى زرتم المقابر) فسألت عن ذلك فقيل لي : انه كانت للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت في قاف المقابر من (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) . ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت . ونقل الجاحظ في كتاب البلدان عن بعض السلف أنه قال : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقا الى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم . ويقول ياقوت : ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة

يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق فى سنة ١٦١ فأذهب بعض حسنه .

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبى المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها
فلى بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء الا استخفنى
الى بردى والنيربين حنين
وقد كان شكى فى الفراق يروعنى
فكيف أكون اليوم وهو يقين
فوالله ما فارقتكم قاليا لكم
ولكن ما يقضى فسوف يكون

وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها
فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها
خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكههن أبهى الـ
ـمناظر فى مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خدا
ومن أترجة لم تعد ثديا

وقال البحترى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفى لك مطريها بما وعدا

اذا أردت مـــلأت العـين من بلد
مستحسن وزمان يشـــبه البـــلدا

يمسى السـحاب على أجبالهـا فرقا
ويصـــبح النبت فى صحرائها بددا

فلست تبصر الا واكفـا خضـلا
أو يانعـا خضرا أو طائرا غـــردا

كأنما القيظ ولى بعـــد جيئته
أو الربيـع دنا من بعـد ما بعـدا

وقد أغرب الأقدمون فى وصف دمشق ، ومسجد دمشق ، والذى ذكرته فى ذلك كاف لما أنا بصدده من صلة الغزالى بهـذه المدينة ، فقد دخلها فى سنة ٤٨٩ وأقام بها أياما قليلة ، ثم عاد اليهـا بعد ذلك . واعتكف بالمنارة الغـربية من الجـامع ، قال السبكى : واتفق أن جلس يوما فى صحن الجامع الأموى وجماعة من المفتين يتمشون فى الصحن واذا بقروى أتاهم مستفتيا ، ولم يردوا عليه جوابا . والغزالى يتأمل . فلما رأى الغزالى أنه ليس عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم ارشاده . دعاه وأجابه . فأخذ القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أجابونى . وهذا فقير عامى كيف يجيبنى ؟ والمفتون ينظرونه فلما فرغ من كلامه معه ، دعوا القروى وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامى ؟ وكان الغزالى اذ ذاك فى زى فقير مجهول ــ فشرح لهم الحال فجاءوا اليه وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد لهم مجلسا ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته .

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكـرها المقام . وحسب القارىء هذا المقدار .

بيت المقدس

من المواطن التى قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان ابن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سلني أعطك ، قال يا رب : أسألك ان تغفر لى ذنبى . قال لك ذلك . قال يا رب ، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيرا أن تغنيه . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء سقيما ان تشفيه . قال ولك ذلك !! ويروون عن أبى ذر انه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مسجد وضع على وجه الأرض أولا ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرهم فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع ، فبينما هم كذلك اذ يسمعون صوتا من الصخرة ، فيقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون ، فاذا عيسى بن مريم عليه السلام . فاذا رآه الدجال هرب منه ، فيتلقاه بباب لد فيقتله . ويكاد الرواة يتفقون على أنها « عرصة القيامة ، ومنها النشر ، واليها الحشر » ويزعمون أن سليمان كان اتخذ فى بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التى فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !! وكان من عجائب بنائه انه بنى بيتا وأحكمه وصقله ، فاذا دخله الفاجر والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله فى الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود ؟ وكان أيضا مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب فى زاوية من زواياه عصا ابنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت : (وقد وصفها القدماء بصفات ان استقصيتها أمللت القارىء) فياليت شعرى ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

انه لا شك فى أن كل ما وصف به بيت المقدس ليس الا صورة لبلغ المتقدمين من فهم حقـائق الأشـياء ، فليست زيارته بمخرجة احدا من ذنوبه ، ولا براحمة فقيرا من فقره ، ولا بمنقذة سقيما من سقمه ، كما يزعمون أن الله قال فى ذلك وليس هناك سند يثق به التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده بأربعـين سنة ، كما يتوهمون أن النبى قال ذلك ! ولن يأكل المؤمنون أوتار قسيهم من الجوع حين يحاصرهم الدجال فى بيت المقدس ، ولن يعود عيسى الى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ، وهب ذلك ، فمن يدرينـا ان المؤمنين لن يملكوا يومئـذ غير القسى والنبال ؟ ولا تنس السلسلة التى علقها فى القبة سيدنا سليمان ، والتى كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينـالها المبطل ، فتلك بلا ريب وليـدة الخيال ! ! وما عسى أن يكون ذلك البيت الذى كان اذا دخله فاجر ظهر خياله أسود ، واذا دخله الورع ظهر خياله أبيض ؟

اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، ثم اذكر قول ابن عباس : البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ، ما فيه موضع شبر الا وقد صلى فيه نبى ، أو قام فيه ملك ، ثم اذكر ما يزعمون من ان أول شيء حسر عنه الطوفان بيت المقدس وأن فيه ينفخ فى الصور يوم القيامة ، وعلى صخرته ينادى المنادى يوم القيامة !

اذكر هذا كله ، ثم دعنـا نخبرك بأن الغزالى يتمدح فى كتابه « المنقذ من الضـلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ويتعبد فيها طول النهار ! ! وأنه انكشف له فى اثنـاء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصـاؤها واستقصاؤها كما قال .

هـذه المواطن التى قدسـها الخيال ، ووضعت فى فضـلها الاحاديث ، أثرت تأثيرا بينا فى حياة الغزالى العقلية ، وطبعت نظره الى العالم بطابع خاص . ولولا خوف الاطالة لوصفنا ما رآه فى سياحاته من المشاهد والبقاع ، ولكن الرغبة فى الايجاز أرضتنا عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد .

الفصـــل السابع

اعيان ذلك العصر

الذى يهمنا من اعيان العصر الذى عاش فيه الغزالى انما هو ذكر أساتذته لتأثيرهم فى تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفـــة من علماء ذلك العصر لأن فى ذلك تصويرا لحركة العقـــول اذ ذاك . ونكرر ما قلناه من أن الغرض انما هو أن نقرب للقـــارىء زمان الغزالى ومكانه ، نوعا من التقريب . فأما تحديد اتجاهات الفكر فى تلك الآونة ، فلا يسعه هذا المؤلف ، الذى يراد به درس آراء الغزالى فى الأخلاق .

الشهر ستانى

هو ابو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨ . تلقى العلم فى نيسابور على أبى الحسن على بن أحمد المداينى ، وقد ذكر السبكى بقية أساتذته فى ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تآليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد ، قال فى مقدمته : « وبعد فلما وفقنى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، واهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك فى مختصر يحوي جميع ما تدين به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصارا لمن اعتبر » وقيمة هذا الكتاب ترجع الى جمعـــه أكثر الآراء التى عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الايجاز والغموض فى أكثر المواطن التى تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصروه بزيغ العقيدة « لمبالغته فى نصرة مذهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك فى عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل .

الابيوردي

هو أبو المظفر محمد بن احمد الأبيوردى ، تفقه على أمام الحرمين ، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة ـ وكذلك كان العلماء دائما فى حاجة الى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة كأنما الدين خرافة يسيغها العوام وينكرها الخواص ـ وكان الأبيوردى يرى نفسه أولى بالخلافة واحق بها من سواه ، وقد جرت له هذه النزعة بلايا كثيرة ، اضطر بسببها الى مفارقة بغداد ، فرجع الى همذان واشتغل بالتدريس والتأليف ، ثم توفى مسموما بأصبهان فى ربيع الأول سنة ٥٠٧ .

وكان الأبيوردى بارع الشعر ، وله فى الصبر على أحداث الدهر آيات بينات ، ويندر أن نجد أديبا لا يحفظ قوله :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى
أعز وأحداث الزمان تهون

فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن بديع الشعر أبياته التى يتشوق فيها الى احبابه ، وقد خلاهم ببغداد .

الا ليت شعرى هل أرانى بغيضة
ابيت على ارجائها وأقيل

هواء كأيام الهوى لا يغبه
نسيم كلحظ الغانيات عليل

وعصر رقيق الطرتين تدرجت
على صفحتيه نضرة وقبول

وارض حصاها لؤلؤ وترابها
تضوع مسكا والمياه شمول

بها العيش غض والحياة شهية
وليلى قصير والهجير اصيل

فقال لأخلائى ببغداد هل بكم
سلو فعندى رنة وعويل

ترنحنى ذكراكم فكأنما
تميل بى الصهباء حيث أميل

لئن قصرت ايام انسى بقربكم
فليلى على نأى المزار طويل

الأرجانى

هو ابو بكر احمد بن الحسين الأرجانى ، ولد حوالى سنة ٤٦٠ هـ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تستر . وهو من فحول الشعراء وله هذه الأبيات :

سفرت كى تزود الحب منها
نظرة حين آذنت بالتنائى

وارت أنها من الوجد مثلى
ولها للفراق مثل بكائى

فتباكت ودمعها كسقيط الـ
طل فى الجلنارة الحمراء

فترى الدمعتين فى حمرة اللو
ن سواء وما هما بسواء

خدها يصبغ الدموع ودمعى
يصبغ الخد قانيا بالدماء

خضب الدمع خدها باحمـــرار

كاختضـــاب الزجاج بالصـــهباء

وفى مقدور القارىء ان يرجع الى كتب الأدب والتاريخ ليعرف من سبقوا فى القرن الخامس ، فان الوقوف على آراء أولئك النوابغ من أقرب السـبل الى فهم روح ذلك العصر ، أما نحن فلا نريد ان نطيل .

الباب الثانى

فى حياة الغزالى

تمهيـــد

نريد أن نتكلم بايجاز عن حياة الغزالى ، لأنه لا يعنينا منها غير جانب واحد : وهو حاله حين وضع مؤلفاته فى الاخلاق .

ونحب أن ننبه القارىء الى أن المصدر الموثوق به انما هو كتابه « المنقذ من الضـــلال » فأما الكتب التى ترجمته فهى فى أكثرها موصومة بالمغالاة ، لأن الغزالى كما سترى نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوره كرجل لا ينبغى لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وأنهم لواهمون .

ولم نستشر التراجم ، والمترجم نفسه يتكلم بسذاجة واخلاص عن تطور حالته العقلية ؟ وهى التى تهمنا فى هذا الباب .

الفصـــل الأول

أسرته

ولد الغزالى من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ . وانه ليكفى ان نعرف شيئا عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد فى أسرته .

أما أبوه فقد نقل السبكى فى طبقات الشافعية « أنه كان فقيرا صالحا لا يأكل الا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجد فى الاحسان اليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيها ، وأنه كان يحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب وقته بكى . وسأل الله أن يرزقه ابنا واعظا » ص ١٠٢ ج ٤ .

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهين ، واعظين ، فان شئت قلت انهما دعوة اجيبت ، وان شئت قلت ان حب هذا الرجل للفقه والوعظ نقل الى ولديه بطريق الوراثة .

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد انه طاف البلاد وخدم الصوفية فى عنفوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، وانه خرج الى العراق ، ومالت اليه القلوب ، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس دون مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثا وثمانين . وذكر ابن خلكان انه كان صاحب كرامات واشارات ، وانه كان من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ فغلب عليه . وينقلون أن قارئا قرأ يوما بين يديه (يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فقال شرفهم بياء الاضافة الى نفسه بقوله يا عبادى ثم انشد :

وهان على اللوم فى جنب حبها
وقـــول الأعادى انه لخليـــع

أصم اذا نوديت باســمى واننى
اذا قيــل لى يا عبـدها لسميع

ويروون انه حكى يوما فى مجلس وعظه أن بعض العشاق كان مشغولا بحسن صوره معشوقه ، وكان هذا موافقا له ، فجاءه يوما بكره وقال له : انظر الى وجهى فأنا اليوم أحسن من كل يوم ، فقـال وكيف ذلك ؟ قال : نظرت فى المرآه فاستحسنت وجهى ، فأردت أن تنظر الى ، فقال بعد أن نظرت الى وجهك قبلى لا تصلح لى . وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء .

ومن كلامه : « من كان فى الله تلفــه ، كان على الله خلفه » وكان ينصح أخاه أبا حامد الغزالى بقوله :

اذا صـــحبت المـــلوك فالبس
من التـــوقى أعـــز ملبس

وادخـــل اذا ما دخلت أعمى
واخـرج اذا ما خرجت أخرس

وكان أساتذتنا فى الأزهر يقصون علينا أحسن القصص فى تأثير هذا الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الأمثال ، وقد حاولت أن أجد سندا لما يتحدثون به فلم أجد ، فعرفت أن أكثر ما عرفت عنه انما هو من صنع الخيال .

ولو أننا أضفنا الى ما سلف أن الغزالى كان صغيرا حين مات أبوه ، وأن الذى كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير بوصية والده ، لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه بصبغة صوفية ، وكيف أثرت هذه الصبغة على آرائه فى الأخلاق .

الفصل الثاني

مولده ونشأته

ولد الغزالى فى طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى ما تفقه به فى صباه على احمد بن محمد الراذكانى ؛ ثم سافر الى جرجان حيث تلقى طرفا من العلم على الامام أبى نصر الاسماعيلى وعلق عنه التعليقة ـ كما كانوا يقولون ـ ثم رجع الى طوس واقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه فى جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس امام الحرمين فى المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والأصول فلازمه الى أن توفى فى سنة ٤٧٨ هـ . ثم خرج الى المعسكر وهى محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك ـ وكان اذ ذاك فى الثامنة والعشرين من عمره ـ وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ، فوجدت الفرصة لينشر الغزالى أثمن ما فى خزانته من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك ان برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ، فولاه ذلك الوزير رتبة التدريس فى مدرسة بغداد سنة ٤٨٤ هـ .

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية الى ان نيف على الخمسين « ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين . أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا واحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا الا واريد ان أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا واجتهد فى

الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا واحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا الا وانرصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته . وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الأمور دأبى وديدنى ، من أول أمرى . وربعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانحسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا » .

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون فى الدفاع عنها ، ويجدون فى اذاعتها بين الناس والثانى أن الغزالى لم يكن من أولئك الطلبة الأغبياء الذين لا يعرفون غير رأى واحد يعيشون عليه ، ويموتون عليه ! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضى عليه بأن يعلم حقيقة كل نحلة ، وكنه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل عقيدة .

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صبيان النصارى ينشأون على التنصر ، وصبيان اليهود على التهود ، واطفال المسلمين على الاسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجيهة باعثا له على أن يشك فى دينه حتى يتبين حقيقته ــ وان لم يحدثنا عن ذلك ــ لأنه ما الدليل على أن النصرانية خير من اليهودية ، أو أن الاسلام خير من النصرانية ، أو أن اليهودية خير من الاسلام ، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود : كل على ما هو بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات .

وهنا يصرح الغزالى بأنه انتهى الى انه لا قيمة للتقليد ، لأنه موجود فى كل أمة وفى كل ملة ، وانما القيمة كلها لليقين الذى لو تحدى لاظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك فيه شكا ، كما انك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، وقال

قائل لا ، بل الثلاثة أكبر ، بدليل انى أقلب هذه العصا ثعبانا، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه ، لم تشك بسببه فى معرفة أن العشرة أكثر من الثلاثة .

الفصل الثالث

حياته الروحية

ولكن الغزالى لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التى أقنعته بأن لا قيمة لغير اليقين ، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح أنه لم يكن فيها غير صادق ، وأخذ يبين أنه اقتنع أولا بأن اليقين ينحصر فى الحسيات والضروريات ، ثم رأى أن الحس ليس أهلا للثقة به ، لأنك تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتي لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالي أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولى وجهه شطر العقليات التي هى من جنس الأوليات كقولنا العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما ، واجبا محالا . ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء ادراك حاكم العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالى فى مضايق من شعاب الحدس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن يكون هناك حالة فوق اليقظة التى هى بلا شك اثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة اليها كنسبة النوم الى اليقظة ، ثم يتردد فى تعيين هذه الحالة فلا يدرى أهى الموت الذى

تنكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هى حالة الصوفية : اذ يزعمون انهم يشاهدون فى احوالهم التى هى لهم أنهم اذا غاصوا فى انفسهم ، وغابوا عن احوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالا لا توافق المعقولات ؟ ؟

ثم يذكر الغزالى انه عاد الى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قذفه الله فى صدره كما قال .

ونحن لا ننازع الغزالى فى أن الله نورا يقذفه فى صدور عباده ولكن نسأله : لم لا تكون الأحكام العقلية قبسا من ذلك النور ؟ ونسأله كذلك : ما هى حالة المرء الذى ينتظر هذا النور الذى تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذى يعنينا قبل كل شىء : هو أن نسجل أن الغزالى وضع مؤلفاته فى الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس فى مدرسة بغداد ، ثم لازمته الى النهاية ، كما ستراه .

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولاجل ان نبين وجهة نظره فى احكامه الاخلاقية ، ينبغى أن نعرف كيف كانت صحته وكيف كان مزاجه ، وكيف كان فهمه للحياة ، حين عنى بالتاليف فى الأخلاق . فان معرفة مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من اهم ما ينبغى تقديمه قبل الشروع فى درس ما ترك المؤلفون .

والسند الصحيح لحياة الغزالى هو كتابه (المنقذ من الضلال)

فلندعه يصف لنا حياته فى عزلته التى دامت نحو عشر سنين ، والتى وضع فى اثناءها كتاب الاحياء وهو أهم ما كتب فى الأخلاق .

قال بعد كلام طويل : « ثم اننى لما فرغت من هذه العلوم اقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم انما يتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر على من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعه كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى ، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وابى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لى أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ، وحد الشبع ، واسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وانه عبارة عن حال تحصل من استيلاء ابخرة تتصاعد من المعدة على معان الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر ، والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وادويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه واسبابه وبين ان يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا .

« فعلمت يقينا انهم أرباب أحوال ، لا اصحاب اقوال ، وأن ما يمس تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها ، فى التفتيش عن

صنفى العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقينى بالله تعـالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معـين محرر ، بل بأسـباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع فى سعاده الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيـا بالتجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهـرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فاذا أنا منغمس فى العـلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمـالى ، واحسنها التدريس والتعليم : فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتي فى التدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشـار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأنى قد أشرفت على النار ، ان لم أشتغل بتلافى الأحوال ، فلم ازل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما واحل العزم يوما ، واقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحملّ عليها جنـد الشهوة حملة فيفترها عشـية ، فصارت شهوات الدنيـا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ومنادى الايمان ينادى : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل . وبين يديك السفر الطويل ! وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وان لم تقطع الآن هذى العلائق فمتى تقطع ؟ ؟ ! ! .

« فبعد ذلك تنبعث الداعيـة ، وينجزم العزم على الهـرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، واياك أن تطاوعها فانها سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر

المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما لا تتيسر لك المعاودة » .
فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر . اولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على لسانى حتى أعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطبيبا لقلوب المختلفين الى ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطيعها البتة ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك الى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل الى العلاج » .

وانما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه « المنقذ من الضلال » لأن الغزالى عندى صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير للباحث من استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه فى ذلك الحين من قوله بعد ما سلف « ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبى الأعراض عن الجاه ، والمال ، والأهل والولد والأصحاب » ! ؟

ويجب أن نتنبه لهذه الكلمة ، فهى كافية فى تصوير نفسه ، وينبغى أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال عشر سنين ، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو فى هذه الحال ، ولا تسأل كيف ترك بغداد ، ولا كيف عاد الى أهله ، فقد رأيت كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ، وكيف سهل على قلبه ترك أولاده ، وهو الذى تمدح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق طوال النهار

ويغلق بابها على نفســه ، وكان يرحل الى بيت المقــدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ! !

على انه بعد أن عاد الى اهله (آثر العزلة أيضــا حرصا على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر) كما قال .

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشف له (فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها ، واستقصاؤها) وانما يهمنى ان اثبت أنه كتب ما كتب فى الأخلاق وهو على هذه الحال .

ويتلخص ما سلف فى ثلاثة أمور :

الأول ـ ما ورثه عن ابيه من نزعته الصوفية .

الثانى ـ ما استفاده من وصية تأييدا لتلك النزعة .

الثالث ـ عشر سنين قضاها فى العزلة ، لها ما لها من الأثر فى تكوين نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير فى كتبه .

اذن ليعلم القارىء منذ الآن أن النزعة الغالبة على فهمه للأخلاق انما هى نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلا فى عدة مواطن من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

وفاته ورثاؤه

ترك الغزالى بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضــة الحج ى سنة ٤٨٩ هـ ومكث فيها اياما ، ثم توجه الى بيت المقدس فجاور به سنة ٤٨٨ هـ بعد أن أناب أخاه عنه فى المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق مدة ، ثم عاد الى دمشق واعتكف فى المنارة الغربية من الجامع ؛ ثم ذهب الى الاسكندرية واقام بها مدة ، ويقال انه كان ينوى الرحلة الى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغــه من

عدله ، ولكنـــه لما ســمع بموته عاد الى التجول فى الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقــول مترجموه ، ثم رجع الى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب الاحياء . ثم عاد الى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية فى نيسابور ، ثم رجع الى طوس واتخذ الى جانب داره مدرســة للفقهاء وخانقاه للصــوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وادامة الصلاة والصيام ، الى أن توفى رحمه الله بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة ســـنة ٥٠٥ هـ قال السبكى : ومشهده يزار بمقبرة الطابران .

قال الزبيدى : ووجدت فى كتاب بهجة الناظرين وانس العارفين للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الرمورى ما نصه : ومما حدثنا به من أدركنا من المشيخة ان الامام أبو حامد الغزالى لمـا حضرته الوفاة أوصى رجلا من أهل الفضل والدين ــ كان يخدمه ــ أن يحفر قبره فى موضع بيته ، ويستوصى أهل القرى التى كانت قريبة الى موضعه ذلك بحضور جنازته وأن لا يباشر احد حتى يصلى ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون ببلاد العراق ، يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا مشورة .. فلما توفى فعل الخادم كل ما أمر به ، وحضر الناس ، فلما اجتمعوا لحضور جنازته راوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة ، فعمد اثنان منهم الى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج فى أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث ملتفا فى كسائه ، وفى جانبه علم أسود ، معمما بعمامة صوف ، وصلى عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصـــفاته ولم يعرفه ، الى أن سمع بعضهم بالليل هاتفا يقول لهم : ان ذلك الرجل الذى صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريف

جاء من المغرب الأقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسلاه هما صاحباه ... الخ » .

وهذه بالطبع خرافة لفقهاء المتصوفة بعد موت الغزالى ، وهى فى ذاتها تدل على أن الغزالى لم يمت الا بعد أن اتفق العامة على صلاحه ، فقد رمى بالزندقة فى جزء من حياته ، ثم عاد فى نظر العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة :

قل لاخوان رأونى ميتا	فبكونى ورثونى حزنا
أعلى الغائب منا حزنكم	أم على الحاضر معكم ههنا
أتخالونى بأنى ميتكم	ليس ذاك الميت والله أنا
أنا فى الصدر وهذا بدنى	كان جسمى وقميصى زمنا

وهى طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوف بدار الكتب المصرية . وهى كذلك مما لفقه أصحابه بعد موته ، وما أكثر ما زور باسمه من الآثار ! !

ونقل ابن الجوزى فى « كتاب الثبات عند الممات » عن أحمد أخى الغزالى أنه قال : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخى أبو حامد وصلى ، وقال على بالكفن ، فأخذه وقبله ووضعه على عينيه ، وقال : سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل القبلة ، ومات قبل الأسفار » .

وسبحان من تفرد بالبقاء .

وقد رثاه الأبيوردى بقوله :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى	من كل حى عظيم القدر أشرفه
فما لمن يمترى فى الله عبرته	على أبى حامد لاح يعنفه
تلك الرذيلة تستوهى قوى جلدى	فالطرف تسهره والدمع تنزفه

فما له خلة فى الزهد منكرة　　　وما له شبهة فى العلم تعرفه
مضى ، واعظم مفقود فجعت به　　　من لا نظير له فى الناس يخلفه

وقال فى رثائه القاضى عبد الملك المعافى :

بكيت بعينى ثاكل القلب واله　　　فتى لم يوال الحق من لم يواله
وسيبت دمعا طالما قد حبسته　　　وقلت لجفنى واله ثم واله

ونحن ــ فى جملة من انتفع بمؤلفات الغزالى ــ نسأل الله ان يرحمه رحمة واسعة ، وان يجزيه احسن الجزاء على ما قدم فى سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، وان يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه انه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

الباب الثالث

فى المنابع التى استقى منها الغزالى

تمهيد

يذكر مؤرخوا الفلسفة ان سقرط هو اول من بدأ بالتفكير في الانسان وما يتعلق به ، وانه أول من قال : اعرف نفسك بنفسك . ولعلهم يريدون انه أول من بحث فى الانسان بحثا منظما من حيث واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه فى الاجتماع ، على أن يكون ذلك علما ذا قواعد وأصول .

اما البحث فى أن بعض الأعمال شر ، وبعضها خير ، وشيء منها نافع ، وشيء منها ضار ، فهو قديم سبق سقراط بأجيال .

فالأمة العربية التى ورث الغزالى وورث أساتذته آدابها القديمة ، كانت تقول الشعر والنثر فى تهذيب الأخلاق ، فمن الواضح أن قول بعض الأعراب فى وصية ابنه « المنية ولا الدنية » فيه ضرب من التهذيب الفردى ، وقول أحدهم فى حض الجيش على صدق اللقاء « الطعن فى النحور أكرم من الطعن فى الظهور » فيه نوع من تقديم المحاربين ، لأن الأخلاق لا تعرف موطنا بعينه وانما تتبع الرجل فى كل حال .

وكذلك قول أكثم بن صيفى : « العقل راقد ، والهوى يقظان ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول . والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل . اصبح عند رأس الأمر احب الى من أن اصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . نفاذ الرأى فى الحرب أجدى

من الطعن والضرب . التقدم قبل التندم . ويل لعالم أمر من جاهله . يتشابه الأمر اذا اقبل ، فاذا ادبر عرفه الكيس والأحمق». في هذه الكلمات كثير من الآداب الاجتماعية ، وهي جزء من علم الاخلاق .

ونجد شعراء الجاهلية والاسلام ضربوا بسهم في معرفة الطبائع البشرية ، فنرى في شعرهم شيئا عن أثر الوراثة ، واثر الرفقة ، واثر الجوار ، الى غير ذلك من المعاني التي بسطها الفلاسفة حين تكلموا في الأخلاق . فقول ذي الاصبع العدواني :

كل امرىء صائر يوما لشيمته … وان تخلق اخلاقا الى حين

يماثل بعض المذاهب الأخلاقية .

وقول مسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم … على سر بعض غير اني جماعها
لكل امرىء شعب من القلب فارغ … وموضع نجوى لايرام اطلاعها
يظلون شتى في البلاد وسرهم … الى صخرة اعيا الرجال انصداعها

يماثل ما يضعه الفلاسفة في الآداب الفردية .

ويمكننا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن المدح في الغالب تصوير للفضائل ، والذم تمثيل للرذائل ، ووصف الفضائل والرذائل مما يعنى به علم الأخلاق .

فقول قعنب بن ضمرة :

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا … عني وماسمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به … وان ذكرت بشر عندهم اذنوا
جهلا علينا وجبنا عن عدوهم … لبئست الخلتان الجهل والجبن

هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التي يعنى بحربها علم الأخلاق .

وقول حسان بن ثابت :

اصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المال
احتال للمال ان أودى فاجمعه ولست للعرض ان أودى بمحتال

هذا فخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل الانسانية .

ولا تنس الحكم التي فاضت بها النفوس العربية ، فأي كلام اكرم وامتع من قول وابصة الأسدي :

احب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطا أذى ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجرا
اذا شئت أن تدعى كريما مكرما أديبا ظريفا عاقلا ماجدا حرا
اذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا
غنى النفس مايكفيك من سد خلة فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

والقرآن ؟

في القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخلجات القلوب ، وفيه حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التي شقي في حلها الحكماء ، ففيه أدب الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ، ومع آبائه ، ومع ابنائه ، ومع اخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ، ويندر أن تجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن . وفي الحديث توضيح وتتميم لما في الكتاب العزيز ، ويكفي أن تنظر فيما يخص الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما تقول ».

وبعدما جاء في خطب العرب وشعرها ، وما جاء في القرآن والحديث ، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك ، من أقدمها كليلة ودمنة ، الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفاه بكتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير ، ووضعت ابواب مطولة في كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة المحاربين ، وما الى

ذلك مما يهتم به الناس فى الحرب والسلم ، ويبنى عليه الاجتماع .

ثم كانت المقـــامات والخطب المنبرية ، التى اودعهـا الأدبا والمصلحون آراءهم فى تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع .

كل ما قدمته كان ينبوعا صافيا ينهل منه الغزالى ويعل وهو يضع مؤلفاته فى الأخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضـ حكما الا وقد اقتبسه من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر أو آية ، أو حديث ، أو اثر ، الى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنى رايت فى ذلك منافاة للايجاز ، وهو شرط هذا الكتاب .

على أن الغزالى مع ترسمه لما سبقه من الآثار الأدبية لم يخل من حرية الفكر ، والميل الى التجديد ، فقد خرج على الأشعرى فى بعض آرائه ، وخالف الشافعية فى بعض ما يقولون به ، ولكنه على كل حال يساير المتقدمين ، ولا يخالفهم — حين يخالفهم — الا برفق واحتياط ، كما يفعل الحذر الهيوب .

الفصل الأول
المصـــادر الفلسفية

درس الغزالى الفلسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساويها فى العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتتلمذ لأستاذ ، فكان ذلك داعيـــة لهذا البغض العميق ، الذى جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكرهم الا بسوء فى كتبه الأخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلاسفة بلسان حديد (١) .

ذلك بأن الأســاتذة ينتصرون لعلومهم ، ويؤثرون فى تلامذتهم اثرا غير قليل ، وأثر المتصوفة ، من أساتذة الغزالى واضـــح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية .

ولكن هل نجا الغزالى من محاكاة الفلاســـفة حين كتب فى الأخلاق ؟ كلا ! وان نظرة فى تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، لترينـــا مبلغ محاكاته الفلاسفة الذين كتبوا فى الأخلاق ، والآداب الاجتماعية .

وانك لتضحك بملء فيك حين تراه يقول فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« وأما السياسات فجميـــع كلامهم فيها يرجع الى الحـــكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وانما أخـــذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأولياء »

---

(١) أنظر ص ٩ و ١٠ من المنقذ من الضلال .

وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس واخلاقها ، وذكر اجناسها وانواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وانما اخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالاعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا به ، فأخذه الفلاسفة ومزجوه بكلامهم ، توسلا بالتجمل به الى ترويج باطلهم » ص ١٦ .

وقد لحظ الغزالى أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل اذا وجهت الى فلاسفة الاسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه أشياء من حكم الانبياء والمرسلين ، وقرأوا للصوفية كثيرا من الحكم والأمثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلة اذا وجهت الى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول فى ذلك :

« ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتألهين لا يخلى الله تعالى العالم منهم ، فانهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة الى اهل الأرض » ص ١٧ .

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا أفلاطون ، ولا أرسطاليس فيما وفقوا اليه ، حين كتبوا فى الأخلاق ، وانما الفضل لأولئك « الأوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ آلاف السنين ولا أدرى ماذا يفعل الغزالى اذا أقسم الأغارقة بالله جهد ايمانهم انه لم يكن لهم اله واحد وانما كان لهم ألف اله واله ، بل كان من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل !!

انه لا شك فى ان الغزالى استقى من المنابع الفلسفية ، فى كل ما كتب عن الأخلاق ، وغاية الأمر ان وجهة الدين ، ووجهة التصوف ، غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ، تبدو للنظرة الأولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تأخذ منها بنصيب ، وهى فى الواقع متأثرة بما للفلسفة من أصول .

وانه لا حرج علينا فى أن نقرر أن الغزالى أصلى الفلسفة نار العقوق فقد كانت سبب حصافته ، وذيوع صيته ، ثم أطمع فيها العامة ، ومكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيره لابن سينا والفارابى بالأمر الهين ، وأن فعلته تلك لتحسب بذرة هذه التقاليد المقوتة التى يعانيها المفكرون الأحرار ، فى جميع الأقطار الاسلامية ، منذ حين !

٣ ــ اخوان الصفا

جمعية شبه سرية . اجتمعت فى البصرة فى منتصف القرن الرابع . وانما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة اذ ذاك . وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التى يرونها صحيحة فى جميع الأقطار الاسلامية ، فقد كانوا يرون : « ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » وقد ألفوا احدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم ــ وقالوا فى أول هذه الرسائل : « أن الحكماء الفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا فى علم النفس ، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها لا حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها . ونحن قد أخذنا لب معانيها ، وأقصى أغراضهم فيها ، وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ فى احدى وخمسين رسالة » .

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجىء فيها احيانا وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت على كثير من نسخ رسائل اخوان الصفا (١) .

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٢٥ .

وذكر الأستاذ الكونت دى جلارزا فى محـاضراته بالجامعة المصرية أن احد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « ان الشريعة لم تكن كاملة ؛ بل فيهـا غلطات وجب اصلاحها بواسطة الفلسفة » .

ورسائل اخوان الصفا تحتاج الى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية ، ويكفى أن يعرف القارىء أن الغزالى اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وان صب على أصحابها جام سخطه وغضبه ، لأن استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه لصاحبه ، بل صرح الغزالى بأنه اقبل فى أول حياته العلمية على درس ما عرف لعهده من المذاهب والآراء .

الفارابى

هو ابو نصر محمد بن طرخان . وهو فارسى من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان ــ جاء الى بغداد . واخذ علم المنطق عن أبى بشر متى بن يونان النصرانى الذى توفى سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل الى مدينة حران وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك الى بغداد ، ثم رحل الى دمشق واقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان .

قال سلطان (بك) محمد فى محاضراته بالجامعة المصرية : « وهو فى مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب افلاطون وأرسطو ووقفوا على اغراضها ، وأحسنوا فهمها ، يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الالهى منها ولم يقف على حقيقة اغراضه ومباحثه ، فسئمته نفسه . وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ، وبيده مجلد ، وقال له : اشتر هذا . فلما علم انه فى الفلسفة الالهية ، قال لا حاجة لى به . فقال له الدلال : ان صاحبه محتاج الى بيعه ، ويطلب به ثمنا قليلا . وابيعكه بثلاثة دراهم . قال فأخذته ووجدته تأليف أبى نصر الفارابى ، فلما قراته

وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه » .

وكان معشوق الفارابى من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى قيل انه وجد كتاب النفس لارسطو وعليه بخط الفارابى : « انى قرأت هذا الكتاب مائة مرة » ولكثرة شرحه لآراء الفلاسفة لقب بالمعلم الثانى كما لقب أرسطو بالمعلم الأول . وسئل : انت أعلم أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه ، وتوفى الفارابى رحمه الله سنه ٣٣٩ هـ وهو يناهز الثمانين .

وللفارابى آثار كثيرة عدا عليها الفناء ، ومن مؤلفاته الباقيـة « آراء اهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكى فيه جمهورية افلاطون . وقد انتفع الغزالى بمؤلفاته ، وان حكم بكفره مجازفة وبلا دليل .

ابن سـينا

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر فلاسفه المسلمين ، توفى سنة ٤٢٨ هـ وسنه ٥٨ سنة . وكان من أمهر الأطباء وكتابه « القانون » كان العمدة فى الطب فى القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين . وقد عنى العرب ببسط ارائه الفلسفية ، وبشرح ما دون فى الأخلاق ، وطبائع النفوس .

ولا ريب فى ان الغزالى انتفع بمصنفاته ، وان جازاه جـزاء سنمار حيث حكم بكفره ، مجاراة للعامة ، وطاعة للهوى . « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ابن مسكويه

ومن الفلاسـفة الذين انتفع الغزالى بآرائهم فى الأخـلاق ابن مسكويه : ابو على احمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ وهو

من فلاسفة المسلمين وله عدة كتب فى الأخلاق ، اشهرها كتابه المسمى : « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » ، وهو يقع فى ١٨٥ صفحة ، ويقول فى مقدمته : (غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمى ، والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ما هى وأى شىء هى ، ولأى شىء أوجدت فينا ، وما قواها وملكاتها التى اذا استعملناها على ما ينبغى بلغنا بها هذه الرتبة العلية ... الخ) .

وابن مسكويه هذا ينقل عن الفلسفه اليونانيه بطريقة صريحة ، لا لف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفه اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقه الشريعه الاسلامية ، وكتابه الذى نوهنا عنه له أثر كبير فى تكوين الغزالى من الوجهة العقلية وقد هممت بوضع مقارنة بين كتابه ذاك ، وبين كتاب الأحياء ، ثم رأيت أن هذا باب اذا أطلته طال ، واستنفد وقتا أنا محتاج اليه فى غيره من الأبواب فلاكتف ببعض فقرات نقلها الغزالى عن ابن مسكويه نقلا يشبه أن يكون حرفيا ، من غير أن ينوه بالكتاب الذى نقل عنه ، وما أدرى أكان ذلك مقصودا أو غير مقصود ، ولكنه على كل حال دليل على تأثر الغزالى بمؤلفات ابن مسكويه ، والى القارىء البيان :

١ — يقول ابن مسكويه : (ومن انخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساسات التى لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل ، خليق بتعجيل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه) .

ويقول الغزالى : (ومن انفك عن هذه الجملة كلها ، واتصف باضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد) .

٢ — يقول ابن مسكويه : (ان أول ما ينبغى أن يتفرس فى الطفل ويستدل به على عقله : الحياء ، فانه يدل على انه قد أحس بالقبيح ،

ومع احساسه به يحذره ويتجنبه ، فاذا نظرت الى الصبى فوجدته مستحييا مطرقا بطرفه الى الأرض ، غير وقاح الوجه ، ولا محدق اليك ، فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد احست بالجميل والقبيح ، وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، لا يجب أن تهمل ولا تترك) .

ويقول الغزالى : (ومهما رأى فيه مخايل التمييز . فينبغى ان يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فانه اذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض ، فصار يستحى من شيء دون شيء والصبى المستحيى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه) .

٣ ـ يقول ابن مسكويه : (ان نفس الصبى ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شيء الى شيء) .

ويقول الغزالى : (والطفل امانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة) .

٤ ـ يقول ابن مسكويه : (ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتى يتزين للرجال ، ثم العبيد والخول ، وان الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك . ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكرر ذلك عليه) .

ويقول الغزالى : (ويحبب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وان الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه) .

٥ ـ يقول ابن مسكويه : (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لا سيما من اترابه . ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره او يلاعبه . وذلك أن الصبى فى ابتداء نشوته يكون على الأكثر قبيح الافعال . اما كلها واما اكثرها . فانه يكون كذوبا . ويخبر ويحكي

ما لم يسمعه ولم يره . ويكون حسودا سروقا نماما لجوجا ذا فضول) .

ويقول الغزالى : (ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية ، فان الصبى مهما أهمل خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذابا حسودا سروقا نموما لجوجا ذا فضول) .

وبين العبارتين فرق صغير ، وعبارة الغزالى أدق ، لأنها تعلق فساد الطفل على اهمال تربيته وتأديبه .

٦ ــ يقول ابن مسكويه : (ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والأشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالأدب . ويحذر النظر فى الاشعار السخيفة وما فيها ذكر العشق واهله ، وما يوهم أصحابها انه ضرب من الظرف ورقة الطبع . فان هذا الباب مفسدة للأخلاق) .

ويقول الغزالى : (ثم يشتغل فى المكتب : فيتعلم القرآن واحاديث الأخبار ، وحكايات الابرار ، ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذور الفساد) .

ولئن قال قائل ان هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثالا للنقل والمحاكاة ، فانى أجيبه بأن موافقة الغزالى لابن مسكويه فى بعض الأبواب موافقة تكاد تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه صدى لمن قبله ، وان نصيبه من الابداع قليل .

الفصل الثانى

منبع التصوف

وما زال الغزالى يكرع من مناهل الصوفية حتى روى ، ثم اندفع يحدث الناس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح فى كتاب الميزان ، والأربعين ، والاحياء ، يحديه على

الصوفية ، ورفقه بهم ، واشفاقه عليهم . بل أظهر تبعيته لهم ، ونسبته اليهم ، ثم أخذ يحن اليهم حنين الغريب الى دياره !!

وانظر قوله فى منهاج العابدين :

« وان اللمعة التى تظهر منا الآن ليست الا ممن بقى على منهاج اسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبى ، ومحمد بن ادريس الشافعى ، والمزنى ، وحرملة ، وغيرهم من ائمة الدين ـ رحمهم الله اجمعين . فهم كما قال القائل :

وما صــــحبوا الأيام الا تعففـــــا
وما وجـــدوا من حب ســــيدهم بدا
افاضـــــل صـــديقون اهـــل ولاية
الى سيــد السادات قــد جعـلوا القصدا
تحــال عقــد الصــبر من كل صـــابر
وما حلت الأيام من عقــــدهم عقــــدا

وكنا فى الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة ، وكنا فرسانا فصرنا رجالا ، وليتنا لا ننقطع عن الطريق . والله المستعان على المصائب ، وهو المسئول أن لا يسلبنا هــذا الرمق ، انه جواد كريم ، منان رحيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ص ٩٦ و ٩٧ .

فهل رايت تحرقا أمر من هذا واللذع ؟

اصــل التصــوف

وهذا التصوف الذى يترسم الغزالى آثار اصحابه ليس فى جملته مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وانما هو مزيج من عــدة مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى فى نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد والأصول .

ويمكن الحكم بأن ما فى التصوف من الدعوة الى طهارة الباطن ، وحب الخير ، وبغض الشر ، وما الى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، يرجع فى جوهره الى روح الاسلام ، اما ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد فى الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الاسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يعد معتنقيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فانه يلبس اصحابه ارواح العبيد .

انفاس الصوفية

وانك لترى الغزالى يحاكى الصوفية فى انفاسهم وخطرات قلوبهم ويسايرهم خطوة خطوة فى ذم الناس ، وشكوى الزمان ، واظهر ما يكون هذا فى ذم الأتقياء المزيفين ، وسترى أنه فى كتبه الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى ليصف حاله بهذه الأبيات :

ظفر الطالبون واتصل الوصـ	ـل وفاز الأحباب بالأحباب
بقينا مذبذبين حيارى	بين الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعاد وهذا	نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم	وتهدى الى طريق الصواب
يا طبيب السقام يا مرهم الجر	ح ويا منقذى من الأوصاب
لست أدرى بما أداوى سقامى	وبماذا افوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج الى قيد من الشريعة ، ويسكت عنها لا يقيدها بشيء . واكثر ما انكره عليه معاصروه لم يأته الا من جهة استسلامه للخطرات الوجدانية ، التى علقت بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس فى دمشق وبغداد .

على أن النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحا ، بل رموه بجهل التصوف ، وسلوكه منه فى بيداء يضل فيها النسيم ، حتى اضطر

الزبيدى وغيره الى أن يثبتوا أنه لم يزد على أن حاكى ما فى قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء فى طرائق السلوك .

قوت القلوب

واهم الكتب التى تأثر بها الغزالى من بين كتب الصوفية كتاب « قوت القلوب ، فى معاملة المحبوب » تأليف ابى طالب المكى المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائه ببغداد ولا يوجد الآن فى الأسواق ، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو فى مجلدين ، يقع الأول منهما فى ٢٧٠ صفحة والثانى فى ٢٩٧ .

ويعد هذا الكتاب ـ بحق ـ مصدرا لكتاب الأحياء ويكفى أن تقرأ باب التوكل مثلا فى الكتابين لتعرف انهما يسيران فى طريق واحد ، الى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالبا فى الشواهد من الآيات ، والأحاديث ، والأخبار . ويمكن الجزم بأن الغزالى أودع كتاب الاحياء كل ما صح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب قوت القلوب ، وان لم يشر الى ذلك ، وربما ستر هـذا بتغيير العناوين . فاذا قال أبو طالب المكى : (ذكر حكم المتوكل اذا كان ذا بيت) قال هو : (بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم) . وربما وضع عنوانا لمسألة لم تعنون فى قوت القلوب ، وقد يضع صاحب القوت مسألة تحت عنوان ، فيأتى الغزالى ويدمجها فى كلامه ، فيخيل الى القارىء انها له ، ولولا خشـية الاطالة لضربنا لذلك الأمثال .

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية على السواء فيما سلف من الأيام . وينقلون عن ابى الحسن الشاذلى أنه قال : كتاب الاحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور » ولهذا القول وجه من الصواب ، فانك تجد الاسهاب والتفصيل فى الاحياء ، وتجد الدقة وروعة الاخلاص فى القوت ، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الاحياء ، فانه يغرب فى التصوف ، وحظ أسلوبه من الدقة قليل .

الرسالة القشيرية

هى رسالة فى التصوف لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ . وهى تقع فى ١٨٦ صفحة . ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ويسمى هذا الشرح : « احكام الدلالة فى شرح الرسالة » .

وقد كتب القشيرى رسالته هذه : (الى جماعة الصوفيـــة ببلدان الاسلام فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائه) كما قال فى المقدمة فهى اذن منشور عام لاصلاح المتصوفة فى ذاك الحين ، وقد ابتدأها بصرخة تشبه التى نقلناها للغزالى من منهاج العابدين ، فهو يقول : « اعلموا رحمكم الله ان المحقين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا اثرهم ، كما قيل : -

أما الخيام فانهـا كخيامهم ... وارى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة ...» الخ) .

وقد شرح القشيرى فى بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية فى مسائل الاصول فى التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بايجاز ، ثم فسر الألفاظ التى تدور بين هـذه الطائفة ، وبين ما يشكل فيها على المريدين ، كالوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، الى آخر ما قال .

ثم وضع عدة أبواب فى المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما الى ذلك مما يهم السالكين .

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شــيوخ الطريق . وقد صدق الزبيدى فيما رآه من أن الغزالى اعتمد

عليها عند تأليف الاحياء . وان كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة ، ومن السهل أن يثبت الانسان أثر هذه الرسالة فى أكثر أبواب الاحياء ، وما أدرى لم لم يشد الغزالى بذكر مؤلفها ومؤلف قوت القلوب ، مع أن فضلهما عليه كبير !

الفصل الثالث
من عرف الغزالى من الصوفية

ويجمل بنا ان نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالى ونريد بذلك من قرأ لهم ، واستشهد بكلامهم فى مؤلفاته ، لان تأثيرهم غير قليل فى تكييف أحكامه الأخلاقية ، وطبعها بذلك الطابع الصوفى المعروف .

الامام الشافعى

ولد رضى الله عنه بغزة ، ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ بعد أن أقام بها اربع سنين . وكان سنه حين مات ٥٤ سنة . وليس غرضنا ان نتكلم عنه من الوجهة التشريعية ، فان لذلك مجالا غير هذا المجال ، غير انه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب « الأم » الذى ينسب اليه ليس له ، وانما هو من تأليف البويطى كما نص الغزالى فى الاحياء .

والذى يهمنا الآن : هو ان نصور الشافعى كما تصوره الغزالى ، اى من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفا بالتقوى ، ونسيان الذات ، حتى ليقول : (وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب الى منه حرف) .

نماذج من كلامه

والى القارىء نماذج من كلماته التى جرت مجرى الأمثال .
قال رضى الله عنه : « اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب فى مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه ـ المراء فى

العلم ، يقسى القلب ، ويورث الضغائن ــ من لم تعزه التقوى فلا عز له ــ سياسة الناس اشد من سياسة الدواب ــ لو علمت ان الماء البارد ينقص مروءتى ما شربته ــ ليس بأخيك من احتجت الى مداراته ــ من علامة الصادق فى أخوة اخيه أن يقبل علله ، ويسد خلله ، ويغفر زلله ــ لا تشاور من ليس فى بيته دقيق ــ لا تقصر فى حق اخيك اعتمادا على مروءته ، ولا تبذل وجهك الى من يهون عليه ردك ــ من نم لك نم عليك ــ من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله » .

المـزنى

هو الامام ابو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى . ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفى سنة ٢٦٤ هـ تلقى العلم عن الشافعى وصار من ناشرى مذهبه . وكان الشافعى يقول فيه : (لو ناظر الشيطان لغلبه) !! ونقل السبكى عن عمرو بن عثمان المكى : (ما رأيت أحدا من المتعبدين فى كثرة من لقيت منهم أشد اجتهادا من المزنى ، ولا ادوم على العبادة منه ، وما رأيت أحدا اشد تعظيما للعلم واهله منه ، وكان من أشد الناس تضييقا على نفسه فى الورع ، وأوسعهم فى ذلك على الناس) .

حرملـة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ هـ ، وتوفى سنة ٢٤٣ هـ ، وهو من تلامذة الشافعى ورواة حكمه . قال السبكى : (وقد ينفرد حرملة فى بعض المسائل ويخرج عن المذهب تأصيلا وتفريعا ، كما قد يفعل ذلك المزنى وغيره فى بعض الأحايين) .

المحاسبى

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبى المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقول أنه سمى المحاسبى لكثرة محاسبته لنفسه وقد ألف فى الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتى كتاب . وكان الجنيد يقول : « كنت كثيرا ما أقول

للحرث : (عزلتى انسى) فيقول : كم تقول انسى وعزلتى ؟ لو ان نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم انسا ، ولو ان نصف الخلق الآخر نأوا عنى ، ما استوحشت لبعدهم . وانشد منشد بين يدى الحرث هذه الأبيات :

انا فى الغــــــربة ابكى	ما بكت عـــين غـــريب
لم أكن يوم خـــروجى	من بـلادى بمصـــيب
عجبـــا لى ولتـركى	وطنـــا فيـــه حبيبى

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره .

ومن كلامه : « خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم من دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم ــ حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام ــ الظالم نادم وان مدحه الناس والمظلوم سالم وان ذمه الناس ــ القانع غنى وان جاع ، والحريص فقير وان ملك » .

الجنيد

هو فى نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الاطلاق ، توفى سنة ٢٩٨ هـ ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل .

ومن كلامه : « ان الله يخلص الى القلوب من بره ، على حسب ما تخلص اليه القلوب من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك ــ الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار ــ اذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم ، وابدأه بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه » .

* * *

وفى كتب الغزالى عدد عظيم من الصوفية ، يؤكد بكلامهم رأيه ، وكان لأولئك الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات مأثورة يتداولها الناس لعهده ، وانه لا شك فى انتفاعه بتلك الآثار . والرغبة فى الايجاز هى التى أرضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل .

الفصل الرابع
منبع الشريعة

واهم المنابع التى استقى منها الغزالى هو منبع الشريعة ، ممثله فى الآيات والأحاديث والاخبار . ويرى غير واحد من علماء هذ العصر أن الأخلاق عند الغزالى هى عين الأخلاق الاسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من اكثاره فى مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطئوا حين تقرأ ما فصلنا من آرائه فى الأخلاق .

ويشمل هذا المنبع ففهاء المسلمين الذين تأثر الغزالى بآرائهم فى المعاملات . مع انه احتاط فى النقل عنهم ، ولكن هذه الحيطة لا تزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف .

الانجيـــل

اطلع الغزالى على الانجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليـــه ما شاء فى مؤلفاته . وهذا طبيعى من رجل مسلم أوصاه دينه ان لا يفرق بين احد من الأنبياء .

ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر فى هذا الموضوع . لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالى الى مطالعته للانجيل مع ان الغزالى لم يضل الا حين تعلق بأهداب الآداب السلبية التى دعا اليها الانجيل !!

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التى وضعها الانجيل غــير طبيعية ، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن اليها بطبيعته احد من الناس . فالحكمة الانجيلية التى تقول : من ضربك على خــدك الايمن فأدر له خدك الأيسر حكمة غير معقولة ، لا يقرها عرف ، ولا يدعو اليها قانون — والحكمة المسيحية التى تقول : من سخرك ميلا فامش معه ميلين حكمة غير ممكنة القبول . ومن المستحيل أن تجد مسيحيا يدير لك خده الأيمن حين تضربه على خــده الأيسر ، أما المسيحى الذى يتبعك ميلين حين تسخره ميلا فهــو نادر الوجود !!

ومن المستطرف ما لاحظه الدكتور زويمر على ما رواه الغزالى عن المسيح من انه مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل . فقد قال : الحقيقة أنها اربعون . ولم تتعب نفسك يا سيدى الدكتور فى هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال فى خيال ، لأن الذى يمكث ستين يوما او أربعين يوما بلا طعام لا يصلح لشىء فى هذا الوجود الزاخر بالجهد والجلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهبان ان يحيوا هذه الحياة ! وهبهم استطاعوا فما عسى ان تكون منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أفدح من قول الغزالى فى الدرة الفاخرة : « اعتبروا بعيسى عليه السلام ، فقد قيل انه لم يملك الا ثوبا واحدا لبسه عشرين سنة ؛ ولم يأخذ معه فى كل سياحاته الا كوزا وسبحة ومشطا . ورأى ذات يوم رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانيا ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه ، فطرح المشط ولم يستعمله ثانيا ، وكان يقول دائما : حصانى قدماى ، وبيوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتها ، وشرابى من ماء أنهارها، ومقرى بين بنى آدم » .

وهذه من الغزالى دعوة مردودة ، لأن الاسلام لا يعرف هذا النوع من الحياة ،وكيف يدعو المسلمين الى أن يعتبروا بما روى من عيسى لم يملك الا ثوبا واحدا لبسه عشرين سنة ، مع أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة ، الا أن تكون هذه أيضا معجزة ، وعفا الله عمن لا يفهم هذه المعجزات !!

ان عيسى الذى يصورونه بهذه الصورة شخص خرافى لم يعرفه التاريخ . والا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ، ولا يعرض لابسه لنفرة تلامذته وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالى عن المسيح من انه قال : « اذا كان صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا

يرى الناس أنه صائم » فان فى هذا الحديث دعوة الى كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنبا للتمدح بمظهر الصيام .

أليس من العجيب أن يصدق الغزالى أن عيسى يقول : من أخذ رداءك فأعطه ازارك ، ومن ذا الذى يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب ؟!

ويستشهد الغزالى بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء واحد . مع أن هذا مناقض للآية الكريمة : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . ويستشهد بقول عيسى : انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوما بيوم ، فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا الى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق . وهذا يناقض الآية الكريمة « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ومن الواضح أن الذى لاينسى نصيبه من دنياه ، يسعى له ، ويجد فى طلبه .

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام ، وانما نرجح أن أتباعه جنوا على شريعته ، بما زوروا باسمه من الأحاديث وهذه جناية كثيرة الأمثال فى الشرائع ، فان الاسلام مع تواتر سنده الأول وهو القرآن ، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوروا الأحاديث باسم النبى حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق ، وروعة الجمال .

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو الى الزهد ، فان الدعوة الى الزهد أصل من أصولها الأولى . ولكنا نرجح أنها كانت تدعو الى الزهد بقدر ما تفل من حدة الناس وتقلل من جشعهم وطمعهم فأما الدعوة الى الفرار من طيبات ما أحل الله فهى دعوة بعيدة الوقوع من الانبياء والمرسلين .

وكنا نحب أن لا يصدق الغزالى كلّ ما نقلَ عن المسيح ، ولكن الغزالى كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج العلماء الى الاعتصام بحبل الشك ، فان الشك وحده سبيل اليقين .

الفصل الخامس

اساتذة الغزالى واصحابه

وبعد الذى قدمناه من ورود الغزالى للمناهل الفلسفية ، والشرعية ، والصوفية : لا نجد بدا من التنبيه الى انه اغترف كذلك من المنهل الذى ورده اساتذته واصحابه . وقد لاحظنا أن الذين تتلمذ الغزالى لهم كانوا فى الأغلب صوفية ، كما أن أكثر من صحبهم كانوا صوفية .

فمن اساتذته الامام أحمد بن محمد الرذاكانى ، وكان من الفقهاء الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الأولى فى طوس .

ومن اساتذته الامام ابو نصر الاسماعيلى ، وكان من الأمثلة النادرة فى الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالى فى جرجان ، وعلق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون .

ومن اساتذته امام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ، وقد تلقى عنه الغزالى فى نيسابور ، ويقال انه كان يحسد الغزالى ، بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ .

ومن اساتذته الامام الزاهد أبو على الفارمذى من أعيان تلامذة أبى القاسم القشيرى وكان أستاذه فى التصوف وقد عده السبكى من أصحابه .

هؤلاء وغيرهم من اساتذة الغزالى واصحابه اثروا فى حياته العقلية تأثيرا غير قليل ، وطبعوا نظره الى الحياة بطابع خاص ، وفى مقدور القارىء أن يرجع الى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا اخبارهم فى طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالى فسنعود اليهم فى غير هذا الباب .

الباب الرابع

في مؤلفات الغزالي

تمهيد

تكلم ابن السبكى فى طبقاته عن مؤلفات الغزالى ، وتبعه الزبيدى فى شرح الاحياء ، ثم كتب جرجى زيدان فى صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالى ، وتمتاز هده الكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثانى الاشارة الى اماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت او مطبوعة . الا انه لحسن حظ العلم نجد أكثر ما نوه جرجى زيدان بندرته أصبح اليوم فى المكاتب والأسواق .

واهم كتب الغزالى فيما نحن بصدده من درس الأخلاق ، « كتاب الاحياء » ، وسنكتب عنه كلمه مفصله ، وكتاب « ميزان العمل » وهو يقع فى ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفصل فى دقته كتاب الاحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه « معيار العلم » . وقد قال فى مقدمته : (لما كانت السعادة التى هى مطلوب الأولين والآخرين لا تنال الا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منهما الى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، وجب معرفة العلم المسعد ، والتمييز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك ايضا الى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه .. الخ) وقد نص على انه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف .

ويلى هذين الكتابين فى الأهمية كتاب « الأربعين » . وهو جزء من كتاب « جواهر القرآن » ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الاحياء ، وهو قريب منه فى الموضوعات وفى التبويب .

ومن مؤلفاته الهامة فى الأخلاق كتاب « منهاج العابدين » وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحتـه بسبب العزلة . ونقل الزبيدى عن المسامرة لابن عربى أنه ليس له ، وانما هو لأبى الحسن على بن عليل السبتى ، وسترى بعـد قليل ما زور باسم الغزالى من التآليف .

وهناك « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، كتبه للسلطان محمد بن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب اخذنا راى الغزالى فى آداب الكتاب وواجبات الملوك ، وحقوق الوزراء . وسترى بعد ، كلمة فى نسبة هذا الكتاب الى الغزالى ، وهو يقع فى ١٢٤ صفحة وتجده مشحونا بالأقاصيص ، وهى فكرة حسنة فى الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها كتابه هذا ، ولكنها فيه اظهر من سواه .

ولا تنس كتابه « المنقذ من الضلال » ففيه صورة صـادقة لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهة نظره فيما شهده من الحركة العلمية فى عصره ذاك ، وقد كتبه بسذاجة ظاهرة تكشفت لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيش بالاخلاص .

وكتابه « المستصفى فى الأصول » كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبيح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء .

ورسالته « مشكاة الأنوار » تمثل لنا رأيه فى منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع فى شرح قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الى آخر الآية .

ويعد الغزالى من اكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (!) واهمها جميعا كما قدمنا هو كتاب الاحياء وهو سبب ما رزق من الخلود .

الفصل الأول

طريقته فى التأليف

وللغزالى فى التأليف منهج جميل ، فهو يشرح اولا المذهب الذى يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن الف كتابا فى مقاصد الفلاسفة ، حين هم بتأليف كتاب فى تهافتهم ، ويقول فى كتابه ذاك (ولنفهم الآن ما نورده على سبيل الحكاية مهملا مرسلا ، من غير بحث عن الصحيح والفاسد ، حتى اذا فرغنا منه استأنفنا له جدا وتشميرا فى كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة) .

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر فى « المنقذ من الضلال » ص ٢٠ ، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكر عليه مبالغته فى تقرير حجتهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فانهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ، وترتيبه اياها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم الى حد الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لا نسرف ان كررنا أنه جميل .

ومما تمتاز به خطة الغزالى فى التأليف ، الاعتماد على الخطابيات فى اصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ، يبدأ بذكر ما ورد فى حمدها من الآيات ، يعقب بسرد ما جاء عنها من الاحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار ، وينطلق بعد ذلك فى ذكر القصص والحكايات التى تستولى على قلب القارىء ، وترسم فى

نفسه أثر تلك الفضيلة ، وما لها من مقام محمود ، والأمر كذلك اذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ، وهو فى هذا الباب لا يعتبر مبتكرا ، فقد سبقه القصاص ، ولكنه آخر عفى على الأولين ؛ وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو استنكار على غير أساس . ويكفى أن تقرأ كتب سميلز الانجليزى المتوفى فى ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج فى رأى المعاصرين ، فانى لم أر أحدا يستنكر منهج سميلز فى الاكثار من الأقاصيص للترغيب فى مكارم الأخلاق .

وتمتاز كتب الغزالى الأخلاقية بأنها صالحة لكل قارىء ، فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة ، أو فريق خاص ، وانما وضعها لجمهور المسلمين .

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالى : وهى اقباله على الخيال فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة ، تخلب العقول ، وتمتع القلوب . وانظر كيف يشبه من يحسب المحسن انما يحسن باختياره انه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك الى القلم : اذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد الى الاصبع ، ومنها الى اليد ، ومنها الى القدرة المحركة لليد ، ومنها الى الارادة التى القدرة مسخرة لها ، ومنها الى المعرفة التى يتوقف انبعاث الارادة عليها ، ومنها الى صاحب القدرة والعلم والارادة(١) .

ويشبه الضعيف القلب ، بالحمار فى معلفه ، والدجاج فى قفصه يرمق ما تعود من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وتقاعدت نفسه عن معالى الأمور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد أمرا شريفا (٢) .

---

(١) ٢٧٩ الاربعين .
(٢) ٧٦ منهاج .

والذى يعبر بنظره كتاب الاحياء وكتاب الاربعين وكتاب المنهاج، يرى البدائع الفنية ، والوان البيان ، فى طرق الترغيب والترهيب، وهو يجيد فى التخييل حتى يغلب القارىء على أمره ، ويشككه فى نفسه ، ويحمله قهرا على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر فى مؤلفات الغزالى ، اذ كانت فى الأغلب وساوس صوفية غشيت بألوان السحر والفتون ، فلا يسلم منها الا العالمون والأقوياء .

الفصل الثانى

الصوت المردد فى مؤلفات الغزالى

ومع محاكاة الغزالى لمن تقدمه من المؤلفين ، فانا نراه يكرر كثيرا الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته واحدة ، فى جميع مؤلفاته ، ويمكن الحكم بأن الاحياء ، والأربعين ، والميزان ، والمنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب فى الدين ، وبداية الهداية ، وجزءا كبيرا من مؤلفاته فى الفقه والتوحيد ، اقول يمكن الحكم بأن جميع هذه المؤلفات يندر أن تكون بينها فروق جوهرية . ولو أننا وازنا بين كتبه فى باب كتاب الاخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ، وانما تختلف بالاطناب والايجاز .

واذ كان الرجل مفتونا بآراء الصوفية فانا نجد تأثره بهم يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو فى المنهاج ، أقرب اليهم منه فى الاحياء ، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك .

ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالى بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكناف الشريعة ، فيمنع ما تمنع ويبيح ما تبيح . وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون اليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقى لغير الخواص .

وينتج مما سلف أن الغزالى ليس من المبتكرين المبدعين ، وانما يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذى أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وان لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وقد افاق الناس ولم يروا غير الغزالى ، ثم هرعوا اليه ، فوجدوا كتاب الاحياء فى يمناه ، وما زالوا به يحلمون .

الفصل الثالث

كتاب الاحيـــاء

هو اهم ما كتب الغزالى فى الأخلاق ، الفه فى أخريات حياته حين جنح الى اعتزال الناس ، ثم قرأه فى دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط .

وقد أسسه على أربعة أرباع : ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وربع العادات ، ويشتمل على كتاب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العـزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخـــلاق النبوة .

وربع المهلكات : ويشـــتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللســـان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخـل ،

وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وربع المنجيات : ويشتمل على كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت .

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالى بكتاب الاحياء ، وليس كثيرا أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء عمدتنا فيما قصدنا اليه من تحرير ما وضع الغزالى فى الأخلاق ، ومن الخير ان نذكر راى الغزالى نفسه فى ذلك الكتاب الممتع الجامع فقد قال بعد أن بين ما اختطه فى شرح العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات : « ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتبا ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة امور :

الأول ـ حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثانى ـ ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه .

الثالث ـ ايجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه .

الرابع ـ حذف ما كرروه ، واثبات ما حرروه .

الخامس ـ تحقيق امور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب اصلا ، اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه » .

الفصل الرابع

اغلاط الاحيـــاء

نذكر هنا شيئا من المآخذ التى أخذها المتقدمون على الغزالى فيما يخص كتاب الاحياء . لأن فى ذلك بيانا لقيمة هذا الكتاب فى نظر المتقدمين ، ولأن فيه تمهيدا لما نحن بسبيله من نقد آراء الغزالى فى الأخلاق .

١ ــ نقل السبكى فى طبقات الشافعية أن أبا عبد الله المأزرى قال وقد سئل عن الاحياء : « ان الغزالى يستحسن أشياء مبناها على ما لا حقيقة له ، مثل قوله فى قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة » !

٢ ــ وانكروا عليه كما نقل الزبيدى ، قوله فى الاحياء : ليس فى الامكان أبدع مما كان ، واستندوا فى انكارهم الى أن هذا يوهم عجز الجناب الالهى ، وهو كفر صريح ، وانما انحصر انكارهم فى هذه الوجهة لاغراقها فى المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة فى سبيل الاختراع .

٣ ــ ونقل الزبيدى عن الأجوبة المرضية للشعرانى أن مما أنكر على الغزالى قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال ، ان قطعت قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر ! وقد أجاب الزبيدى على هذا بجواب مضحك جاء فيه : (وبالجملة فلو كان جميع أموال الدنيا وأمتعتها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة باتلافها كلها ، بحرقها أو رميها فى بحر لكان ذلك بطريق الاجتهاد ، ولا لوم الا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله اسرافا وسفها) وقد فات الزبيدى أن غرض المنكر ليس منصبا على التبديد والاسراف ، وانما هو موجه الى الخروج من الوقار ، فانه لا مرية فى أن غـرض

الشرع من التجمل انما يرجع الى الرغبة فى أن يسبغ على المؤمن رداء الجلال .

٤ ــ ومما أنكروا عليه قوله فى الاحياء : المقصود بالرياضة تفريغ القلب ، وليس ذلك الا بالخلوة ، والجلوس فى مكان مظلم ، فان لم يكن مظلما لف راسه فى جيبه ، أو تدثر بكساء أو رداء فانه فى مثل هــذه الحالة يسمع نداء الحق تعــالى ويشاهد جلال الربوبية (!؟) .

وقد تنبه ناقدوه الى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون ! فمن يدرينا أن ما يسمعه المتريض هو نداء الحق ، أو أن الذى يشاهدوه هو جلال الربوبية ، ومن يضمن أن لا يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة !؟

٥ ــ وانكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : اذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (!)

٦ ــ وانكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع فى برية ليمتحن توكله على الله هل صح أم لا (!؟) قالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه لأسباب الهلاك ؟

٧ ــ ومما انكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ فى بدايتــه يكسل عن قيام الليل ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفسه بحيث تجيبه الى قيام الليل اختيارا ، وكذلك عالج بعضهم حب المال : فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها فى البحر خوفا من أن يقع فى حب تزكية الناس له ، ووصفه بالجود ، أو الرياء فى فعلها ، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه على رءوس الاشهاد ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكان بعضهم اذا خاف النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا يأخذه النوم (!) قال ابن القيم : وانى

لاتعجب من أبي حامد هذا كيف يأمر بهذه الأمور التي تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لأحد ان يقوم على راسه طول الليل ، وكيف يحل رمى المال في البحر ، وكيف يحل سب المسلم بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم أن يستأجر من يشتمه ، وهل يجوز لأحد أن يقوم على رأس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع بالنوم فتنكسر رقبته فيموت ؟؟

٨ ـ ومما أنكروا عليه حكايته عن ابن الكريتي شيخ الجنيد انه قال : نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فشت قلبي ، ونفر منه ، فدخلت الحمام ، وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم لبست مرفعتي فوقها ، وخرجت فجعلت أمشي قليلا قليلا ، فلحقوني وأخذوا مني الثياب ، وصفعوني وسموني لص الحمام ، فسكنت نفسي (!!) قال الغزالي ، فهكذا كانوا يروضون انفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر الى الخلق ومراعاتهم لهم ، وأهل النظر الى النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، اذا رأوا صلاح قلوبهم في ذلك ، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا في الحمام (!!) قال ابن القيم : سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الاحياء ! فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التي لا يحل لأحد السكوت عليها ؛ ثم نقل نص الامام أحمد والشافعي في ان من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجبي من هذا الفقيه الذي استلب التصوف علمه وعقله ، اكثر من تعجبي من هذا المستلب الثياب من الحمام ! فياليت ابا حامد بقي مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهذيانات .

٩ ـ وانكروا عليه تقرير ما حكاه عن أبي الحسن الدينوري أنه حج اثنتي عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الراس ! قال ابن القيم : وهذا من اعظم الجهل لما في ذلك من الأذى للراس والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكان هؤلاء

الصـوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلبيس ابليس . فان مثل هده الحكايات تفسد عقائد العوام ، اذ يظنون أن فعل مثل هذا من الصواب .

١٠ ـ وأنكروا عليه تفسريره عن أبى الخير الأقطع التيتانى قوله : انى عقدت مع الله عهدا ان لا آكل شيئا من الشهوات ، فمددت يدى الى ثمرة فى شجرة فقطعتها ، فبينما انا أمضغها اذ ذكرت العهد فرميت بها من فمى ، فدار بى فرسان وقالوا قم ! وأخرجونى الى ساحل بحر اسكندرية ، واذا أمير وحوله خيل وجند ، فقالوا أنت من اللصوص ، واذا معهم جماعة من لصوص السودان ، فسألوهم عنى ، فقالوا لا نعرفه ، فكذبهم الأمير وشرع يقدم يدا ويقطعها الى أن وصل الى ، وقال لى : تقدم ومد يدك ، فمددتها فقطعت الى آخرها !! قالوا : فانظروا ما يفعل الجهل العظيم بصاحبه ، فلو أن عند التيتانى رائحة علم ، لعلم ان ما فعله حـرام عليه ، وليس لابليس عون على الزهاد والعبـاد أكثر من الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء الا من الجنون .

١١ ـ وأنكروا عليه قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه . وأصل ذم الصوفية للعلم انهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرياسة الا بعد طول زمان ، بخلاف طريقتهم المبتـدعة من لبسهم الزى ، وصـلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، وتقصير الثياب والأكمام .

١٢ ـ وانكروا عليه حكايته عن أبى تراب النخشبى انه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (!!) قال ابن القيم : وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات .

١٣ ــ وانكروا عليه تقـريره لرمى الشبلى ما كان معـه من الدنانير فى دجلة ، وقوله : ما أعزك عبد الا أذله الله تعالى . قال ابن القيم : وانا أتعجب من أبى حامد أكثر من تعجبى من هـؤلاء الجهلة بالشريعة ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجـه المدح لهم ، لا على وجه الانكار ، وأى رائحة بقيت من الفقـه عند أبى حامد حتى يكتب عنه شيء من العلم ؟ فان الفقهاء كلهم يقولون ان رمى المال فى البحر لا يجوز .

١٤ ــ وأنكروا عليه تقريره قول أبى سليمان الدارانى : اذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر فى طلب المعاش ، أو تزوج ، فقد ركن الى الدنيا (!؟) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة . وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : « ان الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم » ؟ وكيف لا يطلب المعاش . وقد قال عمر رضى الله عنه : « لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحب الى من أن أموت غازيا فى سـبيل الله ؟ » وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : « تناكحوا تناسلوا فانه مباه بكم الأمم يوم القيامة ؟ » .

١٥ ــ وأنكروا عليه تقريره قول أبى حمزة البغدادى : انى لأستحى من الله أن أدخل البـادية وأنا شبعان : وقـد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعى زادا تزودت به (!) قالوا : ومن العجب اعتـذاره عن أبى حمـزة بقوله : كلام أبى حمزة صحيح ، ولكن يحتـاج الى شرطين : أحدهما أن تكون للانسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعا ونحوه . الثانى ان يمكنه التقوت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع ، أو ينتهى الى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته . قال ابن القيم : أقبح ما فى هذا القول صدوره من فقيه فانه قد لا يلقى أحدا . وقد يضل ، وقد يمض فلا يصلح له الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد .

١٦ ــ وانكروا عليه ما أجاب به من ســأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله ــ قيل له فان مات ؟ قال : الدية على العــاقلة (!) قالوا : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام انه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة فى الآخرة .

١٧ ــ وأنكروا عليه ايضا ما حكاه عن شقيق البلخى انه رأى مع شخص رغيفا ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك رغيفا الى الليل !

١٨ ــ وكذلك أنكروا عليــه قوله : اعــلم أن ميل قلوب أهل التصوف انما هو الى تحصيل العلوم اللدنية ، دون العلوم النقلية، ولذلك لم يحضوا على دراســة العــلم ، ولا تحصيل ما صنفــه المصنفون ، وانما حضــوا على الاشتغال بالله تعــالى وحــده ، والاشتغال بذكر الله فقط (!؟)

١٩ ــ وانكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه الســلام : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنــام » . فقــد قال : الأصنــام الذهب والفضــة . وعبادتهما حبهما والاغترار بهما . وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد .

٢٠ ــ وانكروا عليه أيضا تقريره قول سهل التسترى : ان للربوبية سرا لو ظهر لبطلت النبوة ، وان للنبوة سرا لو ظهــر لبطل العــلم ، وان للعلمــاء بالله سرا لو ظهــر لبطلت الأحــكام والشرائع (!؟)

وأنا أكتفى بهذا القدر من اغلاط الاحياء ، ففيه صورة واضحة لآراء العلمــاء فى ذلك الكتاب ، وسترى فى باب غير هذا أن هذه الحــركة العنيفــة لم تخمد بموت الغزالى ، بل ظلت ثائرة عدة

اجيال . وما عجبت لشيء عجبى للزبيدى ، فقد تولى تفنيد هذه المآخـذ ، واحـدا واحدا . وهو تعسف ممقوت . يكفى أن نعلم أنه لا يرتكز على قاعدة مسلمه ، من عرف ، أو تشريع ، وانما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء . ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع الى الجزء الأول من شرح الاحياء ، من ص ٢٧ الى ص ٤٠ .

ومن الأجوبة السخيفة ما اجاب به السبكى عن الغزالى فى قص الأظفـار فقـد قال : وأما ما ذكروه فى قص الأظافر فالأمر المشار اليه يروى عن على كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس فى ذلك كبير امر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطىء . ومن داوم عليه أمن من وجع العين . ويروون من شعر على كرم الله وجهه هذا :

ابدأ بيمنـــاك وبالخنصر	فى قص أظفـارك واستبصر
واختم بســبابها هكذا	فافعله فى الرجل ولا تمتر
وابدأ ليسـراك بابهامهـا	والأصبع الوسطى وبالخنصر
ويتبع الخنصر ســبابة	بنصرها خاتمـــة الأسر
هذا امان لك قـد جـربه	من رمد العين كما قد قرى

والسخف ظاهر كل الظهـور فى هذا الجواب ، والا فما هى الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفيه ، وبين الأمن من وجع العين ؟ وكيف قال على بن ابى طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من افصح الناس ؟

الواقع أن الغزالى كان فتنة من فتن العصور القديمة ، وقد نسى العلماء فى الدفاع عنه أن هناك عقلا يجب أن يحكم ، وانه لن يخلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون !

الفصل الخامس
غفلة الغزالى وعناده

— ١ —

أما غفلته فدليلها ما فى كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وهى تقرب من ستمائة حديث .

وانا لا اشك فى نزاهة الغزالي وبعده من الكذب على رسول الله ، فمحال على مثله فى ورعه وتقواه ان يزور على النبى حديثا ، او يضع فى كتبه أحاديث يعلم انها من الموضوعات . وحقيقة الأمر ان الرجل كان « يمتاز » بقسط كبير من الغفلة والبساطة ، والا فكيف صدق أن النبى يقول : « ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » . واقل الناس علما بالبلاغة يدرك ان رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث وكيف يصدق ما روى من ان جبريل نزل فقال : « ان الله يقرئك السلام . ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما كنت ؟ » .

وما لى اطيل فى نقد ما جاء فى الاحياء مما لا اسناد له من الأحاديث وهى مسطورة فى طبقات الشافعية ، فى ثمان وثلاثين صفحة من الجزء الرابع . والضعف فيها ظاهر لا يحتاج الى دليل .

— ٢ —

وأما عناده فدليله اصراره على ابقاء ما جاء فى كتبه من الأغلاط ورميه نافديه بالغباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يجمل به أن يتأمل نقدهم برفق ، ويميز بين الغث منه وبين السمين ، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيغ والفسوق .

وبيـان ذلك انه ما زال يغرب معاصروه فى الانكار عليه حتى ضاق تلامذته ذرعا بذلك ، فكتب اليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم فصنف كتابا سماه : « الاملاء فى اشـكالات الاحيـاء » . وما نريد الآن تلخيص هذا الكتاب ، فهو فى أيدى الناس ، وانما نذكر مقدمته لنرى كيف ابتاس بما فعل أولئك المنكرون ، فان فى هذا صورة لجانب من جوانبه الأخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وايمانه بصحة ما جاء فى الاحياء ، وعدم اكتراثه بآراء الناس .

قال : (سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل مغانيها ، عن بعض ما وقع فى الاملاء الملقب باحياء مما أشكل على من حجب فهمه . وقصر علمه . ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، واظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطغام ، وامثال الأنعام ، واجماع العوام ، وسفهاء الاحلام ، وعار اهل الاسلام : حتى طعنوا عليه . ونهوا عن قراءته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه الى ضلال واضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال ، فالى الله انصرافهم ومآبهم . وعليه فى العرض الاكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ، ولو ردوه الى الرسول والى اولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولكن الظالمين فى شقاق بعيد . ولا عجب فقد ثوى (١) دلاء الطريق وذهب ارباب التحقيق ، فلم يبق فى العالب الا أهل الزور والعسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ،

---

(١) هلك .

ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة ثناء ، او مغالبة نظراء . قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر . وتآلفوا جميعا على الفعل المنكر . وعدمت النصـائح منهم فى الامر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، ان نصحهم العلماء اغروا بهم ، وان صمت عنهم العقـلاء ازروا عليهم ، اولئك الجهـال فى علمهم ، الفقراء فى طولهم ، البخـلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهـر عليهم موارثة الصدق ، ولا تسطع حولهم انوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم أعـلام المعـرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية . لأنهم لم ينالوا احوال النقباء ، ومراتب النجباء وخصوصية البـدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم أهل الباطن) ... الى آخر ما قال .

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة ان الغزالى نصر بعد ان نقـده معاصروه على التشبث بأذيال الصـوفيه . ويمكننا ان نتوقع ما سيجيب به فى كل ما اخذ عليه من الوجهة الشرعية ، ويجب أن نفهم ذلك منـذ الآن ، لنخرج كل ما نقلنـاه فى آرائه الأخلاقيـة من الشذوذ هذا التخـريج ولنرجع اسرافه فى بعض المواطن الى هذا الأصل الذى اختاره وارتضاه وهو التصوف والا فمن هم النقبـاء ، والنجباء ، والبدلاء ، والأوتاد ، ان لم يكونوا جماعة من المتصوفة الذين ستبيحون ما لا يباح ؟ !

ومن ظرف ما اجاب به الغزالى فيما اخذ عليه من الأغلاط النحوية ، انه قليل الخبره بالنحو ، ثم ما اجمل نصحه لتلامذته بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من اشـباه هذه الأغلاط !ويا ليته نصح بمثل هذا فى اصلاح ما ضل فيه من الأحكام !

الكذب على الغزالى

ومما يجب التنبيه له أن الغــزالى لم يســـلم من الكذب عليه فقــد وضعت المؤلفــات باســمه ، واتجر به المضللون . ويذكر الزبيدى من هذه الكتب : (السر المكتوم فى أسرار النجوم) وينص على ان هذا الكتاب نسب ايضـــا الى الفخر الرازى ، وانه سئل عنه فانكره . ومما دس على الغزالى كتاب : تحسين الظنون ، وكتاب النفخ والتسوية ، وكتاب المضنون به على غير أهله . قال السبكى : ذكر ابن الصلاح انه منسوب اليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له ، وبين ســبب كونه مختلقا موضــوعا عليــه . قال الزبيدى : والأمر كما قال : فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم، ونفى القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالى قائلها هو واهل السنة اجمعون ، فكيف يتصور انه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العنانى فى محاضراته بالجامعة المصرية انه يبعد ان يكون « المضنون به على غير أهله » هو ما بأيدى الناس ، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذى قصده الغزالى من « المضنون به على غير أهله » ويرجح الدكتور العنانى ان يكون « المضنون به على غير أهــله » كتابا ضخما يشمل آراء الغزالى الفلسفية التى يضن بنشرها على الجمهور .

وعندى أن رأى الدكتور العنـــانى صواب لأمرين : الأول أن الغزالى كان ينصح دائما بأن لا يلقى للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما فى كتاب الاحياء وامثال كتاب الاحياء الثانى ما ذكره الزبيدى من أن كتاب « المضنون به على غير أهله » يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فان هــذه المسائل لا توجد فى النسخة التى يتداولها الناس .

وقد رجح جورجى زيدان فى فهرس تاريخ « الآداب العربية » ان كتاب : « التبر المسبوك » مدسوس على الغزالى ، وقد حاولت تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب رأى جورجى زيدان وما يبعده . اما ما يقربه فهو اسقاط اسم من ترجمة من الفارسية . وظهور الكتاب بمظاهر الضعف فى كثير من الموضوعات ، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالى الاخلاقيه ، واحالته على الاحياء فى كلامه عن رذيلة الغضب الا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية ، التى توهم القارىء أن لا وضع ولا اختلاق . ومما لا مرية فيه ان مصنفات وضعت باسم الغزالى ، فأما عددها فلا يزال مظنه الارتياب .

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب ان نذكر القارىء بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالى فى كتبه ، باختلاف سنه ، وصحته . فقد وضع مؤلفاته فى ظروف مختلفة ، كان فى بعضها يحكم العقل والشرع ، وكان فى بعضها يساير الصوفية فى اوهامهم ووساوسهم . والرجل فى الواقع معذور ، فقد كان يؤلف فى اوقات لا تصلح مطلقا للتأليف ، لأنه يشترط فى المؤلف ما يشترط فى القاضى من الصحة وهدوء البال .

الباب الخامس

في مباحث تمس الأخلاق

تمهيـــد

نبين فى هذا الباب قيمة العمـــل فى ذاته ، شر هو أم خير ، حســـن أم قبيح ، ضـــار أم نافع . ثم نتكلم عن الارادة ، وعن الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسبيلنا فى هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية اجمالا لنبين بازائها آراء الغزالى نوعا من البيان .

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذى يجب أن يعمل ، أو يحسن أن يعمل ، هو الخير والعمل الذى يجب أن لا يعمل ، أو ينبغى أن لا يعمل ، هو الشر . فللخير درجات ، وللشر درجات .

هذه لغة اليوم . اما الغـزالى فكان تارة يسمى ما يجب أن يعمل واجبا ، وما يحسن أن يعمل مستحبا ، وما يجب أن لا يعمل حراما وما ينبغى أن لا يعمل مكروها وما عدا أولئك فهو مباح .

وكان تارة اخرى يقسم الأفعـال الى : حـرام ، وواجب ، ومباح . اما الحرام فهو المقول فيه : اتركوه ولا تفعـلوه . وأما الواجب فهو المقـول فيه : افعلوه ولا تتركوه . واما المبـاح فهو المقول فيه : ان شئتم فافعلوه وان شئتم فاتركوه .

الحسن والقبيح

وربما قسم العمل الى : حسن ، وقبيح ، ومباح ــ واليك إجمال ما فصله فى كتابه « المستصفى فى الأصول » :

هنـاك اصطلاحات ثلاثة مختلفـة فى اطلاق لفظ الحسـن والقبيح :

الأول ـ ان الأفعال تنقسم الى ما يوافق غرض الفاعل ، والى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبيحا ، والثالث يسمى عبثا .

الثانى ـ الحسن ما حسنه الشرع بالثناء على فاعله . ويقول الغزالى : يكون المامور به شرعا ، ندبا كان أو ايجابا ، حسنا ، والمباح لا يكون حسنا .

الثالث ـ الحسن ما لفاعله أن يفعله ـ فيكون المباح حسنا مع الماموراث .

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع او قبحه . وهنا يجزم الغزالى بأن العمل لا يكون حسنا لذاته ، ولا قبيحا لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كانقاذ الغرقى والهلكى . ومعرفة حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران وايلام البرىء ، والكذب الذى لا غرض فيه .

ويحتج المعتزلة لذلك : بأنا نعلم قطعا أن من استوى عنده الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال اليه ان كان عاقلا ، وليس ذلك الا لحسنه . وان القوى اذا راى ضعيفا مشرفا على الهلاك يميل الى انقاذه ، وان كان لا يعتقد أصل الدين فينتظر ثوابا ، ولا يوافق ذلك غرضه ، فقد يتعب به ، بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف اذا أكره المرء على افشاء السر أو نقض العهد .

ويجيب الغزالى : بأنه لا ينكر اشتهار هذه القضايا بين الخلق وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : اما التدين بالشرائع واما الأغراض .

مثارات الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها الا المحققون ، من أجل ذلك نبه على مثارات الغلط ، وهى ثلاثة :

الأول ـ أن الانسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه ، وان كان يوافق غرض غيره . فان كل طبع مشغوف بنفسه ، فيقضى بالقبح مطلقا ، وربما يضيف القبح الى ذات الشىء ، فيكون قد قضى بأمور ثلاثة ، هو مصيب فى واحد منها ، وهو أصل الاستقباح ، ومخطىء فى أمرين : أحدهما اضافة القبح الى ذاته ، اذ غفل عن كونه قبيحا لمخالفته غرضه ، والثانى حكمه بالقبح مطلقا ، ومنشؤه عدم الالتفات الى غيره بل عدم الالتفات الى أحوال نفسه ، فانه قد يستحسن فى بعض الأحوال عين ما يستقبحه اذا اختلف الغرض .

الثانى ـ ما هو مخالف للغرض فى جميع الأحوال ، الا فى حالة واحدة نادرة ، قد لا يلتفت اليها الوهم ، بل لا تخطر بالبال ، فيراه مخالفا فى جميع الأحوال ، فيقضى بالقبح مطلقا ، لاستيلاء أحوال قبحة على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره .

الثالث ـ سبق الوهم الى العكس ، فان ما يرى مقرونا بالشىء يظن أن الشىء أيضا مقرون به مطلقا لا محالة ، ومثاله نفره من نهشته الحية من الحبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى ، فان الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من المبيت فى بيت فيه ميت ، مع قطعه بأنه لا يتحرك ، ولكنه يتوهم فى كل ساعة حركته ونطقه .

نقض حجة المعتزلة

وبعد أن بين الغـزالى هذه المثارات أخـذ يناقش ما احتج به المعتزله وهو يرى ان الانقاذ انما يترجح على الاهمال فى حق من لا يعتقـد الشرائع ، لدفع الأذى الذى يلحق الانسـان من رقة الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الانسان يقـدر نفسه فى تلك البلية ويقدر غيره معرضا عنه وعن انقـاذه ، فيستقبحه منه بمخالفة غرضه ويعود فيقـدر ذلك الاستقباح من المشرف على الهـلاك فى حق نفسـه فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم ، فان فرض فى بهيمة أو فى شخص لا رقة فيه ، فهو بعيد تصوره . ويبقى أمر آخـر : هو طلب الثناء على احسانه . فان فرض حيث لا يعلم أنه المنقذ ، فقد يتوقع أن يعـلم فيكون ذلك التوقع باعثا . فان فرض فى موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى فى النفس ميل يضاهى نفرة طبع الملدوغ من الحبل المبرقش وذلك انه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون بها على كل حال ، والمقـرون باللذيذ لذيذ ، كمـا أن المقـرون بالمكروه مكروه .

بل الانسـان اذا جالس من عشقه فى مكان ، فانه يحس من نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، اذا انتهى اليه . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليـلى	أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى	ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومى :

وحبب أوطان الرجال اليهم	مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وكذلك اخفاء السر ، وحفظ العهد . انما تواصى بهما الناس

لـما فيهما من المصالح . فمن يحتمل فى سبيلهما الضرر ، فانما يحتمله لأجل الثناء ، فان فرض حيث لا ثناء ، فقد وجد مقرونا بالثناء ، فيميل الوهم الى المقرون باللذيذ وان كان خاليا عنه .

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الغزالى فى تأييد أهل السنة ، وتخطئة المعتزلة . وتكون النتيجة على راى اهـل السنة انه لا حسن ولا قبح قبل ورود الشرع ، وانه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع وهذا الرأى خطأ من وجهين :

الأول ـ مخالفته لجوهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت لهداية الناس ، ولا معنى للهداية غير ارشادهم الى ما حسن أو قبح من الأفعـال ليفعلوا الحسن ، ويجتنبوا القبيح . ولو كانت الأعمال خالصة فى ذاتها من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة الى الشرائع ، ولكان خـيرا للنـاس أن لا يحملوا أعبـاء التكاليف .

الثانى ـ استهانته بالشخصية الانسانية ، فانه اذا صح أن لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية الانسانية لا تصلح لفهم حقائق الأشياء ، وما أدرى كيف صلحت بعد ذلك لحمل أمانة الدين الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يجنون على العقـل حين يحكمون بأن التحسين والتقبيح لا يكون الا بالشرع . فالزنا عندهم قبيح ، لا لضرره كما يحكم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك لو حكم الشرع بحسن الزنا لكان حسنا ، ولوجد الأشاعرة من أوجه المغالطة ما يثبتون به أنه حسن ، ولهذا الرأى نتيجة من أسوا النتائج : وهى الركون الى ما وقع فى الشرائع من الأغلاط ، فقد يندر أن تجد شريعة لم تمتد اليها يد التحريف ، فاذا شئت

أن تتحاكم الى العقل لتنقى الشرائع من أوشاب المسخ والتشويه ، وقف فى وجهك الجهال باسم الدين ، وقالوا ما لنا وللعقــل ؟ « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون » ! !

الضــار والنافع

لا يفرق الغزالى بين كلمه شر وكلمة ضار ، كما يفعل علماء الأخلاق . فمن الواضح أنى قد أعمل عملا ضارا ولكنه غير شر ، اذا حسنت النية ، وخفى وجه الصواب .

لكن العمل الضار شر مطلقا عند الغزالى ، لأن القاعدة عنده أن العمل ليس شرا الا لأنه ضار ، وليس خيرا الا لأنه نافع نعرف هذا من قوله فى ص ١٣٩ ج ٣ احياء : (ان الكذب ليس حراما لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره) ونعرفه كذلك من تقسيمه الحرام الى ما حرم لصفة فى عينه ، وما حرم لخلل فى اثبات اليد عليه : فلا يحـرم من المعـادن الا ما يضر بالآكل ، ولا يحرم من النبات الا ما يزيل العقل ، أو يضعف الصحــة ، أو يزيل الحياه ، ولا يحرم السم اذا خرج عن كونه مضرا : لقلته ، أو لعجنه بغيره . وحرمة المال المغصوب ظاهرة لأن الغصب ايذاء للغير ، والايذاء ضرر .

وانما كان الضار شرا على كل حال ، لأن الحاكم بالخير أو الشر هو الشرع . وعلم الشرع فريضة على كل مسلم ، والجاهل لا عذر له الا اذا كان حديث عهد بالاسلام ، وهو عذر ضيق محــدود ، لا يوجد الا فى بعض الأحوال .

العمل والاعتقاد

ولكن اذا غلب المرء على امره ، فاعتقد ان الشر خير ، ثم عمل بمقتضى اعتقاده ، فماذا عسى أن يكون فى رأى الغزالى ؟

يظهر لمن تأمل مؤلفـاته : أنه يفرق بين الخير فى العمل ، والخير فى الاعتقاد ، اذ يراه يقـول فى ص ٤٧ من الجـزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بايجاب شيء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه . بل من ظن انه تطهر ، فعليه أن يصلى . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد فى فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته » .

ويراه يقـول فى ص ١١ من كتابه « المنقذ من الضـلال » :

« والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعـة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور الا ويحصل له هذا العـلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، ولا سـيما الانسان . الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القـوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه ، فتنعدم . ثم اذا انعدمت فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة . وهؤلاء أيضا زنادقة . لأن أصل الايمان هو الايمـان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وأن آمنوا بالله وبصفاته » .

وتهافت الغزالى فى هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الاعضاء يحصل له العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن أقوى ايمانا وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث فى منافع الأعضاء مضطر الى ان يؤمن بأثر المزاج فيما يعترى النفس من قوة وضعف ،

وهو بالتـالى مضطر الى الايمان بأن النفس تموت . واذن فهو زنديق فيما يرى الغزالى ! وكيف ذلك والغزالى يرى أن من وجد على فراشـه امراة فظن أنها زوجتـه لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية ! ؟

لقد صرح الغزالى فى عدة مواطن من كتبه ، بأن من حمل على شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح فى ميزان العمل بأن الأمزجة تشكل الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطا للمؤاخذة ، كما أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس فى الجزء الثالث من الأحياء ، فكيف يحكم بكفر الرجل العالم الذى اقنعه العلم مثلا بأن النفس تموت ؟ أيرى الغزالى أن من المحرم شرعا أن يدرس التشريح ؟ واذا كانت الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، افليس معنى ذلك انه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، والا كان ايمانا بقوة الحديد ؟

الحق أن الغزالى مال كثيرا الى ترضية العـامة حين بحث صحة الايمان ، حتى رايناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كفر وهو لا يدرى !

وما أغرب قوله فى كتـابه المنقذ من الضـلال : « ثم رد ارسطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين ، ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، الا انه استبقى أيضا من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره ، وتكفير متبعيه ، من المتفلسـفة الاسلاميين : كابن سـينا والفارابى ، وأمثالهم » .

والغزالى الذى أسرف هذا الاسراف فى الحكم على الايمان وفق كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس . وانظر ما قاله فى تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . . حتى أن من استنكه فوجد

منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، اذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بها ومجها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهرا . فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب ، واساءة الظن بالمسلم بها » .

وعندى ان الرجل لا يكفر الا اذا عرف الحق وعاند ، فأى فيسلوف رأى رأيا شاذا عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه يخالف الدين مخالفة صريحة . فكان من الحق على الغزالى ان يقيم الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابى من العناد ، وسنعود الى تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب .

مقياس الخير والشر

ومع أن الغزالى قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل وقبحه وانما الأمر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل بمقياس العقل والشرع معا ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم شر . فالعمل خير اذا وافق العقل والشرع ، وشر اذا خالف العقل والشرع .

ولم يفرد الغزالى بابا لهذا البحث ، ولكنه نوه بمدلوله فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضى الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليك امساك ما يقتضى الشرع والعقل امساكه عن طوع ورغبة وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : « وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شىء مما يختص بها الا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه » وقال فى ص ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع » وقال فى وصف العمل الصالح : « وذلك بأن يكون موزونا بميزان العقل والشرع » ص ٢٠٢ ج ٣ احياء .

اغفال الغزالى لهذا القياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع فيما يرى الغزالى . ولكن ما هو الشرع ؟ وما هو العقل ؟

ان الغزالى نفسه وضع فى الأخلاق أحكاما لا نظنها تستند على عقل او دين ! ولنضرب مثلا بما وضعه لنظام الطعام . جاء فى الميزان ص ١٨٤ ما نصه : « واما المطعم فهو الأصل العظيم . اذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور — ولهذا أيضا ثلاث مراتب : ادناها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة وذلك يمكن تقليله بالعادة تارة بتقليل الطعام شيئا فشيئا حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين . وقد انتهى الزهاد فى القدر كل يوم الى حمصة وبعضهم فى الوقت الى عشرين يوما وقيل اربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها » وقد أطال القول فى فضائل الجوع فى الربع الثالث من الاحياء حتى قال : « روى أن عيسى عليه السلام مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فاذا رغيف موضوع بين يديه فجلس يبكى على فقد المناجاة ، واذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى : بارك الله فيك يا ولى الله ، ادع الله تعالى لى ، فانى كنت فى حالة فخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى ! فقال الشيخ : اللهم ان كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى ! بل كان اذا خطر لى شىء أكلته من غير فكر ولا خاطر ! » .

وقال أيضا « الفائدة السابعة من فوائد الجوع — تيسير المواظبة على العبادة . فان الاكل يمنع كثرة العبادات لانه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالاكل ، وربما يحتاج الى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر تردداه الى بيت الماء لكثرة شربه والاوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه » اهـ

ففى الكلمة الأولى نراه يدعو الى تقليل كمية الطعـام حتى تصل الى حمصه ، وتطويل المدة حتى تصل الى عشرين يوما أو اربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبـة عظيمة . فياليت شعرى ، أيرضى بذلك العقل ، وهو لا يرضى بأقل من ان يكون المرء حيا ، فيه فصائل الحيـاة من قوه ونشاط ؟ أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون الرجل جنديا يضرب فى الأرض ، ويحرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفى الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لا ينبغى أن يوصف به الأنبياء ، والا فكيف ينبغى لنبى أن يناجى ربه ستين صباحا بلا طعـام وهو مسئول عن الدعوة الى دينه ، وقلما ينجح فى الدعوة ضعيف ؟ هذه جراة فى وصف الأنبياء والمرسلين ، فما احسبهم الا رجالا أشـداء تمت لهم صفـات الفتوة والرجولة ، أما هذه الرهبنة التى تصورها الغزالى فلا تنتج غير الضعف والخمول ، وما كان الأنبياء كسالى ولا واهنين .

وفى الكلمة الثالثة ، يستكثر على المريد أن يضيع وقتا فى شراء الطعام وطبخه ، ثم غسل يده ، وتخليل أسنانه ، وما أدرى كيف يسير الناس ، اذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس !

الواقع ان الغزالى وضع مؤلفاته فى الأخـلاق مشربة بنزعة صوفية بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب التصوف ، والتصوف ليس مذهب الأحياء ، ولكنه مذهب الأموات . وما ظنك بمذهب يجيز للغـزالى ان يصور للنظر للمستقبل بهذه الصورة المنكرة حين يقول « وأرفع الدرجات درجة من لا يلتفت الى غده ويقصر همته على يومه ويومه على ساعته ، وساعته على نفسه ، وقدر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا أو مستعدا للارتحال » .

وما أظن أمة تفهم الأخلاق هذا الفهم ، ثم تقدر على الجلاد فى عالم الأحياء . ولم يبعد من وصف الأخلاق فى رأى الغـزالى بأنها اخلاق العبيد !

الفصل الثانى

الارادة

— ١ —

وردت كلمة الارادة فى كتب الغزالى لأغراض متعددة : فتارة يريد بها السلوك فى طريق الله ، ومنها المريد الذى يرد كثيرا فى كلامه ويريد به السالك فى ذاك الطريق ، طريق الصوفية .

وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السد الذى بين المريد وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الغزالى أربعة اشياء : المال ، والجاه ، والمعصية ، والتقليد .

ويرفع حجاب المال بخروج المريد عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة . ويرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع ايثار الخمول . ويرفع حجاب التقليد بترك التعصب للمذاهب . أما المعصية فلا يرفعها الا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود والخروج من المظالم .

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالى كالتطهر للصلاة ولا بد للمصلى من امام . فكذلك لا بد للمريد من أستاذ ، وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعنينا الآن . ويكفى أن يعرف القارىء ما يقصد من كلمة مريد التى يكثر دورانها فى « الميزان » و « المنهاج » و « الاحياء » .

— ٢ —

وتارة يذكر الارادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة والارادة بهذا المعنى هى المقصودة عند علماء الأخلاق . ولها عند الغزالى أسماء مختلفة : فنراه حينا يسميها القوة العاملة اذ يقسم قوى النفس الانسانية الى قوة عالمة ، وقوة

عاملة ، ويذكر أن الثانية « هى قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العاملة النظرية » الميزان ص ٢٦ .

ونراه حينا آخر يسميها النية . ويعنونها كذلك فى الاربعين والاحياء . فلو انك نظرت فى الفهرست لتعرف فى أى موضع تكلم عن الارادة ، ثم نظرت فى الفصل الذى شرحها فيه ، لما رأيتها الارادة التى يتكلم عنها الأخلاقيون ، وانما رأيتهـا الارادة التى عنـاها الصوفية ، واشتقوا منها كلة مريد . فأما الارادة التى هى من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالى النية ، وله فى شرحهـا كلام طويل .

— ٣ —

يقول الغزالى « ان النية والارادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل . والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط . والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختيارى لا يتم الا بثلاثة أمور : علم ، وارودة ، وقدرة . لأنه لا يريد الانسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة ، ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض ، اما فى الحال ، واما فى المال » ص ٣٨١ ج ٤ احياء .

ويقول (النية هى الارادة الباعثة للقدرة ، المنبعثة عن المعرفة . وبيانه ان جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم ، والعلم يهيج الارادة ، والارادة باعثة للقدرة ، والقدرة خادمة الارادة) ص ٢٦٢ من الأربعين .

وواضح أن الارادة كما يراها الغزالى لا تختلف عما نراه الآن فانك لا تجد فرقا بين كلامه هذا وبين قول جول سيمون (والواقع

اننا لأجل أن نعمل يجب ان نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده) الواجب ص ١٩ .

— ٤ —

ويقرر الغزالى فوق ما تقدم أنه لا يكفى أن يعلم الانسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لا بد من أن يقوى فى نفسه كون الشيء موافقا له ؛ فاذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد أن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الارادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد .

ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد . واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان كافيا لانهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع ! وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، ولكن قام الآخر بمعاونته . فالباعث الثانى اما شريك أو رفيق أو معين . ولهذا التقسيم مزية فى تقدير ما فى العمل من خير أو شر بتقدير البواعث ؛ فان العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . بل ربما كانت النيات أقوى فى التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت نية المرء خيرا من عمله ، كما جاء فى الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالى من أن أعمال الجوارح ليست مرادة الا لتأثيرها فى القلب ، ليميل الى الخير ، وينفر من الشر (١) .

تربية الارادة

تربى الارادة فيما يرى الغزالى بتكرار طاعة الميل المحمود وتكرار مجاهدة الميل المذموم . وفى ذلك يقول : « واذا حصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان

(١) انظر ص ٢٦٣ من الاربعين .

المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميله فى الابتداء الا ضعيفا . فان اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ، والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع . وان خالف مقتضى ميله ، ضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال . بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاة فداوم على النظر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمحاورة ، تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كفطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعا فى وجهه حتى يضعف ... لأن بين الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر . الا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعى . والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع » .

والغزالى لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الارادة . واذ كانت النية هى التى تقوم العمل ، فمن الخير أن تكون قوية ، لأنه كما تكون الرغبة فى عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ، يكون جزاء العامل : فيكثر اجره ان قوى حبه للخير ، وبغضه للشر ، ويقل فيما عدا ذلك . وقد نص فى عدة مواطن من كتبه بأن المعول على القلوب ، حتى لنجده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالاصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر . وان الكبيرة اذا وقعت بغتة ، ولم يتفق اليها عود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوة العفو ، وفى ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به . واستصغاره يصدر عن الالف له ، وذلك يوجب شدة الأثر فى

القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات » ص ٢٣ ج ٣ .

أهمية الارادة

الارادة شرط للمسئولية ، وشرط للجزاء . فالذى يعمل وهو ناس و غافل لا يجازى ولا يؤاخذ . وانما كان الأمر كذلك فيما يرى الغزالى : لأن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة ، والقلب عند الغزالى هو كل شيء . فليست الحسنة حسنة الا لأنها تصلحه ، أو تزيد فى صلاحه ، وليست السيئة سيئة الا لأنها تفسده أو تزيد فى فساده . والجريمة الهائلة اذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ، لا خطر لها عنده ، لأن القلب لا يتأثر بما يفعل المرء وهو كاره ، والهفوة التافهة عظيمة الخطر اذا أتاها المرء وهو راض مسرور ، لأنه بقدر ما تحلو السيئة يعظم أثرها فى تسويد القلب وافساده . والذنب الواحد تختلف قيمته حين يأتيه رجلان : أحدهما عارف به ، وثانيهما جاهل له ، فهو بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثانى صغيرة ، لأن الارادة تختلف قوة وضعفا باختلاف درجة العلم ، اذ كانت ثمرة له .

ويقول الغزالى بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، اذ المطلوب منها تغيير القلوب ، وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظنن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب . ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ، فانه اذا مسح رأسه وقلبه تأكدت الرقة فى قلبه » ص ٢٨٤ ج ٤ .

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، فى حرية الارادة ،

فمنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بأنها دائرة بين الجبر والاختيار .

وانا ارجح الراى الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الارادة على الاتجاه الى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والارادة فيما عدا ذلك حرة مختارة فالذى ورث عن أبيه أو أمه خلقا من الأخلاق ، يسير مضطرا الى ما يوافق ذلك الخلق . والذى يحمله ضعف صحته على اللدد فى الخصومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذى تقضى عليه البيئة التى يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار الى التزيى بهذا الزى . فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مسايرة الوسط الذى أعيش فيه ، وان زعمت ثم زعمت أننى مختار . والذى يقهره ظرف من الظروف على اتيان جريمة من الجرائم غير مختار . وسيرقى القضاء يوما فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسئولية . فكثيرا ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول .

فاذا انتفت موانع الاختيار فالارادة حرة فى الاقبال على الفعل ، او الانصراف عنه . وفى هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ويصير الخير جديرا بالمثوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقا بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . اما المضطر الى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما ارى غير أهل للثواب والعقاب »

والغزالى لا يقول بحرية الارادة حرية مطلقة ، ولا يعجزها العجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا ، فاما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ، وأما الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فانها خلقت مقدورة بقدرة هى كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة الى

صفة اخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا .
وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لايحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة واعدادها ؟ واذا بطل الطرفان لم يبق الا الاقتصاد فى الاعتقاد ، وهو انها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب » ص ١٢٠ جـ ١ احياء .

والواقع أن رأى الغزالى هذا لا يفصح عن قيمة ما فى أعمال المرء من الاختيار ، فهى فى رايه ليست جبرا لانها تفترق عن الرعدة وهى ليست اختيارا لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما لحركاته من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف اثباته على معرفة الأجـزاء والأعداد ، لان العمل الاختيارى قد تكون له لوازم ضرورية ، لا يتنبه لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قادحة فى اختياره .

ويقرر الغزالى مع هذا « أن فعل العبد وان كان كسبا له ، لا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه ، فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ، ولا لفتة خاطر ، ولا فلتة ناظر ، الا بقضاء الله وقدرته ، وبارادته ومشيئته ، ومنه الشر والخير ، والنفع والضر ، والاسلام والكفر ، والعرف والنكر ، والفوز والخسر ، والغواية والرشـد ، والطاعة ، والعصيان ، والشرك والايمان » ص ١٢٠ جـ ١ (١) .

وانا لا افهم ما هو هذا الكسب الذى يقـره أهل السـنة ويتابعهم الغزالى فى اقراره . فهم لا يقولون بأن العبد مضطر ، والا كانوا جبرية ، والجبرية فى رأيهم خاطئون . ولا يقولون بانه مختار ، والا كانوا معتزلة ، وهم قد سلقوا المعتزلة بألسنة حداد .
فلم يبق الا أن العبد لا هو حر ولا هو مختار ، وانما هو مكتسب ، وهذا الكسب ايضا مراد لله . اذن فما الذى بقى للعبد المسكين ؟

---

(١) ٢٢١ ، ص ١٢٠ ج ١ احياء .

الحق ان هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلاف !

واساس هذه الوسوسة انهم يحسبون حرية الارادة خروجاً على الله فى ملكوته ، والغزالى يضرب المثل بزعيم الضيعة يستنكف ان يكون لأحد العمال رأى معه ، وما كان اغناه عن ضرب هذه الأمثال !

ان حرية الارادة الانسانية لا تضر الله شيئاً ، فما بال أهل السنة يأبون الا أن تكون طرفة العين ، وهى حركة طبيعية ، اثرا لارادة الله ؟

ولا قيمة لما يجيب به المتعسفون من أن اختراع الله للقدرة كاف فى اقرار الكسب للمرء ، فانه لا خلاف فى أن الله واهب القدرة ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيرها أنى شاء ، ومتى شاء ، والا كان التكليف ضربا من العبث ، ولو كره المتكلفون . فلم يبق الا أن الارادة حرة ، وذلك هو ما وضع الله من قانون ، فلا يبتئسوا بما نقول !

على أن العهد قريب بما قال الغزالى فى تربية الارادة ، فاذا كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الارادتين تربى ؟ ان هذا الا تناقض .

ونعود فنكرر أنه قرر فى مكان آخر من الاحياء « ان النية غير داخلة تحت الاختيار » وقد عرفت أنه يريد بالنية الارادة ، وان رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضا فى حكمه : تارة بأن النية حرة ، وتارة بأنها مجبورة ؟

الحقيقة أن الارادة التى يقرر الغزالى انها غير مختارة ليست هى الارادة بمعنى القصد ، وانما ذلك ما يسمى ارادة صادقة ، وهى التى يعقبها التنفيذ . فمن الجائز ان اقصد الى اى عمل فى اى وقت ، ولكن ليس فى مقدورى أن ارغب رغبة صادقة فى كل ما يعن لى من الاعمال ، فى جميع الأحيان . وفى ذلك يقول الغزالى « فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها . نعم من كان الغالب على

قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال احضار النية للخيرات ؛ فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض الا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته » .

وخلاصة راى الغزالى أن المرء حر فى الاقبال على ما شاء من الأعمال ، وان كان فى اقباله انما ينفذ ارادة الله ، ولكنه ليس صادق النية فى كل حين ، وانما تصدق النية بالترغيب فى الجنة والتخويف من النار .

ولا يفوتنا أن ننبه على ما دعا اليه فى تربية الخلق من مخالطة الأخيار ، فان فى ذلك اعترافا ضمنيا بتأثير الوسط فى الارادة الانسانية ، ونقله اياها من حال الى حال . وهذا نوع من الجبر ، ولكنه جبر معقول .

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، آمرا بالخير ، أو ناهيا عن الشر ، وان لم ترج مثوبة ، أو تخش عقوبة .

والغزالى كما رايت لا يرى شيئا حسنا لذاته ، أو قبيحا لذاته ؛ فالشرع هو المكيف للأعمال حسنا وقبحا ، فلا مجال بالطبع لأن يفرد بابا للضمير ، اذ كان التكليف انما ينزل من السماء . والضمائر التى ترد فى كلامه انما يريد بها مكنونات الصدور ، وهى والسرائر من باب واحد . والانسان فيما يرى ليس مسئولا عن مراقبة ضميره ، اذ هو لا يعرف الضمير . وانما يسأل عن مراقبة ربه ،

وخشيته ، فى السر والعلانية فليس هناك جارحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم تتعرض لهما الشرائع ، وانما هناك رب يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والمرء عن خشيته مسئول .

غير انه لا يصح لنا أن ننسى أن هناك أسبابا لنشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعا من الشعور بالمسئولية ازاء بعض الجوانب ، والأخلاق توجد للباحث فيها نوعا من ادراك الواجب ، والشريعة كذلك تورث المتدين بها نوعا من الوجدان .

ولا نبعد عن الصواب اذا قررنا ان الغزالى يؤمن بالنوع الأخير من الضمير ، وان لم ينوه به ، ولم يختصه بالبيان . واليك قوله فى ص ٨٥ ج ١ من الاحياء « ومنها أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته ، وادراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره » وقد ردد فى كتبه هذا الحديث « الاثم ما حاك فى صدرك ، وان أفتوك وافتوك » وليس ذلك الا اشادة بهذه الحاسة الباطنية التى يفزع المرء اليها عند ما يلتبس عليه وجه الصواب . الا انه يجب أن نعرف ان نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير .

والحق أن الضمير لا وجود له فى ذاته ، حتى تؤاخذ الغزالى باغفاله ، وانما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية . حتى انك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد . فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأى العام ، ولذع الضمير ! ! ونهب مال الغريب لا حرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح انهم لا يقاسون عند نهبه تأنيب الضمير . بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، فيكون ضميره فى سن العشرين ، أضعف أو أقوى منه فى سن الثلاثين ، حسبما توجب الظروف . ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقـــولون حـــل بعـــد الثـــلاثين ملعب

فقلت وهـــل قبـــل الثـــلاثين ملعب ؟

كما صح لغيره أن يقول :

صـــبا ما صـــبا حتى علا الشيب رأســـه

فلمـــا عـــلاه قال للبـــاطل ابعـــد

وعندي أن فكرة الضمير اذا صح أن تكون عامه ، فيجب أن تقصر على المنافع البشريه . على معنى أن الضمير هو الحاسة التى تتألم لما يتوجع له الانسان من حيث هو انسان ، بغض النظر عن دينه ، ووطنه ، ومذهبه . فان للانسانيه وشائج لا ينال منها اختلاف المذاهب . ولا تباين اللغات ، ولا تباعد الأقطار .

الفصـــل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيرا باعتبار نتيجته ، او باعتبار المقصود منه ؟ وبعبارة أوضح : هل يكون خيرا لأنى أردت به الخير ، أو لأنه أنتج الخير ، وان لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاســتخلاص راى الغزالى فى الجـــواب على هـــذا السؤال ، ينبغى أن نسايره فى الأعمال المختلفة ، لنعرف رأيه فى كل نوع منها على انفراد .

وقد رأيناه يقسم أعمال الانسان الى طاعات ومعاص ومباحات . اما الطاعات فلا تكون خـــيرا الا بالنيـــة ، وهى الغرض فى التعبير الحديث . ويقول فى ذلك (ان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل : « انما الأعمال بالنيات » لأنها تابعـــة

لا حكم لها فى نفسها وانما الحكم للمتبوع) وهو يستنتج بناء على هذا الأساس أنه لا قيمة للصوم اذا أراد الصائم الانتفاع بالحمية ، ولا للعتق اذا أراد السيد أن يتخلص من مئونة عبده ، ولا للحج اذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو اذا احب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لا تصح عند الغزالى الا اذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها الى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الأصلى . فان كان مساويا له ، صار العمل لا له ولا عليه كما يقول . وان كان اقوى منه فهو مضر ومفض للعقاب .

والغزالى ينصح بالتدبر قبل الشروع فى الطاعة ليعرف المرء اى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القربة ، واى النصيبين اوفى : نصيب الله ام نصيب الشيطان . ولكنه يقول : « ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا » .

ويلاحظ أن فى هذا تناقضا مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفض للعقاب ، والعمل الذى يضر ويفضى للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فكان على الغزالى أن يفرق بين العمل فى ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار فى ذاته ، وان ساء الغرض منه . والمفروض اننا نتكلم عن اعمال هى فى نظر الشرع طاعات ، وهى فى ذاتها حسنة ونافعة ، فكيف تنقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الغزالى بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع الى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها يرجع نفعه الى جمهور الناس . وما أحسب الغزالى ينهى

من الأعمال الاجتماعية ، مهما ساء القصد ، اذ لا أقل من أن تكون تمرينا للنفس على عمل الخير . وقد صرح فى غير موطن بان التخلق مفض الى الخلق ومتى كان العمل نافعا للناس ، فالدعوة اليه واجبة والعامل حر فى الاستفادة من حسن نيته ان شاء .

واما المعاصى فهى شر على كل حال . والغزالى هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شرا عن جهل فهو آثم ، ولا عذر له من جهله لأن الجاهل غير معذور الا اذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود . وقد علمت أنه يرى ان المعصية شر لأنها ضارة ورأيت كذلك ان فاعل المعصية آثم وان لم يعلم وجه اثمه ، فتحتم أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الأغراض بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصى صرفه اذا خبثت النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس .

الفصل الخامس

الوسائل والغايات

اذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالى أن تكون الوسيلة دائما شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة . وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التى يجوز فيها الكذب فقال : « الكلام وسيلة الى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام ان أمكن التوصل اليه بالصدق وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا . وكما ان عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان فى الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو صلاح ذات البين ،

او استمالة قلب المجنى عليه ، الا بكذب فالكذب مباح(١) » وبعد ان بين الحالات الثلاث التى يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ، وهى الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال : « فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره(٢) » ثم ضرب لذلك الأمثال الآتية :

١ - أن يأخذه ظالم ويسأله من ماله . فله أن ينكره .

٢ - أن يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ، فله أن ينكر ذلك ، اذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله وعرضه ، بلسانه ، وان كان كاذبا .

٣ - أن يسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره .

٤ - أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه .

وقد تنبه الغزالى الى خطر هذا الباب ، فبين ان الكذب لا ينبغى أن يقترف كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته اقوى وأظهر من فائدة الصدق ، والا وجب أن يكون الرجل من الصادقين . وانظر قوله « ولكن الحد فيه أن الكذب محظور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محظور ، فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحظور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب . فله الكذب . وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق أولى . لأن الكذب يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة . فان شك فى كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣ .

---

(١) ص ١٣٩ ج ٣ احياء .

(٢) ١٤١ ج ٣ .

غير أن هذه الحيطة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزالى الا اذا كان يترك الكذب لغرض من أغراضه . اما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به . وهذا من الغزالى نظر بعيد .

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله بوضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، فليس هذا من الأغراض التى تقاوم محظور الكذب على رسول الله ، فان الكذب عليه من الكبائر التى لا يقاومها شىء .

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالى صرح فى الجزء الأول من الاحياء ص ٣٧ « من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق الى الحق » وهو يرى أن « هذه من نزعات الشيطان ، فان فى الصدق مندوحة عن الكذب » وهذا منه اسراف . بل هو نفسه أول من يؤاخذ على وضع القصص ان كان فى وضعها مؤاخذة . ويكفى أن نعرف أنه يذكر فى كتبه من قصص الأنبياء والصالحين ، ما لم يقم على صحته أى دليل . والرواية الكاذبة ليست أقل خطرا من التاليف !

وكما جاز الكذب فى سبيل الغاية ، كذلك تجوز فى سبيلها الغيبة . وقد صرح الغزالى بجواز الغيبة فى المواطن الآتية :

١ - التظلم . فان من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة ، كان مغتابا عاصيا . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، اذ لا يمكنه استيفاء حقه الا به . ولا أدرى لم لا تستباح أعراض الظالمين ؟

٢ - الاستعانة على تغيير المكروه ، ورد المعاصى الى منهج الطاعة .

٣ ـ الاستفتاء . كما يقول للمفتي : ظلمني أبي أو زوجي أو اخي ، وكيف طريقي الى الخلاص . والأسلم التعريض ، ولكن التعيين مباح بهذا العذر .

٤ ـ تحذير المسلم من الشر . فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن نعدى اليه بدعته وفسقه . فلك أن تكشف له بدعته وفسقه . متى كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة لا غير . واحذر أن يكون الحسد هو الباعث !

٥ ـ أن يكون المغتاب مجاهرا بالفسق ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به .

وهنا يحتاط الغزالي : فيبين أنه ليس لك ان تغتاب المجاهر بفسقه الا بما يتجاهر به . فمن كان يشرب الخمر فليس لك أن تذكر زناه ، اذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق .

والغاية الشريفة ، تبيح النميمة ، كما أباحت الكذب والغيبة . فللانسان أن ينم ، اذا كان في النميمة فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية . كما اذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، دفعا للجاني عن المعصية ، وردا لحق المأخوذ ماله . والنميمة في هذا المثال اذا كانت ضرا في جانب الظالم ، فهي نفع في جانب المظلوم ، وهو أولى بالاسعاف . بل دفع الظالم عن الظلم خير له في حاضره ، وابعاد له عن الضر في مستقبله ، اذا كان مستعدا للاقلاع عن الفساد .

الباب السادس

في الأخلاق

تمهيـــد

كلمة اخلاق وجدت قبل الغزالى ، ففى الحديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابا لأرسطو فى الأخلاق ، ووضع ابن مسكويه كتابا فى صناعة تهذيب الأخلاق ، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتابا فى علم الأخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة المسلمين .

والذى يعنينى الآن هو علم الأخلاق كما فهمه الغزالى . واقرر انى بعــد مراجعة كتبه لم أجده يساير من تقــدمه من مجددى الفلســفة اليونانية ، وانما يفهم من علم الأخـلاق شرح طرائق السلوك ، وفقا لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن نحا نحوهم من الفقهاء . ولعــلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة : فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات القلب ، وحينا يسميه أسرار معاملات الدين ، وربما سماه اخلاق الأبرار ، وهو اسم لبعض مؤلفاته . وأهم كتبه فى الأخلاق نجده سماه احياء علوم الدين . فعلم الأخلاق عنــده هو تكييف النفس وردها الى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء .

واذا كنــا نجـــد ابن مسكويه مثـــلا يستشهد كثيرا بكلام ارسطاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقين ، ومن اليهم من الحكماء ، فانا نجد الغزالى يؤيد ابحاثه بكلام ابن ادهم والتسترى ،

والمحاسبى ، ومن اليهم من الصوفية ، وربما نقل ما روى عن عيسى وموسى ، وداود ، ومن اليهم من الأنبياء .

تعريف الخلق

نرى الغزالى فى ص ٥٦ من « الميزان » يعرف الخلق الحسن بأنه اصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير . وقوه الشهوة ، وقوة الغضب ، ونراه فى ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره المرء . ويستشهد بالحديث : (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) وبالآية (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم) ونراه يقول فى ص ٤٧ « وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات ، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق اليها فيؤثرها ويتنعم بها » .

وانما ذكرنا هذه التعاريف المبهمة ، التى لا تغنى شيئاً فى التحديد ، لندل على ميل الغزالى الى الخطابيات ، فقد لا تخلو منها صفحة من كتبه فى الأخلاق .

ولكنه فى ص ٥٦ ج ٣ احياء عرف الخلق تعريفا دقيقا فقال : « الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا » ثم ذكر ان الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح . وانما هو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الامساك والبذل . ثم قال : فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة » .

الفصـــل الأول

تربية الخلق

ليس للغزالى رأى محدود فى الفطرة البشرية : فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شىء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل الى الخير منها الى الشر . يدل على ذلك قوله « واذا كانت النفس بالعبادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضـــاهى الميـــل الى اكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميـــل الى الطعام والشراب : فانه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر ربانى ، وميله الى مقتضيات الشـــهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعـــه » ص ٦٣ ج ٣ .

وما نريد أن نناقش هذا الرأى بأكثر من أن نلفت النظر الى أن الميل الى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيرا عن الميل الى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل الى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وانما توجه النفس بمقتضى الظروف . فكما أن المرء لا يشتهى فى كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو كذلك لا يشتهى فى كل لحظة أن يكون خيرا أو شريرا ، وانما يظهر ميله الى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله الى الشر حين يوجد موجب الشر . بل قد تقوى الموجبات حتى ترد الرشيد غويا أو ترد الغوى رشيدا . ولولا صلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا الى تربية الأخلاق .

كيف يربى الخلق ؟

يرى الغزالى أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطـــرته ؟ بحيث لا يحتاج الى تعليم ، ولا الى تأديب كعيسى بن مريم ، ويحيى

ابن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الأنبياء . ولا يبعد فيما يرى أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب ، فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا جريئا .

وما اريد أن اناقش الغزالى فى حكمه بأن الأنبياء لا يحتاجون الى التعليم والتأديب ، ويكفى أن أذكر أن عصمة الأنبياء — فى غير تبليغ الرسالة — كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن فى القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبى صلى الله عليه وسلم من الذنوب .

والطريق الى تربية الخلق فيما يرى الغزالى هو التخلق : أى حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعا له .

والغزالى يهتم كثيرا برياضة النفس على ما يرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول فى ذلك :

« كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتبا بالطبع ، فلا طريق له الا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكى الخط الحسن ، فيتشبه بالكاتب تكلفا . ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعا ، كما كان يصدر منه فى الابتداء تكلفا . فكان الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسنا . ولكن الأول بتكلف ، الا انه ارتفع منه اثر الى القلب . ثم انخفض من القلب الى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن

بالطبع . وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له الا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه . حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس » .

ومن هنا كان الغزالى يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ، لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس . ولا معنى للشقاء المؤبد الا أن تصير احدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس .

الفصل الثـانى

امكان تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذى قبله ، فان تربيـة الخلق معلقة على ازالة الخلق السيىء . ويرى الغزالى أن تغيير الخلق ممكن ويقول فى ذلك تعليقا على قوله عليه السلام : « حسنوا اخلاقكم » لو لم يكن ممكنا لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، فان الأفعال نتائج الأخلاق ، كما أن الهوى الى أسفل نتيجة الثقل الطبيعى ، بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقـله ، وتغيير خلق البهائم ممكن اذ ينتقل الصـــيد من التوحش الى التأنس ، والفرس من الجمـاح الى السلاسة » .

ويظهر أن الغزالى شـهد من يرى أن الخلق كالخلق لا يمكن تغييره ، والا كان طمعا فى تغيير خلق الله . وقد ذكر فى ذلك أن لخلق الله قسمان : قسم لا فعل لنا فيه ، كالسماء والكواكب ، وقسم فيه قوة لقبول كمال بعـده ، اذ وجـد شرط التربيـــة ، وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية ، وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وانما تصـير نخلا اذا تعلق بهـا اختيار الآدمى فى تربيتها ويقول : « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من

انفسنا ونحن فى هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا قهرهما واسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » .

اقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات الى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم فى الوجود ؛ ويقسم الناس فى تغيير الخلق الى أربع مراتب — الأولى : الانسان الغفل الذى لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح . وهو اقل الأقسام للعلاج : فلا يحتاج الا الى مرشد والى باعث يحمله على الاتباع — الثانية : أن يكون قد عرف القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء عمله ، يتعاطاه انقيادا لشهواته ، واعراضا عن صواب رأيه ، فأمره صعب من الأول ، اذ تضاعفت علته . فيلزم (أ) فلع ما رسخ فيه من تعود الفساد (ب) وصرف النفس الى ضده — الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالى أن هذا لا يرجى صلاحه الا على الندرة ، اذ تضاعفت عليه اسباب الضلال — الرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضله فى كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ، ويتباهى بفساده ، ويراه مما يرفع قدره . قال الغزالى : وهذا أصعب المراتب وفى مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل الأسود ليبيض . ثم قال . فالأول : من هؤلاء يقال له جاهل ، والثانى : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ، والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير .

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالى لا يريد من تغيير الخلق الا قهره واسلاسه ، وقد صرح بذلك فى قوله :

« وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيهات ! فان الشهوة خلقت لفائدة . وهى ضرورية فى الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو

انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال . وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط » .

كيف يعرف المرء عيوب نفسه

يرى الغزالى أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج .

واذا كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى أن أحدهم ليرى القذى فى عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فقد وضع الغزالى أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس .

الأول — أن يجلس المرء بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع اشارته فى مجاهدته .

الثانى — أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وافعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، نبهه اليه .

الثالث — أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدى المساوى . ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه .

الرابع — أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموما عند الخلق اتهم نفسه به . فان الطباع متقاربة فى اتباع الهوى ، وما يتصف به واحد من الاقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شىء منه . فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره .

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالى فى هذا الباب الى القرآن ، اذ أن الله تعالى ذكر فى كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق . وبعد أن سرد جملة من الآيات قال : « فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض . فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣ .

والظاهر أنه لا يكفى دائما أن يتحاكم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج الى تحرير ، اذ لا يدرى المرء أهو مخطىء فى التخلق بها أم مصيب . وقد تنبه الغزالى الى هذه النقطة فى غير هذا الباب ، وهو يرى أن المطلوب فى علاج البخل مثلا هو « الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية البعد عن الطرفين » ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذى يوجبه الخلق المحذور ، فان كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون امساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد فى المواظبة على البذل . فان صار البذل على غير مستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك . فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفات الى المال ، فلا تميل الى بذله ولا الى امساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج . ولا يترجح عندك البذل على الامساك (١) » .

---

(١) ج ٣ ص ٣٦٧ .

وفى هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب ان يتساوى البذل والامساك ، وانما يحاول الغزالى أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد .

الفصل الثالث

الطريق الى تهذيب الأخلاق

يتخذ الغزالى البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة ، وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه ، فكذلك النفس : ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها . واكتساب زيادة صفائها ، وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها . وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن ، الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها : فان كانت من حرارة فبالبرودة ، وان كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب ، علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما انه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فانه يدوم بعد الموت أبد الآباد (!) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة الا اذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة وبالقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فانه ان لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فان كانت من حرارة فيعرف

درجتها ، أهي ضعيفة أم قوية ، فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعة المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذي يطب نفوس المريدين ينبغي أن لا يهجم عليه بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص ، وطريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد ، وفي حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبني على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالي بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب في ذاك الزمان(١) .

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطباع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر اذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ، فقد يولد السؤال أمراضا في النفس تحتاج في اقتلاعها الى مجاهدة وعناء ، ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح !!

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد أنه شر ؛ والسبيل الى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع ، ولكن ما هي الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب الشر ؟

---

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ احياء » وص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان »

غاية الأخلاق ـ فيما يرى الغزالى ـ هى السعادة الأخروية وقد فصل هذا فى الفصل الأول من « الميزان » ويقول فى ص ١١٧ من هذا الكتاب . « ان السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وما عداها سميت سعادة ، اما مجازا واما غلطا ، كالسعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة . واما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية اصدق ، وذلك كل ما يوصل الى السعادة الاخروية ويعين عليها . فان الموصل الى الخير والسعادة ، قد يسمى خيرا وسعادة (؟!) .

وهذا يدل على أن الغزالى ليست له غاية اجتماعية . فالذى يسعف مريضا ، أو يغيث ملهوفا ، أو يأسو جريحا ، أو يواسى فقيرا ، لا يهمه شفاء المريض . ولا اغاثة الملهوف ، ولا برء الجريح . ولا سد حاجة الفقير ، ما دامت نيته قد خلصت فى عمله ، ووثق بجزاء الآخرة ! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب فى هذه الدنيا انما هى سعادة مجازية ، وواجب المرء ان يفهمها كذلك . وله ان يعدها سعادة نسبية ، على معنى ان ما يوصل الى السعادة الاخروية قد يسمى خيرا وسعادة !! وقد نص فى ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفا ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ يماثله ! !

ونسأل الغزالى سؤالين اثنين :

أولا ــ اذا اسعفت مريضا وكان لا يهمك برؤه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لمسعاك فى هذه الدنيا ، وانما يهمك أن تصح نيتك فتثاب فى أخراك ، الا تكون تاجرا فى غايتك الأخلاقية ؟

ثانيا ــ اذا تركت الزنا توفيرا لكرامتك او لصحتك ، كيف لا تكون عفيفا ، ولماذا طلبت العفة ، ودعا اليها الشرع ؟ أليس ذلك لأن فيها حفظا للصحة ، وتوفيرا للكرامة ؟ واذا كنت تجد العقل مقياسا للخير والشر ، فخبرنى ايجد العقل ما يحكم

به على ضرر الزنا وانه شر اكثر من انه مود بالصحـــة ، ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر ان الغزالى سخر ممن يرون السعادة الأخروية فى نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وان نطق بذلك الكتاب ، ورأى أن سعادة الآخرة هى رضاء الله . أفلا يصح لنا قياسا على هذا أن نعد الطمع فى السعادة الأخروية عند اغاثة الملهوف ، واسعاف الجريح ، ينافى ما تسمو اليه الأخلاق ، وان واجب الرجل الخير أن يرى سعادته فى سعادة من اغاثه وواساه ، لا أن يلقى جزاءه على ذلك فى الآخرة ، وان لم تثمر أعماله فى الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالى للغاية الأخلاقية على هذا النحو جعله يخطىء فى فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة الحج مثلا يحسبها الغزالى نوعا من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الاحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجـد لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصا بها ، وحتى لتحسبه غفل عن قوله تعالى : (ليشهدوا منافع لهم) اذ تراه يستكثر أن يحج المرء لينتفع بموسم التجارة !

ونظرة صغيرة الى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ، ترينا السر فى فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ؛ فالتجارة التى تنبه اليها الغزالى ثم استنكرها ، ليست شيئا بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاقى حجاجهم ، وينفض كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدولية ، وليستعدوا لدرء ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر . ولكن الغزالى يرى العمل كله فى العبادة المجردة ، ويرى الجزاء أيضا عبادة مجردة ، وكثيرا ما نص الصوفية على أن لذائذ الجنة ليست مادية ، ولكنهـا تسبيح وتقديس وتهليل !؟

الفصــل الخامس

هل تورث الاخلاق

قرر الغزالى حين تكلم فى التربيــة أن قلب الطفل « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل الى كل ما يمال به اليه . فان عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة . وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك » ص ٧٧ ج ٣ .

وهذا يدل على أن الغزالى يرى أن الفطرة الانسانية قابلة لكل شىء ، وانه ليس لها قبــل التربية اى لون . فالخير اذن يكتسب بالتربية . والشر يكتسب بالتربية . وليس للانسان بفطرته ميل خاص : لا الى الشر ، ولا الى الخير ، وانما يسعد أو يشقى بما يقدم اليه أبواه ومعلموه .

ويؤيد هذا قوله فى تهذيب الأخلاق « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وانما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحــوال ، فكذلك كل مولود يولد معتــدلا صحيح الفطــرة ، وانما ابواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل . وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال . وانما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم » ص ٦٤ ج ٣ .

ولكنا نجد الغزالى يقرر فى ص ١٢٧ من « الميزان » أن النسب الدينى أمارة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزاع . ونجده كذلك يحض فى تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة

متدينة تأكل الحلال « فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فاذا وقع عليه نشوء الصبى انعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث » ص ٧٧ ج ٣ .

وهذا صريح فى الحكم بوراثة الأخلاق ، اذ لا يمكن أن تعتبر الرضاعة نوعا من الأدب والتدريب ، اذ كانت تسبق الادراك والتمييز . يضاف الى هذا أنه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل الى الحياء ، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه . ومن الواضح أنه لو كانت الفطرة جميعا خالصة من كل الميول ، لكان واجبا أن يغرس الحياء فى الطفل بالتربية والرياضة . لا أن ينمى ، اذ لا ينمى غير الموجود .

ومما تقدم نرى للغزالى رأيين مختلفين فى وراثة الأخلاق . فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث . وحين يدعو الى أن لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث ؛ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟

تحرير هذا البحث

الواقع أن الغزالى لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه متناقضا ، وغير محدود . ولو أنه عنى به عناية خاصة لبين لنا أن الأخلاق تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة . فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التى يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتـــلاع ، بل الكهول يقدرون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهـــدة ، والطباع التى يرثها المرء من أبويه لا تعاوده الا عند خمود مزاياه التى كسبها بنصح أساتذته ، أو تأثير بيئة صالحة ساقته اليها الأقدار .

اذن لا تناقض فى كلام الغزالى الا من حيث الظـــاهر . فهـــو يقول بوراثة الأخلاق فى ثنايا آرائه المبعثرة هنا وهناك ، وان كان يجعل للتربية السلطان الأكبر فى تكوين النفوس .

الباب السابع

فى الفضـــائل

تمهيـــد

نتكلم فى هذا الباب عن تحديد الفضيلة ، وبيان أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، ثم نذكر طائفة من الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى : كالصدق ، والصبر ، والتوكل ، والخمول ، وما الى ذلك مما تدور عليه حياة الأفراد ، وينبنى عليه الاجتماع ، ليرى القارىء ما يسمو اليه فى تصور المثل الأعلى للحياة .

تحديد الفضيلة

لا يفرق الغزالى بين كلمة فضيلة ، وكلمة خلق ، فهما عنده عباره عن هيئة النفس ، وصورتها الباطنة .

وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه الى ما أخذ عن ارسطو وبعضه الى ما اخذ عن أفلاطون . فهو يأخذ عن ارسطو نظرية (التوسط) التى يسميها الاعتدال ، فقوة الغضب مثلا ان مالت عن الاعتدال ، الى طرف الزيادة سميت تهورا ؛ وان مالت الى الضعف سميت جبنا ، فأما ان ظلت وســـطا بين الزيادة والنقصان فهى الشجاعة . فالمحمود هو الوسط ، وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان ، كما يقول .

ولا يجمد الغزالى على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل ما لا وسط له ، بل يقرر ان العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد : هو الجور .

ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فإن الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصالح جميع كمالات المخلوقات . والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر الى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان الى الانموذج . والغزالى يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله ، ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن نتخلق بأخلاق الله ، ما عدا الكبرياء . فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالى تماثل تماما مشابهة الله عند أفلاطون .

وأخذ أيضا عن أفلاطون نظرية التوافق L'harmonie ويسميها العدل . والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية . واليك ما يقول الغزالى فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقا بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن اربعة أركان ، لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . اما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الأفعال . فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ما تقتضيه الحكمة . وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت اشارة الحكمة ، أعنى اشارة العقل والشرع » .

ويجب أن نتنبه الى هذه الكلمة الأخيرة ، وهى (اشارة العقل والشرع) فان الغزالى يدمج فيها التوافق والمماثلة معا ؛ أما المماثلة فهى فى لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول ممثلة فى

القرآن . وأما التوافق فهو لفظ العقل ، اذ يرجع كل الملكات الى طاعته . وانظر قوله « فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى القدرة ، ومثالها مثال المنفذ المضي . والغضب هو الذى تنفذ فيه الاشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الارشاد » .

والأمر كذلك فى قوة العلم وقوة الشهوة . وقد نص فى « الميزان » على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب واستشهد بالقول المأثور : بالعدل قامت الأرض والسموات وهذا الترتيب الواجب خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية التوافق .

امهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالى أربعة : الحكمة والشجاعة والعفه والعدل . وقد نص على انه يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرى الصواب من الخطأ فى جميع الأحوال الاختيارية . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى اقدامها واحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالى ، فمن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأى ، واصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفايا آفات النفوس .

واما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والتودد .

وأما خلق العفة فيصدر عنه : السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف، وقلة الطمع .

وقد نص فى « الميزان » على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب « فليس جزءا من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل(1) » .

وقد لحظ الغزالى ان فى هذه الفروع شيئا من الغموض ، فكتب فى شرحها ثلاثة فصول مطولة فى الميزان ، وبين معها كذلك ما ينشأ من الافراط والتفريط ، من انواع الرذائل ، وسنرجع اليها فى غير هذا الباب .

الفضائل السلبية

فى مقدورنا أن نقسم الفضائل الى ايجابية وسلبية : فالأمل فضيلة ايجابية ، لأنه يحمل صاحبه على العمل فى سبيل الحياة . والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من سوء الحال .

وبعد أن نفهم هذا ننظر فى الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى ، فنجدها فى الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة الفقر ، وفضيلة الزهد ، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ، وفضيلة الخمول ، وفضيلة التواضع ، وفضيلة الجوع .

ولم يعن الغزالى بشرح الفضائل الايجابية : كالشجاعة ، والاقدام ، والحرص ، وما الى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعى لنيل ما لا يجد . فانه لا يكفى أن يسلم الرجل

---

(1) ص ٩٠ .

من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف . فان الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

الفضائل الفردية

ويمكننا إن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعية . فالقناعة فضيلة فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات . والأمانة فضيلة اجتماعية لأن المرء يحتاج اليها حين يعامل الناس .

والغزالى يعنى فى الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه يكتب مؤلفاته لأفراد يعيشون فى عزلة وانفراد . فلو أنك أردت أن تدخل فى عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالى من آداب الوحدة والعزلة ما يقنعك ويرضيك . ولكنك لو أردت أن تدخل فى عالم السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراسا يهتدى به الساسة من الوزراء والسفراء .

درجات الأخلاق

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر بالبال هذا السؤال . هل يرى الغزالى أن فى مقدور المرء أن يصل الى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك فى مقدور المرء . وانظر قوله :

« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد » .

والدرجة العليا عنده هى درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى

يقربون من هذه الدرجة ، واليك ما يقول عنهم فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا : فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

وأظن اننا هدمنا هذا الحكم من اساسه بما اسلفنا من نقد احوال الصوفية ، فان ما استحسن الغزالى من احوالهم لا يمكن ان يكون مقتبسا من نور مشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة يا هذا وساوس واضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !

أين مقياس العقل والشرع ؟ هاته ، هاته : فهو وحده فصل الخطاب !

الفصـــل الأول

فضيلة الصدق

ابتدأ الغزالى الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام : « ان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا . وان الكذب يهدى الى الفجـــور ، والفجور يهدى الى النار . وان الرجـــل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . ثم قال : ويكفى فى فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقـــال : « واذكر فى الكتـــاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » وقال : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » . وقال : « واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا » .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالى ستة معان : صـــدق فى القول ، وصدق فى النية والارادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصـــــدق فى تحقيق مقامات الدين . فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق ، ومن صـــدق فى شيء فهو صادق بالاضافة الى ما فيه صدقه .

الأول ـ صدق القول . وهو اشهر أنواع الصدق ولا يجوز العدول عنه الا لمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجرى مجراهم . وفى الحذر من الظلمة ، وفى قتال الأعداء ، والاحتراز

من أطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالى : « فمن اضطر الى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فاذا نطق به فهو صادق ، وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه . لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه . فلا ينظر الى صورته ، بل الى معناه . نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ما وجد اليها سبيلا ». فقد كان رسول الله اذا توجه الى سفر ورى بغيره . كيلا ينتهى الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شىء . قال رسول الله : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ونمى خيرا » . ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : « من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية ، فلا يراعى فيه الا صدق النية واردة الخير » .

الثانى ــ صدق النية والارادة ، ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله .

الثالث ــ صدق العزم . فان الانسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول : ان رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ، أو شطره ، فهذه العزيمة قد يصادفها فى نفسه وهى جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة .

الرابع ــ صدق الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال ، اذ لا مشقة فى الوعد والعزم ، فاذا حقت الحقائق ،

وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمــة ، ولم يحصل الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه .

الخامس ــ صدق الأعمال ، وهو ان تكون اعمال المرء الظاهرة، صورة لحالته الباطنة . بخلاف اعمال الرياء .

السادس ــ الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضا والتوكل والحب ، لان لأمثال هذه الأمور مبادىء يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقائق ، والصادق من نال تلك الحقائق .. وفي هذا المعنى شيء من الغموض .

الفصــل الثاني

فضيلة الصبر

يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم . فمتى علم الانسان الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه . ويقرب راى الغزالي من هذا في اساس الصبر ، الا انه يشترط أن تصل المعرفة الى اليقين حتى تثمر الصبر واليك قوله في هذا المعنى : « ترك الأعمــال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فاذا قوى يقينه ، اعني المعرفة التي تسمى ايمانا ؟ وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى باعثة

الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة (١) وقال فى موطن آخر . « والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولايمكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة الا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى (٢) » ويذكر أميل بوراك فى كتابه :
Cours Elémentaires de Philosophie

ص ٣٤٣ ان العلم لا يكفى أساسا للفضيلة . فمعرفة الواجب لاتكفى للقيام به . بل لا بد من حبه وارادته ارادة حرة ثابتة . وهذا التقييد يساوى ما اشترط الغزالى من اليقين ، لأن المرء متى تيقن نفع شيء احبه ، أو كاد يحبه . ويرى الدكتور منصور فهمى والأستاذ عبده خير الدين ان المعرفة التى يراها سقراط اساس الفضيلة لا بد أن تكون المعرفة الجازمة التى تورث الارادة ثم التنفيذ . واذن فلا اعتراض على سقراط .

أسماء الصبر

ويقرر الغزالى ان الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الايمان « فان كان صبرا ، عن شهوة البطن والفرج سمى عفة . وان كان فى احتمال مكروه سمى صبرا ، وضده الجزع . وان كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وضده البطر . وان كان فى الحرب سمى شجاعة ، وضده الجبن . وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، وضده التذمر . وان كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر وضده الضجر . وان كان فى اخفاء كلام سمى كتمان السر »

---

(١) ٦٧ ج ٤ .
(٢) ٧٠ ج ٤ .

وان كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده الحرص . وان كان صبرا على يسير من الحظوظ سمى قناعة ، وضده الشره .

درجات الصابرين

وللانسان بالنسبة للصبر ثلاثة احوال :

الأولى ــ ان يقهر داعى الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل الى هذه الحال بدوام الصبر .

الثانية ــ أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، وهى أسوأ الأحوال .

الثالثة ــ ان تكون الحرب سجالا بين الهدى والضلال .

حكم الصبر

وينقسم الصبر باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكروهات نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده فيسكت ويصبر ، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته ، فيصبر عن اظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على اهله . فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهه مكروهة فى الشرع ، كنظر الأجنبى الى امرأته .

ضرورة الصبر

ويرى الغزالى أن المرء محتاج الى الصبر فى كل حال : فهو يحتاج اليه فى السراء ، كما يحتاج اليه فى الضراء . بل هو اليه فى السراء أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . والصبر هنا يكون بأن يراعى المرء حقوق الله فى ماله بالانفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق .

والطاعة تحتـــاج الى صبر ، لأن النفس بطبعهـا تنفر من العبودية . وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والاخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، والعزم على الاخلاص والوفاء . والثانية حالة العمل ، كى لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به ، والنظر اليه بعين العجب .

ويحتاج المرء الى الصبر عن المعاصى ، وعلى الأخص التى صارت مألوفة بالعادة ، اذن تنضاف العادة الى الشهوة . ثم ان كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، والمزح المؤذى للقلوب .

والصبر على أذى الناس فضيلة ، واعظم منه الصبر على انواع البلاء : كموت الاعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة .

ويرى الغزالى أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لا ينافى الصبر ، لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الانسـان الى الموت .

والذى كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالى بهذا أن يؤكد احتياج المرء الى الصبر فى جميع الأحوال والأفعال .

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر باضعاف باعث الشهوة ، وتقوية باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النـوع والكثرة ، أو قطع أسبابه ، أو تسليـة النفس بمباح من جنس ما يشتهيه . ويقوى باعث الدين بأمرين : الأول اطماعه فى فوائد المجاهدة بالتفكر فى الاخبار الواردة عن الصبر وعواقبه . والثـانى أن يعود هذا الباعث مصارعه باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته .

الفصل الثالث
فضيلة الخمول

الغزالى يسمى الخمول فضيلة ، ويخيل الى أنه لافضل فيه !!
ولكن تسمية الغزالى هذه تدلنا عن شىء خاص يوضح رأيه فى الأخلاق : ذلك أنه حين دعا الى الخمول ، لم يدع الى التجرد من الخصائص الذاتية التى توجب ذيوع الشهرة وبعد الصيت ؛ وقد خص الشهرة المذمومة بما يأتى من طريق التكلف . وهو لا ينكر ان يشتهر المرء بعمله فى غير جلبة ولا ضوضاء .

وقد نبه بلطف الى أن حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع خاص ، فقد يعود المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين يقلون . وفى هذا المعنى يذكر عن أبى العالية أنه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالى أن التجمهر حول الأمراء فتنة لهم ، وذلة لتابعيهم ، فذكر فى هذا المعنى كلمة جامعة لعمر ابن الخطاب .

ويقول الغزالى : « فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به ان لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم .

واما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويثاب على ذلك » .

فالرجل الخير فيما يرى الغزالى هو الذى لا يعرف غير الواجب ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم اعرضوا عنه ، لأنه بالواجب مشغول .

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالى عن التوكل اربعا وخمسين صفحة فى الاحياء وثلاث عشرة صفحة فى كتاب الأربعين ، وسبعا وعشرين صفحة فى منهاج العابدين . وهو يبالغ فى المنهاج أكثر مما يفعل فى الأربعين والاحياء ، فان كلامه فى الكتابين الاخيرين واحد ، وان اختلف فى الايجاز والاطناب ، وكثيرا ما يحيل فى الأربعين على الاحياء .

واول ما نلاحظه ان الغزالى اهتم بهذه الفضيلة ، حتى احتاج الى ان يعتذر عن تطويله فى كتاب المنهاج ، اذ كان التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانبا من اهم الجوانب فى فهمه للحياة .

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح فى الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الارزاق !

ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الامثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر فى الأسواق . ولكن الغزالى يقول « فالاهتمام(١) بالرزق قبيح بذوى الدين . وهو

---

(١) ناقشنى الاستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما احدثته على الغزالى من تقبيحه الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى أن « الاهتمام » هو القبيح ، فأما طلب الرزق فلا قبح فيه ولكن يلاحظ أن الغزالى قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة فى طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هى الاهتمام بالرزق . ولا زلت أرى انه لا معنى لان يكون الاهتمام بالرزق قبيحا بذوى الدين حتى يكون بالعلماء اقبح . ولكن عذر الغزالى انه ينظر الى هذه المسألة نظرة صوفيه كما قال فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .

بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم القناعة . والعالم القانع يأتيه رزقه
وررق جماعة كثيرة ان كانوا معه الا اذا أراد أن لا يأخذ من ايدى
الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق العالم العامل الذى
سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب
يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من
يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل،
واعانة للمعطى على نيل الثواب » ص ٢٨٦ ج ٤ .

ولو انه دعا الحكومات الى الأخذ بيد العلماء ، واغنائهم عن
السعى الى الرزق لتنحصر جهودهم فى نشر العلم ، لكان له قسط
من الصواب . اما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ،
وأن الأولى للعالم أن يكتفى بما يعطيه الناس ليعينهم على نيل
الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه الى الحضيض ، ولا يتناسب مع
مكانه العلماء .

كراهة السؤال

ومع أن الغزالى يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل
الثواب ، فانا نجده فى مكان آخر يقرر أن السؤال حرام فى الأصل
وانما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن فى السؤال
اظهار الشكوى من الله باظهار الفقر ، ولأن السائل يذل نفسه
بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، ولأنه يؤذى
المسئول : فقد لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب . فان بذل
بحياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ .

ويمكن الحكم بأن الغزالى يحتاط أبلغ احتياط فى اباحة السؤال
ولكن يبقى انه من اهانة العلم والدين ان يقبل المرء بكليته على
العبادة املا فى أن يطعمه سواه ، فانه لا يعقل أن تكون نوافل

العبادات مما يترك فى سبيله طلب المعاش ، حتى يباح لأجلها السؤال(١) .

حكم الكسب

والغزالى مع هذا لا يرى الكسب منافيا للتوكل فى كل حال ؟ فمن الخطأ فيما يرى أن « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فان ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد اثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ؟ » وقد بين أن الانسان فى سعيه الى مقاصده اما أن يكون لجلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق ، أو لازالة ضار قد نزل به . كالتداوى من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التى يجلب بها ثلاث درجات : مقطوع به . ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقه تامة ، ولا تطمئن اليه .

والأولى كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله

(١) قامت ضجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم ، وأنكر فضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان ان يكون الغزالى قال شيئا من ذلك . وهذا يدل على ان الفطرة الخالصة تستنكر السؤال .

وقد كتب فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التى كانت عنده ما يأتى : كانت قدم المعرى أرسخ فى الزهد من قدم الغزالى . فقد كان متحققا بالزهد عملا واشتهر ذلك عنه اشتهارا لا شبهة فيه . وقد قال :

الامر لله قد اصبحت فى دعة ارضى القليل ولا أهتم للقوت
وشاهد خالقى أن الصلاة له أعز عندى من درى وياقوتى

ومع هذا فرأيه فى الزهد خير من رأى الغزالى ، لانه كان مع اعجابه بالقناعة والزهد يعيب على القانع الزاهد أن يكون عيشه من فضلات أهل اليسار . ويقول :

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعا بين يديه وهو جائع . ثم لا يمد اليه يده ، لانه يرى السعى الى تناوله ومضغه تفويتا للتوكل ، وهذا فيما يرى الغزالى جنون « انك ان انتظرت أن يخلق الله فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة اليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله الى معدتك ؟ فقد جهلت سنة الله . وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع ، فكل ذلك جنون » .

والتوكل فى هذا المقام — كما نص الغزالى — لا يكون بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك انه لا يجوز لك ترك الأسباب ، وانما تعلم ان الله هو مسبب الأسباب .

والثانية الأسباب التى ليست متيقنة ، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كمن يترك الامصار والقوافل ، ويسافر فى البوادى التى يندر أن يطرقها الناس ؛ ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطا فى التوكل ، بل استصحاب الزاد سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به .

وقد أسرف الغزالى حين تحدث عن هذا الموقف فى المنهاج ، وانظر ماذا يقول : « فان قلت : فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فاقول : ان كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالغة بوعد الله سبحانه وتعالى ، فادخل ، والا كن كالعوام بعلائقهم » ص ٨٢ .

ولو اننا رجعنا الى ما وضعه من آداب المسافر لعلمنا انه احتاط هناك ، فحث المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ؟ ثم أوصاه بأن يأخذ قدرا يوسع به على رفقائه ، فكيف يصبح المسافر بزاده فى البادية من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالى أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بأن ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هل ترك الزاد أولى أم أخذه لمن قوى يقينه ؟ وأجاب فى المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساسا غير التنسك الذى ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفت الغزالى أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون القاء بالأيدى الى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولا رياضة النفس حتى تحتمل الجوع أسبوعا أو ما يقاربه ، وثانيا أن يكون المتوكل بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء الخسيسة ، اذ لا يخلو الأمر من أن يجد آدميا فى بحر الأسبوع أو ينتهى الى محله ، أو قرية ، أو الى حشيش يجتزىء به !

وأحب أن يذكر القارىء هذه الصورة الغريبة ، فان الغزالى يدعو اليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما ، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن ينفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ، ففعله ذلك حرام . وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ، فالكسب والخروج أولى له ، ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وان كان مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ، ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل » .

وما أدري كيف يتفق هذا مع قوله فى نفس الصفحة : فاذا التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؟ الا أن يكون السؤال من الأسباب ، وهو سبب مهين !

وأحب أيضا أن يذكر القارىء هـذا التناقض فى الجمع بين التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لأمة قائمة وهى تربى على هذه الأخلاق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين من يدخل البادية بلا زاد ؟ لا فرق الا أن الثانى قد يجد من يتصدق عليه ، أو يجد حشيشا يقتات به ! ولو ذكر الغزالى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وان الله كرم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرىء هذا الحظ الخسيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، فى طبقة المتوكلين .

والدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التى يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغـزالى : « وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم ، أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمـال مباح » (١) .

واذا كان الاحتيال لكسب المباح مما ينافى التوكل ، فقد انهدم أعظم ركن فى بناء الممالك والشعوب . والغزالى يردد النفرة من الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم عما يجمل بالتاجر من أن لا يكون أول داخل فى السوق ولا آخر خارج منه .

ونرى الحاجة ماسة الى أن ننبـه الى أن فهم التوكل بهـذه الصورة خطأ صراح ، وليس علينا مِنْ حرج اذا رأينا الغزالى من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد !

---

(١) ٢٨٨ ج ٤ .

مقامات المتوكلين

وللمتوكل مقامات ثلاثة .

الأول ــ مقام من يترك الزاد وهو يدور فى الوادى ، وانما كان هذا افضل فيما يرى الغزالى لأن فيه تثبيتا على الرضا بالموت !

الثانى ــ مقام من يقعد فى بيته أو فى مسجد ، ولكنه فى القرى والامصار . وهذا أضعف من الأول كما يقول .

والثالث ــ من يخرج للكسب على الوجه الذى ارتضاه حين تكلم عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون الكسب أدنى درجات المتوكلين .

توكل المعيل

غير ان الغزالى يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا انه يرضى له الاقتناع بان الموت من جملة الأرزاق .

أما المعيل صاحب الأولاد فانه لا يجوز له المقام الثالث ، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبى بكر رضى الله عنه اذ خرج للكسب « فأما دخول البرارى وترك العيال توكلا فى حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بامرهم توكلا فى حقهم ، فهذا حرام . وقد يفضى الى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق انه لا فرق بينه وبين عياله . فانه ان ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل فى حقهم ، وهذه مجازفه من الغزالى : اذ يرضى ان يعود الرجل ابناءه على الجوع ، وأن يمرنهم على الاعتداد بالموت جوعا فى سبيل الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف .

يقول الغزالى : « وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت ان تأخر الرزق نادرا ، وملازمه البلاد والأمصار

وملازمة البوادى التى لا تخلو عن الحشيش وما يجرى مجراه ،
فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ... الخ » ؟

ونكرر ما لاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ مبين ، فانه يجر القادر على الطلب الى الرضـــا بالسؤال ، وانتظـــار المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول ما يعنى به بناة الأخلاق .

الادخـــار

ورأى الغزالى فى الادخار عجيب ، اذ أفضل الحالات عنـــده لمن حصل على مال بأرث أو كسب أو أى سبب من الأسباب أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت : فيأكل ان كان جائعـــا ، ويلبس ان كان عاريا ، ويشترى مسكنا مختصرا ان كان محتاجا ، ويفرق الباقى فى الحال . ولا يأخذ ، ولا يدخر ، الا بالقـــدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه ، فيدخره على هذه النية !

والذى يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلا كما يقول !

والذى يدخر لأربعين يوما فما دونها يحرم من المقـــام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين .

ونحب أن يتأمل القارىء هـــذا الرأى فى الاقتصاد ، فقد أكثر المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا الجهل به سببا لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق . ولكن كيف يحترم هـــذا العلم فى أمة يقول امام الأئمة فيها : ان ادخار المـــال لأربعين يوما يحرم المرء من المقام المحمود ! ؟

وقد تفضل الغزالى فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله لسنة ؟!
وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث البيت ! !
والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن ســـنة الله لم تجر بتكرر الاوانى مع الحاجة اليها فى كل وقت ، ولكن جرت ســـنته بتكرر

الأرزاق فى كل سنه . وكان عليه ان يعرف أن الرزق انما يتجدد فى كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ربعه فى كل سنه . فياعجبا كيف نجيز التوكل اتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

وضع الغزالى الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :

١ - أن يعلق الباب ، ولا يستقصى فى أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه اغلاقا كثيرة !

٢ - أن لا يترك فى البيت متاعا يحرص عليه السراق !

٣ - ما يضطر الى تركه فى البيت ، ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

٤ - اذا عاد فوجد المال مسروقا فينبغى أن لا يحزن ، بل يفرح اذا أمكنه !

٥ - ان لايدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ . فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !

٦ - أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما !

وما أدرى ما الذى أنسى الغزالى أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا ، وأن يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف ! !

وليس من التوكل بالطبع أن ينعقب المرء الجناة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ما قدمت ايديهم . بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء فى اسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين .

واظرف ما فى هذا الباب دعوة الغزالى الى ان يجعل الرحل ما سرق منه ذخيرة له فى الآخرة ، وان اعيد اليه فالأولى أن لا يقبله !

توكل الخائف

يقرر الغزالى أن الضرر قد يعرض للخوف فى النفس والمال ، أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة ، أو فى مجارى السيل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل ، أو السقف المنكسر ، وكل ذلك فيما يرى منهى عنه ، لأنه تعريض للهلاك بلا فائدة .

وجملة القول أن أسباب الخوف اما مقطوع بها أو مظنونة او موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالمبالغة فى الاحتياط تبعد المرء عن مقام المتوكلين ؟

وهنا لا نرى بأسا من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالى ، فقد عد من الأسباب الموهومة الكي ، وذكر أن رسول الله لم يصف المتوكلين الا بترك الكى والرقية والطيرة . ولو صح رأيه فيما استشهد به ، لكان للرقية والطيرة فائدة موهومة ، مع أنه يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب ، وانما يريد أن يضيف المكتويين والمتطيرين والراقين الى جملة الموسوسين .

ولو كان للكى فائدة موهومة لما عد تركه من التوكل ، وهو يتعلق مباشرة بالصحة . وانما نهى عنه الرسول لأن ضرره كثير ، ومحقق ، ونفعه قليل بل موهوم . وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطا فى التوكل الا لأن فى تركها تعويدا على المخاطرة ، وهي من صفات الأحياء ، فاذا اختلفت الظروف ، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعا من الحيطة ، فانى لا أفهم كيف تحرم المرء من المقام المحمود !

واذا خاف الانسان على ماله ، فله أن يغلق بيته ، وأن يعقل بعيره ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله اما قطعا واما ظنا ،

فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيات والسباع ، لأن الصبر على هذه جنون .

توكل المريض

يقسم الغزالى الأسباب المزيلة للمرض الى مقطوع به ، ومظنون ، وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل بل تركه حرام عند خوف الموت . وكان عليه أن يتنبه الى أن المرض متى وجد ، فالموت مخوف فى كل حال ، لأن للمرض طفولة وحداثة وفتوة ، فان ترك وهو ناشىء أمسى وهو قوى متين ، بل يجب حرب جراثيم المرض ، لأنها تبيض وتفرخ ، ثم تصبح أعداء الداء . فاما الموهوم فشرط التوكل تركه . وقد بينا ما تختلف عليه هذه الحال . وأما المظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما الى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما ان تركه ليس محظورا كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص . وهذا ما لا نوافق عليه الغزالى ، لأنا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله فى بعض الأحيان .

والى القارىء الأحوال التى يحمد فيها عنده ترك التداوى !

١ – أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كوشف بأن أجله انتهى ، وان الدواء لا ينفعه (!) .

٢ – أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته .

٣ – أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذى يؤمر به موهوم النفع بالنسبة لعلته .

٤ – أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال اجر الصابرين ، أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

٥ – أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض تكفيرا اذا طال ، وكان قد عجز عن التكفير !

٤ ــ أن يستشعر فى نفسه مبادىء البطر والطغيان بطول مدة الصحة ، فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض ، فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان .

ويحسن أن نلفت النظر الى ان هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ؛ وهى فى الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالى على نزعته الصوفية ، فمن الواضح أن ايثار المرض فى سبيل الفرار من آفات العافية ، انما هو عمل سلبى قلل الغناء . وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك الى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالا صحاح الجوارح والقلوب ؟

والغزالى فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز اظهاره الا فى الأحوال الآتية :

١ ــ أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا فى معرض الشكاية ، بل فى معرض الحكاية .

٢ ــ أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر .

٣ ــ أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله .

قال الغزالى : « فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض ، وانما يشترط ذلك لان ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله . فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه . لانه ربما يوهم الشكاية ، ولانه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للاظهار ، لأن الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء » .

وهذه الكلمة الأخيرة غاية فى الحكمة والسداد .

ملاحظات ثلاث

الأولى

جاء فى ص ٢٩٢ ج ٤ احياء ما نصه : « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده ، وانما ذلك فى المأكول وفى كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء والمتوكلين فى زوايا المساجد . وما جرت السنة بتفريق الكيزان والامتعة فى كل يوم وفى كل أسبوع » .

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية ، وقد وضع الغزالى مقياسا لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ؟ وما أحسبه يستطيع ان يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل المأمور به فى القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب والايمان بانه لا يضيع أجر العاملين .

الثانيــة

جاء فى المنهاج ص ٨٠ ما نصه : « فان قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ؟ فاعلم أن الرزق المضمون الذى هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه اذ هو شىء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه (؟!) فان قيل :

لكن لهذا الرزق المضمون أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؟ قيل له لا يلزمك ، اذ لا حاجة للعبد اليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال الله تعالى : « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها » ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه . فتأمل » .

وقد تأملنا كثيرا ، فلم نر هذه الحجج الا خيالا فى خيال !

الثالثة

اراد الغزالى ان يحض على التوكل فأمر بملاحظة الجنين كيف وصلت سرته بسرة الأم لينتهى اليه الغداء لما كان عاجزا عن الحركة والاضطراب ، فلما انفصل سلط الله على الأم الحب لترضعه وهى راغمة ، وأدر له اللبن اللطيف ، اذ كان مزاجه لا يحتمل الغذاء الكثيف . وانتقل الغزالى من هذا الى بيان أن الكبر قد كثرت أسباب الرفق به ، فبعد أن كان المشفق واحدا هو الأم أو الأب ، أصبح أهل البلد كافة يشفقون عليه . ثم أخذ يبين كيف ينتفع اليتيم بشفقة المسلمين ، الى آخر ما قال .

وهذه الحجه على الغزالى لا له ، فانه اذا كان الله وصل سرة الجنين بسرة أمه لضعفه عن الحركة ، وأدر عليه اللبن لعجزه عن المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعى ، فلماذا منحه القوة اذن ، اذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟

فأما ما قاله من أن كل واحد من أهل البلد اذا أحس بمحتاج تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية الى ازالة حاجته ، فهى أمنية شعرية ، وليته ذكر ان العرب هموا بترك دينهم ليتخلصوا من الزكاة !

الفصـــل الخامس

فضيلة الاخلاص

ابتدأ الغزالى كلامه عن هذه الفضيله بقوله تعالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الأحاديث والأخبار . ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس، ويميل اليه القلب، قل أم كثر، اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه، وزال به اخلاصه . ثم بين أنه قلما يخلو فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته، عن حظوظ واغراض عاجله . وان العمل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله .

ومقياس الاخلاص فيما يرى الغزالى هو أن يشعر المرء بارتياح حين يجد غيره يعمل عملا كان يريد أن يقوم به . نعرف هـــذا من قوله :

« وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة هم العلماء . فان الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء، والفرح بالأتباع . والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله . وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين . ويفرح بقبول الناس قوله، واقبالهم عليه، وهو يدعى انه يفرح بما يسر له من نصرة الدين . ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه واقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى اذ كفـــاه هذا المهم بغيره . ثم الشـــيطان مع ذلك لا يخليـــه ويقول : انما غمك لانقطاع الثواب منك لانصراف وجوه الناس الى غيرك . اذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفـــوات الثواب محمود . ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل واجزل ثوابا واعود اليه فى الآخرة » .

وقد انحصر الاخلاص عنده فى الأمور الدينية ، لغلبة هذه الامور عليه ، ولو كان الغزالى من الذين باشروا الحركات العامة ، ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكر لنا ضروبا من الاخلاص فى نهوض الأفراد بأممهم . وبين لنا كيف يتطرق الغرض الى الاعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الأغراض ، فليس الاخلاص وقفا على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل الاخلاص فيما بين الرجل وبين امته ، أوجب من الاخلاص فيما بينه وبين ربه ، لأنه حين يحرم الاخلاص فى العبادة لا يضر الله شيئا فان الله غنى عن العالمين . ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما يعمل لأمته ، يشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح وهو منبوذ مهين . ولكن اكثر الناس لا يعلمون !

الباب الثامن

في توقّي الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالي للرذيلة تعريفا يخصها بالذات ، وانما هي عنده افراط في الفضيلة أو تفريط . وهو يرى أن الافراط في قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ، والغمارة ، والحمق ، والجنون ، وينشأ من الافراط في الشجاعة التهور وما اليه من الجسارة ، والتبجح ، والاستشاطة والتكبر والعجب والبذخ . ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغر النفس ، والنكول . واما الرذائل الصادرة من الافراط أو التفريط في العفة ، فهي : الشره ، وكلال الشهوة ، والوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتك والمجانة ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة ... الخ .

والاحظ أن كلامه في هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظ هو ذلك ، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاطة ، الانفراك ، التخاسس ، البذالة ، الشكاسة ، الكزازة ، التحاشي ، النكول ، الغمارة ... الخ .

والأمر كذلك في الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق .

وينبغي أن لا ننسى ان الغزالي يوصي دائما بقلع الخلال الرديئة وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمي هذا بالتخلية ، والتحلية ، اى اخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليته بكرائم النزعات .

واذ كنا بينا رايه في جملة من الفضائل الضرورية للأفراد ، فانا ذاكرون كذلك رايه في طائفة من العيوب والرذائل الكثيرة الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة .

الفصـــل الأول

رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانهـا الى دفع المؤذيات قبـل وقوعها ، والى التشفي والانتقام بعد وقوعها . وهو فيما يرى الغزالى ثلاث درجات : التفريط ، والافراط ، والاعتدال .

أما التفريط ففقد هده القوه ، أو ضعفها . وهو مذموم اذ من ثمراته قلة الأنفة مما يؤنف منه ؛ كالتعرض للحرم والزوجـة ، والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس .

واما الافراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن العقل والدين ، فلا تبقى للمرء بصيرة ، ولا نظر ، ولا فكرة ، ولا اختيار .

وأما الاعتدال فهو المحمود ، وهو غضب ينتظر اشارة العقل والدين : فينبعث حيث تجب الحميـة ، وينطفىء حيث يحسن الحـلم .

قال الغزالى « فمن مال غضبه الى الفتور حتى احس من نفسه بضعف الغيرة ، وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغى ان يعالج نفسه ليغض من سورة الغضب ويقف على الوسط بين الطرفين(١) » .

---

(١) ١٦٩ ج ٣ احياء .

اســـبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالي ترجع الى ثلاثة أقسام :

الأول ــ ما هــو ضرورة فى حق الـكافة كالقــوت ، والملبس والمسكن ، وصحة البدن وهذه ضرورات لا يخلو الانسان من كراهة زوالها ، ومن الغيظ على من يتعرض لها .

والثانى ــ ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجــاه والمــال الكثير ، والغلمان ، والدواب وقد صارت هذه الأشياء محبوبة بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور .

الثالث ــ ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض ، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص .

عــلاجه

وقد وضع الغزالى طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما وضع طريقة لتسكينه حين يثور .

أما الطريقة الأولى فهى استئصال الغضب باستئصال أسبابه واذ كانت الأسباب المهيجة له هى الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على حصول المال ، والجاه ، فينبغى للخلوص من الغضب ازالة هذه الأسباب ، وهى فى أنفسها رذائل تحتاج الى رياضة ، ورياضتها الرجوع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فاذا انمحت عن النفس فقد ذكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا من الغضب الذى يصدر منها .

اما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع الى العلم والعمل . والعلم ستة امور :

١ – أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال .

٢ – أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضى فيه غضبه .

٣ – أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه .

٤ – أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضبان للكلب الضارى ، ومشابهة الحليم للأنبياء .

٥ – أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه الى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ .

٦ – ان يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشىء على وفق مراد الله لا على وفق مراده .

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان لم ينفع ذلك ، فاجلس ان كنت قائما ، واضطجع ان كنت جالسا ، واقرب من الأرض التى منها خلقت ؛ لتعرف ذل نفسك ، فان لم ينفع ذلك فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد .

درء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالى علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ، اخذ فى بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام . وهو على الجملة لا يجيز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصى . ويجيز ان ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام فى غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فانه يجر الى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حد الشرع فيه .

ثم قسم الناس باعتبار الغضب الى اربعة اقسام : قسم سريع الوقود سريع الخمود ، وقسم بطيء الوقود بطيء الخمود ، وقسم سريع الوقود بطيء الخمود ، وهو شرهم ، وقسم بطيء الوقود سريع الخمود . قال الغزالي وهو الأحمد ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة .

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب احدا في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا على المعاقب فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب حظ ، مع ان الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه .

ولا يفوتنا أن نذكر ان الغزالي كرر النصح بتجنب من يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولة ، فان الفضل في الصفح الجميل .

الفصل الثاني
رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالي وليد الغضب ، فان الغضب اذا لزم كظمه عجز عن التشفي في الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقد — كما نص على ذلك — أن يلزم المرء قلبه استثقال المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن يدوم ذلك ويبقى .

وللحقد ما يأتي من النتائج :

١ — الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن عدوك ، فتغتم للنعمة تصيبه ، وتسر للمصيبة تنزل به .
٢ — أن تزيد على اضمار الحسد في الباطن فتظهر الشماتة بما أصابه من البلاء .

٣ ـ أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك واقبل عليك .
٤ ـ أن تعرض عنه استصغارا له .
٥ ـ أن تتكلم فيه بما لا يحل : من كذب ، وغيبة ، وافشاء سر ، وهتك ستر .
٦ ـ أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه .
٧ ـ أن تؤذيه بضرب او شبهة مما يؤلم بدنه .
٨ ـ أن تمنعه حقه : من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظلمة .

قال الغزالى : « وكل ذلك حرام . واقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد الى ما يعصى به الله ، ولكن تستثقله فى الباطن . ولا ينتهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به عن البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته ، أو الدعاء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ، وان كان لا يعرضك لعقاب(١) » .

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال : الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل ، والثانية الاحسان بالعفو والصلة وهو الفضل ، والثالثة الظلم ، وهو المنهى عنه .

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو احدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالى أربع مراتب :

الاولى ـ أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وان كانت لاتنتقل اليه وهذا غاية الخبث .

---

(١) ١٨٦ ج ٣ هـ

الثانية ــ أن يحب زوالها اليه : لرغبته فى مثل تلك النعمة ، كأن يرى عند غيره امرأة جميلة ويحب أن تكون له ، فمطلوبه تلك النعمة لا زوالها ، ومكروهه فقدها لا تنعم غيره بها .

الثالثة ــ أن لا يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها ، كى لا يظهر التفاوت بينهما .

الرابعة ــ ان يشتهى لنفسه مثلها ، فان لم تحصل فلا يحب زوالها عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه ان كان فى الدنيا ، والمندوب اليه ان كان فى الدين .

والرتبة الأولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسدا تجوز ، فانما هى تمنى ما للغير ، وهو ايضا مذموم لقوله تعالى (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الأولى .

اسبابه وعلاجه

ويرى الغزالى ان اسباب الحسد ترجع الى العداوة ، والتعزز ، والكبر ، والعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس . وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران ، والاخوة ، وبنى العم ، والأقارب ، لان كثرة الروابط تولد اسباب الحسد والبغضاء .

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالى ينحصر فى تأديب النفس وتبصيرها بخطر هذه الرذيلة ، فان الحاسد انما ينكر فى غيره نعمة انعم الله بها عليه ، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه ، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغنى ولا يفيد ، فليس أضيع من وقت يصرف فى بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه .

وقد قرر الغزالى أن الحسد يكاد يكون طبيعة فى النفوس ، وأن الأمل فى السلامه منه بالكلية بعيد .

الفصل الرابع
رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه فى علم ، أو عمل ، أو مال ، ثلاث حالات :

الأولى ـ أن يكون خائفا على زواله ، ومشفقا على تكدره ، أو سلبه من أصله ، وهذا ليس بمعجب .

الثانية ـ أن لا يكون خائفا من زواله ، ولكن يكون فرحا به ، من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث اضافته الى نفسه ، وهذا أيضا ليس بمعجب .

الثالثة ـ أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحا به ، مطمئنا اليه ، ويكون فرحه من حيث انه كمال ونعمة ، وخير ورفعة ، لا من حيث أنه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو العجب . فهو اذن استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى النعم . قال الغزالى : « فان انضاف الى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا ادلالا بالعمل .. والادلال وراء العجب ، فلا مدل الا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لايتم الا مع توقع جزاء والعجب والادلال من مقدمات الكبر وأسبابه(1) » .

أسبابه وعلاجه

واليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :

الأول ـ أن يعجب المرء ببدنه : فى هيئته وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته .

---

(1) ٢٧٧ ج ٣ .

وعلاجه أن ينظر فى مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ، وكيف يعبث بها التراب .

الثانى ـ البطش والقوة ، وعلاجه ان ينظر ما حل بقوم عاد .

الثالث ـ العجب بالعقل ، والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور ، من مصالح الدنيا والدين . وآفه هذا الاستبداد بالرأى وترك المشوره .

وعلاجه أن ينظر فى مصير عقله لو أصيب بمرض فى دماغه .

الرابع ـ العجب بالنسب الشريف .

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباه فى افعالهم واخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ، فقد جهل .

الخامس ـ العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ، دون نسب العلم والدين .

وعلاجه أن يفكر فى مخازيهم ، وفى مصيرهم يوم الحساب .

السادس ـ العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والاتباع .

وعلاجه ان يتفكر فى ضعفه وضعفهم ، وانهم كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا .

السابع ـ العجب بالمال .

وعلاجه ان يتفكر فى آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وغوائله .

الثامن ـ العجب بالرأى الخطأ ، كما قال تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » .

قال الغزالى : « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جدا ... وانما

ملاجه على الجملة ان يكون متهما لرأيه ابدا لا يغتر به الا أن يشهد قاطع من كتاب أو سنة أو دليـل عقلى صـحيح جامع لشروط الأدلة(١) » .

وقد بين الغزالى فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها ، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها . وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه ، بل يظن انه يغفر له. ومتى أعجب المرء بأعماله عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات أعماله كان أكثر سعيه ضائعا ، فان الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وانما يتفقد عمله من يغلب عليه الخوف والاشفاق دون المعجب . فانه يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعـذابه ، اذ يظن أنه قد اسـتغنى وفاز ، وهـذا هو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه . كما قال الغزالى .

الفصل الخامس
رذيلة الكبر

يقسم الغزالى الكبر : الى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق فى النفس . والظاهر هو اعمال تصدر من الجوارح . ويسمى الباطن الكبر ، والظاهر التكبر . والكبر فيما يرى ثمرة العجب . وينفصل منه بأنه يتطلب متكبرا عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وعمله ، ولو خلق وحده .

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة اقسام :

الاول ـ التكبر على الله وهو افحش انواع الكبر ، ومثاله ما كان من فرعون .

الثانى ـ التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من قريش وبنى اسرائيل .

---

(١) ص ٢٨٤ ج ٣ .

الثالث ــ التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ، ويستحقر غيره .

أسباب التكبر

والتكبر سبعة أسباب :

الأول ــ العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء !

الثاني ــ العمل والعبادة . ولكن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات : الأولى ان يكون الكبر مستقرا فى قلب المرء فيرى نفسه خيرا من غيره ، الا انه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه ، وهذا قد غرست فى نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها . الثانية ، أن يظهر ذلك على افعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على الأقران واظهار الانكار على من يقصر فى حقه ، بتصعير خده وتقليب جبينه . قال الغزالى : « وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ، ولا فى الوجه حتى يعبس ، ولا فى الخد حتى يصعر ، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ، ولا فى الذيل حتى يضم ، وانما الورع فى القلوب (١) » .

الثالثة : أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات .

الثالث ــ التكبر بالحسب والنسب .

الرابع ــ التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجرى هذا بين النساء .

الخامس ــ التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم ، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى ملابسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم .

---

(١) ٣٥٥ ج ٣ .

السادس ـ التكبر بالقوة وشدة البطش .

السابع ـ التكبر بالاتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين .

قال الغزالى : « وبالجملة فكل ما هو نعمة وامكن أن يعتقد كمالا وان لم يكن فى نفسه كمالا امكن أن يتكبر به(٢) » .

وعلامات التكبر ـ كما ذكر الغزالى ـ تظهر فى شمائل الرجل : كصعر خده ، ونظره شزرا ، واطراقه براسه ، وفى جلوسه متكئا ، وتظهر فى مشيته ، وتبختره ، وقيامه وقعوده ، وحركاته وسكناته ، وفى سائر تقلباته فى أحواله واقواله واعماله .

وازالة الكبر ـ فيما يرى الغزالى ـ فرض عين ، وهو لا يزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له .

علاجـــه

ولعلاجه طريقتان :

الأولى ـ قلع شجرته من مغرسها فى القلب ، وذلك بمعرفة المرء نفسه بالذلة ، وربه بالعزة ، الى آخر ما قال الغزالى .

الثانية ـ دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التى يتكبر بها الانسان على غيره ، وانت لا تزال قريبا من تلك الأسباب السبعة التى توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجا خاصا ، غير انه لا يفترق كثيرا عما لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فان أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة ، وان كانت الثانية نتيجة الأولى .

الفصل السادس
آفات اللســان

وقد رأى الغزالى أن اللسان كثير العترات ، ولا بد للمرء من

---

(٢) ص ٢٥٧ ج ٣ .

ضبطه ، فبسط القول فى آفاته ، وكتب فى ذلك نحو خمسين صفحة ، بين فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز عنها .

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم قال فى تبرير ما دعا اليه من الاخلاد الى السكوت : « فان قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس والخوض فى الباطل ، والخصومة ، والفضول ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وايذاء الخلق ، وهتك العورات .

فهذه آفات كثيرة ، وهى سباقة الى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان . والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ، ويمسكه ويكف عما لا يحب ، فان ذلك من غوامض العلم » .

ثم خشى أن يرميه القارىء بالاسراف فقال : « ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك مافيه من ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر . وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران .

فلم يبق الا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام ، وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر اذ يمتزج بما فيه اثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجا يخفى دركه ، فيكون الانسان به مخاطرا (١) » .

---

(١) ص ١١٨ ج ٢ احياء .

وهذا من الغزالى اغراق فى حب السلامة . ونحن ذاكرون خلاصة هذه الآفات ، لنعرف رايه فى طبائع الأفراد .

الكلام فيما لا يعنى

أما الآفة الأولى : فهى الكلام فيما لا يعنى : وحده — كما قال الغـزالى — أن تتكلم بكل ما لو سكت عنـه لم تأثم ، ولم تستضر به فى حال او مآل ، ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما راى فيها من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع وما استحسنه من الأطعمة والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ البلاد وحوادثهم .

ولم ينتبه الغزالى لخطر هذا المثال . فان الكلام عن الأسفار والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحدث عن طبائع البـلاد وأخلاق الناس من المستحسنات . ونحن مدينون بما نعلم من عادات الأمم وأخلاقها الى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيهم فيقصون علينا ما راوا فى اسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والأطعمة والثياب ، وان عد الغزالى حديثهم ولو احترزوا تضييعا للزمان .

ومما أصاب فى عده مما لا يعنى أن ترى انسانا فى الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فان ذكر تأذى به واستحيا ، وان لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه . وكذلك سؤالك امرأ عن المعاصى ، وعن كل ما يخفيه ويستحيى منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك .

والباعث على هذه الآفة — فيما يرى — هو الحرص على معرفة مالا حاجة به اليه ، أو المباسطة بالكلام على سـبيل التودد ، او تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم ان الموت بين يديه ، وانه مسئول من كل كلمة ، وان انفاسه رأس ماله ، وان لسانه شبكة يقدر على ان يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .

يقول الغزالى : « هذا علاجه من حيث العلم ؟ وأما من حيث العمل فالعزلة ، وأن يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه(١) » (؟!) .

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهى فضول الكلام . وهو يتناول الخوض فيما لا يعنى ، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة . فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره . قال الغزالى : « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين ، فالثانية فضول وهو مذموم وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر (٢) » .

وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعنى .

الخوض فى الباطل

وأما الآفة الثالثة فهى الخوض فى الباطل . وعد الغزالى منه حكاية احوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء . وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى . ويدخل الغزالى فى هذا الباب الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم . ثم قال : « وانواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها الا بالاقتصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا (٣) » .

---

(١) ص ١٢١ ج ٣ - احياء .
(٢) ص ١٢١ أحياء ج ٣ .
(٣) ص ١٢٢ ج ٣ .

المراء والجدال

اما الآفة الرابعة فهي المراء والجدال . والمراء كما حدده الغزالي « هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه . اما في اللفظ ، واما في المعنى ، واما في قصد المتكلم » .

وترك المراء فيما يرى يكون بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدق به ان كان حقا ، وسكت عنه ان كان باطلا او كذبا . ولم يكن متعلقا بامور الدين . وليس له ان يطعن في كلام غيره باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كان يقول هذا كلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وانما أنت فيه صاحب غرض . يقول الغزالي : « وهذا الجنس ان جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل . وهو ايضا مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد . أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن » .

« واما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير ، وتعجيزه ، وتنقيصه بالقدح في كلامه ، ونسبته الى القصور والجهل فيه » .

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالي هو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس يرجعان الى السبعية والكبرياء .

واما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبعية في عبارات المتقدمين هي القوة الوجدانية المشتركة بين الانسان وبين كبار الحيوانات : فالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل ، والعفة من أكل ما يكسب الغير قوة سبعية لأنه من صفات الأسد ، اذ لا يأكل فريسته) .

الخصـومة

أما الآفة الخامسة فهى الخصـومة . وهى لجـاج فى الكلام ليستوفى به مال أو مقصود . قال الغزالى : « فان قلت : فاذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ، وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم ؟ ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج اليها فى نصرة الحجة واظهار الحق . ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ... فأما الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد اليه سبيلا » .

وقد بين الغزالى كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان فى عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات .

التقعر فى الكلام

الآفة السادسة هى التقعر فى الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيها بالتشبيهات والمقدمات ، وما جرت به عادة المتفاصحين .

والغزالى يفرق بين من يلقى خطبة ، وبين من يتكلم كلاما عاديا ؟ ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالى أن يلجأ الى المحسنات اللفظية ، فى غير افراط أو اغراب ، فان المقصود من الخطبة تحريك القلوب ، وتشويقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة اللفظ فى ذلك كله تأثير .

اما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات ، فالغزالى ينكر ان يكون فيها اى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع او غيره « بل ينبغى أن يقتصر المرء فى كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم » .

والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالى ترجع الى الباعث عليه : وهو الرياء ، وحب الظهور بالفصاحة ، والتميز بالبراعة .

الفحش

والآفة السابعة هى الفحش ، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة . وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد . وقد ذكر الغزالى من ذلك ما يجرى فى الفاظ الوقاع وما يتعلق به ، والعيوب التى يستحيا منها كالبرص والقـراع والبواسير ، ثم حض على استعمال الكناية فى مثل تلك المواطن .

والباعث على الفحش فيما يرى : اما قصد الايذاء ، واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبث واللؤم .

وقد عد الغزالى الفحش والسب والبذاء آفة واحدة ، واضاف اليها « البيان » الوارد فى حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كشفه ، أو المبالغة فى الايضاح حتى ينتهى الى حد التكلف . أو البيان فى أمور الدين ، وفى صفات الله أمام العوام ، اذ قد يثور من غاية البيان فيها شكوك ووسواس .

اللعن

اما الآفة الثامنة فهى اللعن ، لحيوان أو انسان أو جماد ، وكل ذلك مذموم .

وللغزالى فى هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول فى رجل حي من اليهود مثلا لعنه الله ، كما تقول لعن الله أبا جهل

وفرعون ، فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة « ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه اذى لمسلم ، فان كان لم يجز » ولا يجوز لعن يزيد ، لأنه لا يجوز ان يقال انه قتل الحسين ، أو امر بقتله ما لم يثبت ذلك . فضلا عن اللعنة : اذ لا تجوز نسبة مسلم الى كبيرة من غير تحقيق ، ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق » .

قال الغزالى : « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة الا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين » .

المزاح

الآفة التاسعة هى المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالى هو الافراط فيه ، أو المداومة عليه . فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول الله : فلا تقول الا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفرط فيسقط وقارك » .

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهى الاستهزاء . وحده كما قال الغزالى : « الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والايماء » .

وقد نص الغزالى على أن هذا انما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير » .

افشـاء السر

الآفة الحادية عشرة هى افشاء السر ، وهو ملموم لما فيه من الايذاء والتهاون فى حق المعارف والأصدقاء ، يقـول الغزالى : « وهو حرام اذا كان فيه اضرار ، ولؤم ان لم يكن فيه اضرار » .

وقد عد من حقوق الأخ على اخيه فى كتاب الصحبة : « أن يسكت عن افشاء سره الذى استودعه ، وله أن ينكره وان كان كاذبا ، فليس الصدق واجبا فى كل مقام ، فانه كما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وان احتاج الى الكذب ، فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه . فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لا يختلفان الا بالبدن » .

الوعد الكاذب

الآفة الثانية عشرة هى الوعد الكاذب ، وقد بين الغزالى أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعن له عذر فمنعه .

الكذب فى القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هى الكذب فى القول واليمين . وقد نص الغزالى على « ان الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعه ومصلحة فالكذب المحصل لذلك الجهـل يكون مأذونا فيه وربما كان واجبا » وقد بينا المواطن التى أباح الغزالى فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه فى الوسائل والغايات .

الغيبـة

الآفة الرابعة عشرة هى الغيبة . وحدها « ان تذكر اخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه ، أو نسبه ، أو فى

خلقه او فى فعله ، او فى قوله ، او فى دينه ، او فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته » .

وقد نص على أن التصريح ليس شرطا فى تحقيق الغيبة ، بل تكفى الاشارة ، والايماء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ، وكل ما يفهم منه المقصود .

وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

١ ـ موافقة الاقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام .

٢ ـ ارادة التصنع ، والمباهاة ، كأن يرفع المرء نفسه بتنقيص غيره .

٣ ـ اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بذكر عيوب الناس .

٤ ـ البراءة مما ينسب المرء اليه بتنقيص من يفعله .

وقد تنبه الغزالى الى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد ينكرون المنكر ، ويقعون فى صاحبه ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، مع أنهم يكفيهم ان يشخصوا المنكرات بلا تعرض للأشخاص ، وقد يغضبون لله حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يذكرون اشخاصا بالسوء ، فيحبطون ما يعملون .

والغزالى يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والاحاديث الواردة فى هذه الآفة . وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى عنه ثم ذكر المواطن التى تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضا فى الوسائل والغايات ، كما بينا رأيه فى كفارة الغيبة فى الخروج من المظالم .

النميمة

الآفة الخامسة عشرة هى النميمة . وهى كما يقول الغزالى « كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه ، او كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابه ، او بالرمز ،

او بالايماء . وسواء كان المنقول من الاعمال او من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المنقول عنه أو لم يكن(١) » .

ولم يقتصر الغزالى على تقبيح النميمة ، وعدها من آفات اللسان ، بل وضع للرجل آدابا خاصة ازاء النمام . وهى :

١ ـ ان لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة .

٢ ـ ان ينهاه عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله .

٣ ـ ان يبغضه فى الله : فانه بغيض عند الله .

٤ ـ ان لا يظن بأخيه الغائب السوء ، فان بعض الظن اثم .

٥ ـ ان لا يحمله ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل التحقق .

٦ ـ وان لا يحكى النميمة ، والا رضى لنفسه ما نهى النمام عنه .

قال الغزالى : « والسعاية هى النميمة ، الا انها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير : « نحن نرى ان قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول اجازة ، وليس من دل على شىء فأخبر به كمن قبله واجازه ، فاتقوا الساعى ، فلو كان صادقا فى قوله لكان لئيما فى صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة (٢) » .

ولا شك فى ان الغزالى يرتضى حكم مصعب فى قبول السعاية ، لانه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من اقوال السلف ما ينقضه . والسعاية والنميمة شىء واحد ، أو كأنهما شىء واحد ، فمن الواجب أن تكون آداب المرء واحدة ازاء النمامين والسعاة ، وهو ما نحسبه رأى الغزالى وان لم يصرح به .

وفى الوسائل والغايات تجد ما يجوز من النميمة فيما يرى الغزالى .

---

(١) ص ١٥٧ ج ٣ .
(٢) ص ١٥٨ .

كلام ذى اللسانين

الآفة السادسة عشرة هى كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالى نفاق « ولو دخل الرجل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقا ، فان الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى الى حد الاخوة ، اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، اذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكن واحد منهما ما هو عليه من المعاداة لصاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك اذا اثنى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغى أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعاديين فى غيبته وفى حضوره ، وبين يدى عدوه ... ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغى أن ينكر ، فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه(١) » .

المدح

الآفة السابعة عشرة هى المدح ، وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، وفى بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوبا اليه ، وقد بين الغزالى أن لهذه الرذيلة اربع آفات فى حق المادح ، واثنتين فى حق الممدوح ، أما آفاتها فى حق المادح فهى :

١ ـ انه قد يفرط فينتهى به الافراط الى الكذب .

٢ ـ وقد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون

---

(١) ص ١٦٠ ج ٣ .

مقصرا له ، ولا معتقدا لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائيا منافقا .

٣ ـ وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، ويرى الغزالى أن هذه الآفة تتطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع وزاهد ، وخير ، وما يجرى مجراه .

٤ ـ وقد يفرح الممدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز .

أما آفاتها فى حق الممدوح فهى :

١ ـ أن المدح قد يحدث فيه كبرا واعجابا وهما مهلكان .

٢ ـ وانه اذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ، ورضى عن نفسه فقل جده .

وبعد ان بين الغزالى آفات المدح ، دعا الممدوح الى ان يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، آفة الفتور ، بأن يتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسراره وما يجرى على خواطره ، لكف المادح عن مدحه ؛ وحضه كذلك على ان يظهر كراهة المدح باذلال المادح .

الغفلة

الآفة الثامنة عشرة هى الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين .

ومن الأمثلة التى ذكرها الغزالى أنه لا يصح أن تقول عبدى وامتى ، لأننا جميعا عبيد الله ، ونساؤنا جميعا اماء الله ، بل تقول غلامى وجاريتى . . . الخ .

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هى سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف ، وانها قديمة أو محدثة . يقول الغزالى :

« وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم ، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر . وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة » .

الغنـــاء

الآفة العشرون هى الغناء ، وتجد تفصيلها فى البحث عن رأيه فى الفنون .

وانه ليخيل الى المرء أن الغزالى بالغ فى آفات اللسان ، ولكن هذه المبالغة ليست الا نوعا من الاحتياط ، وهى ليست كبيرة على من يطمع فى مكارم الأخلاق .

الفصل السابع
رذيلة الرياء

انك لترحم الغزالى حين تقرأ ما كتبه عن الرياء ، فانك تتصوره رجلا كاد يجن من غلبة الجهال فى عصره . ويكفى أن نلخص آراءه فى هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرائين .

فمما يمقته الغزالى أن يظهر المسلم النحول والصفار ، ليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليالى . يقول الغزالى : « ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذى أضعف من قوته » .

ومن الرياء تشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، واطراق الراس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وابقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف التوب ، والتطويل فى الركوع والسجود .. الخ .

ولم يغفل الغزالى عن الشئون الاجتماعية وهو يتكلم فى الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن أكل الشبهات ، ليعرف بالأمانة فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، او مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم اليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها . أو تسلم اليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ... الخ .

وللغزالى فى هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب الاجتماعية، ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر ان الناس لعهده كانوا يتخذون دين الله سلما لأغراضهم الخبيثة : من الفسق والفجور ، ونهب الأموال .

واكرر ما قلته من ان الغزالى لا يغضب الا حين يحارب رذيلة يراها بعينه فكلامه فى تلك صورة لعصره ، وليس اثرا لمطالعاته فى الكتب القديمة التى تصف عيوب الناس . وفى مقدور الباحث أن يستخرج من كتاب الاحياء صورة واضحة للعلماء والزهاد فى عهد الغزالى . ولا أقول الحكام والأمراء ، لأنه تكلم عن الحكومة لعهده بضعف وفتور ، ولم يقاس السلاطين شيئا من لسانه الحديد !!

الباب التاسع

في العلوم والفنون والتربية

تمهيد

نذكر فى هذا الباب خلاصة لآراء الغزالى فى العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالايجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج الذى وضعه لتربية الأطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين ، وكيف اهمل تربية البنات .

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالى عن العلم والعمل ، وأيهما افضلُ للمريد ، فى مواطن كثيره من مؤلفاته فى الأخلاق .

وقد لاحظت أنه لم يكن موحد الرأى فى هذا البحث ، فتـارة يقدم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل الى أن نزعته الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل واحسب أيضا انه كان يدارى اهل عصره ، ويسايرهم فى كثير من الشئون . فقد أراه يهم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يتراجع . ولو جرؤ قليلا لبين لنا أن العـلم النـافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما اليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث فى طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر فى أن الله سخر لنا ما فى الأرض جميعا .

غير انه لم يكد يذكر قوله عليه السلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر » ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : اما ان يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، واما أن يكون علما سواه . وباطل أن يكون الأول لوجهين : احدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذى له العلم بالعبادة ، والا فهو عابث فاسق ، والثانى ان العلم

بالعمل لا يكون أشرف من العمل ، لان العلم بالعمل لا يراد لنفسه ، وانما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه » .

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من التفضيل . ولكنه قسمها الى قسمين : عملى ونظرى . اما العملى فقد قدم انه ليس افضل من العمل ، وأما النظرى فقد زيفه جميعه ، ولم يستبق منه الا ما يرجع « الى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث انها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها » .

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين ان واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكر فى المعبود ، وما الى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملكوت السموات والأرض الى آخر ما قال .

ونسأل الغزالى : ما رأيه اذا توقف فهم الكتب السماوية على ادراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رأيه اذا توقف فهم « عجائب النفوس الانسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رأيه اذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث ، لفهم ما قد يضطر اليه المشرعون من الرسل والأنبياء فى مختلف العصور ؟

وما رأيه اذا توقف ادراك ما فى الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالى اهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية فى الرتبة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهى أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل الا العلم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ؛ وهو فى ذاته علم شريف .

ولكنى احب أن أضع هذا السؤال : أيكون من يشغل نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى عمره فى درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تعزى الديدان التى تحدث البول الدموى ، والتى تهلك فى كل عام ما يعد بالملايين ؟ وهل يقدم محيى الدين بن عربى يوم القيامة ، على من يقضى حياته لا فى التفكر فى ملكوت الله ، بل فى غزو السل والسرطان ؟

الشك عن طريق اليقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالى فى نهاية الميزان : « ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعا . اذ الشكوك هى الموصلة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

غير أن الغزالى لم يبين لنا مصير المرء اذا بقى فى شكه ، ولم يهتد الى اليقين . وما نحسب عصر الغزالى كان يسمح له بتحرير هذه المسألة ، وان كانت غاية فى الوضوح فمتى كان المرء حرا فى

أن لايثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال ان تكون باطلة ، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول الى نتيجة معينة ، وانما يسأل عن اعتقاد ما أداه اليه الدليل .

ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى أن الغزالى نبه فى عدة مواطن من كتبه الى أنه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك فى نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المألوف . ومعنى هذا ان الشك وان كان سبيل اليقين ، الا انه لا يستعمل الا بمقدار . وهذا المنهج يبين لنا أن الغزالى يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال . فللعلماء أن يشكوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف يرى أن الاجابة على بعض الأسئلة حرام . وسنعود الى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين .

علم الفقـه

ولقد بلغ من اغراب الغزالى فى التصوف أن جعل الفقه من علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا . وأنت تعلم قيمة الدنيا عنـده !

ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التى يساس بها الناس ؟ ليكن كذلك ! اذ ما قيمة هؤلاء الناس ؟ أليس الله أخرج آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سـلالة من طين ، ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب الى الأرحام ، ومنها الى ألدنيا ثم الى القبر ، ثم الى العرض ، ثم الى الجنة أو النـار ؟ واذا كان هذا مبـدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فما قيمة الفقه ، وما هى اقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون فى خصومات او عدلنا ما احتجنا الى ان يفصلوا فيها ، ولمـا كان لهم قيمة فى هذا الوجود ؟

هذا هو منطق الغزالى !

والحمد لله الذى رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومن عليهم بالقوانين الاجنبية التى يقدم اليها اصحابها آيات التقديس ، عند الشروق وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له فى نظر الغزالى ، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء الناس المناكيد الذين اضطرونا بشرهم الى الفقه والفقهاء ، والذين لو عدلوا لما احتجنا الى قاض ولا الى فقيه !

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبى كان فقيها ، وكانت شريعته فقها ، وهل الفقه شيء آخر غير قواعد الفصل فى الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه والتشريع ؟

اتركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ! اتركوا الدنيا للمسلمين فان الله لم يبعث محمدا الا ليمكن للمؤمنين فى الأرض ، ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين .

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالى وقف فى جوهره على علماء المكاشفة .

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال ان سوء الخاتمة معد لمن ليس له منه نصيب !!

ويقال ان أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليمه لأهله ! ويقال كذلك ان اقل عقوبة من ينكره الا يذوق منه شيئا !

وما هى غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات التامات !

وأنا لا ادرى سبب هذه الشهوة الغريبة التى تحمل علماء الذين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا اعلم كيف عميت قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنـــه المؤمنون !

يطمع الغزالى فى معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين الجهل ، ونفس الضلال ! ويطمع كذلك فى معرفة صفاته التامات ، وهو الذى بلغ به الادب مع الاشاعرة والمعتزلة الى الاختـــلاف فى صفات الله ، وفى كلامه ، وفى افعاله ، وفى رؤيته بالأبصار يوم القيامة الى غير ذلك من المباحث التى لا يقدم عليها غير عمى القلوب !

والظاهر أن الغزالى ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوما واحدا كيف تتصاول العقول ؛ فان البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وانما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا فى المراد من أن الله سخر لهم ما فى الأرض جميعا ، فانه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده ، وترى عينه ، ليغيب فى مجاهل من الظنون ، يسميها سفها علم التوحيد .

وما اسفت لشىء اسفى لانحصار الأفكار الاسلامية « فى معرفة معنى النبوة والنبى ومعنى الوحى ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى اليهم ، والمعـرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله والنظر الى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى

حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء » .

فان هذه فى الأصل أكثرها رموز ظنها المسلمون حقائق ، فوضعوا لها ضروبا من التفسير والتأويل .

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة مالا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود ، وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر والنشر ، ولا يجد كتابا واحدا فى تحديد المراد من الخلافة الاسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب .

والغزالى من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية ، فقد وضع الكتب المطولة فى كيفية العزلة ، ولما اراد أن ينقد الشئون الاجتماعية وضع كتابه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، فكان آية فى السخف والاضطراب .

والى من نقاضى هؤلاء العلماء ؟

نقاضيهم الى القرآن : ففيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهل الاخلاق شىء آخر غير حرب الذلة والقلة : فى الأفراد ، والجماعات ، والشعوب ؟

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين ، فان أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع . والا فاين غرر المؤلفات فى الأمور السياسية والاجتماعية ؟ وأين البصر النافذ الى أعماق الحياة الدولية ؟ بل وأين الخبرة بالسريرة الانسانية ، التى حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد ، والعباد ، من كل راض بالفقر ، قانع بالسؤال ؟

الفصل الثاني

الفنـــون

أباح الغزالى ان يحب المرء لجماله ، فكان ذلك منـــه اعترافا بالحاسة الفنية ، التى يدرك بها الأديب ، والفنان ، والفيلسوف ، ما فى العالم من دقائق الجمال .

وتجد فى حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالى ضرب المثل بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، والى المـــاء الجارى والخضرة . ومعنى هـــذا أن الانسان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب هذه الاشياء بلا نية سيئة ، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خبيث .

وشاهدنا فى هذه الفكرة ، هو ان الغزالى يؤمن بأن للروح شيئا من السلطان ، وله بعض الحقوق . فانه متى جاز ان يحب الرجل لجماله ، والجمال فى الرجال كثير ، فقد أصبح للروح الحق فى ان يتمتع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف . وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالى بضرورة وجود الفنون الجميلة لتتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق ، لتجد الأجسام ما تحتاجه من الغذاء .

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالى حين تكلم عن التشريح: فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء الى أن النفس تموت ؛ فاننا سألناه : هل يقضى ذلك بتحـــــريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند الغزالى جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ، ولكننا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر الى الفسوق . فهل يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؟ وليس للغزالى أيضـــا على هـــذا السؤال جواب !

وانما قدمنا هذه الكلمة امام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارىء انه لم يذكر اصلا من أصول الأخلاق يبرر رأيه فى الفنون فقد أتى عليها جميعا بالنقد والتجريح ، وان لم ينكر « أن لله سرا فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح » واحسب أنه لو تروى قليلا لعرف أن لله سرا فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفتون .

الشـــعر

رأى الغزالى فى الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود حميد ، وان قبح فى بعض الأحوال .

وقد رأى الغزالى نفسه امام أمر واقع : وهو ان الشعر انشد بين يدى رسول الله ، ولكنه أعتذر عن هذا بأن المبالغات التى وردت فى ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وانما هى من صنعة الشعر . فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التى وضعها الشعراء .

ولا ادل على هوان الشعر فى نظر الغزالى من قوله : « وأما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، الا ان التجـرد له مذموم » ص ١٣١ ج ٣ .

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذى يريد أن يمثل عصره ، وقطره ، فى صحيفة التاريخ . ومتى كان من المذموم أن يتجرد المرء للشعر ، فمعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد . وان جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ما حسن منه ، لأنه ككل كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ! !

ولا يفوتنا ان نلفت النظر الى أن الأحاديث التى رواها الغزالى فى ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ما روى الغـــزالى نفســه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليـــه أن يراعى تلك الظروف .

الموسيقى

تكلم الغزالى عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه فى هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الأصوات الموزونة باعتبار مخارجها الى ثلاثة : ما يخرج من جماد : كصوت المزامير ، والأوتار ، وضرب القضيب ، والطبل وغيره . وما يخرج من حنجرة حيوان ، وذلك الحيوان اما انسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ، وذوات السجع من الطيور . ثم يحكم بأن سماع هذه الأصوات يستحيل ان يحرم لكونها طيبة أو موزونة ، اذ لا ذاهب الى تحريم صوت العندليب ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمى كالذى يخرج من حلقه ، أو من القضيب والطبل والدف .

الى هنا لاتجد شيئا يغض من الموسيقى باعتبار انها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك : «ولا يستثنى من هذا الا الملاهى والأوتار والمزامر التى ورد الشرع بالمنع منها ، لا للذتها ، اذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الانســان ، وانما حـرمت لعلل ثلاث : احداها أنها تدعو الى شرب الخمر ، فان اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية : انها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الأنس بالشرب ، فهى سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق اذا قوى فهو سبب الاقدام . والثالثة : الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحـــريم المزمار العراقى ، والأوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط (١) وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمـر ، فأما ما عدا ذلك فهـو على الاباحة ، قياسا على أصوات الطيور .

---

(١) البربط . كجعفر هو العود معرب بربط اى صدر الاوز لانه يشبهه .

وما نريد أن نناقش هذا الرأى ، ولا أن نبحث فى الأساس الذى وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالة على دقته فى وقاية الجبهة الخلقية ، وحرصه على ان يظل المرء بعيدا عن مثار الشهوات .

ونضيف الى ما سلف من رأيه فى الموسيقى ، أنه عد بيع الملاهى من المنكرات التى يجب كسرها ، حين تكلم عن منكرات الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان ، وعد اعطاء المال للمطرب اسرافا يجب على المحتسب انكاره ، ولم يعين مهنة المطرب ، فصلح لأن يطلق على المغنى والموسيقار . ونص فى ص٣٢٧ ج٣ احياء على أن أصوات المزامير والأوتار اذا ارتفعت فى دار بحيث جاوزت الحيطان ، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاهى ، ونص كذلك على أن للمرء الحق فى أن يكسر العود اذا رأى شخصا يحمله .

ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا نعرف أنه لا يقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل ، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تفل قيمة فى نظر الفنان عن الحسنات ، اذ كان جمال الفنون يرجع أكثره الى ما تحدث فى عشاقها من الجرأة على المألوف ، وهو ما يخافه الغزالى ويتوقاه .

وهذا الذى يوجب كسر العود ؟ لا يبيح فيما نظن أن تبنى دار للموسيقى ، وأن يختار للتعلم فيها حسان الأصوات ، وصباح الوجوه !

ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير الا لأنها تذكر بمجالس الخمر ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية البديعة . فهى عنده « أم الخبائث » ، واصل المنكرات .

الغنـــاء

لم يفرد الغزالى بابا للموسيقى ، ولا للغناء ، وانما نأخذ رأيه

فى هذين الفنين مما جاء فى كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب الاحياء .

واول ما يلفت النظر الى رايه فى الغناء ، موافقته للشافعى فى ان الرجل الذى يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لأن الغناء فيما يرون من اللهو المكروه ، الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوبا الى السفاهة ، وسقوط المروءة !

ومتى كان الغزالى يرى ان محترف الغناء مردود الشهادة ، فانه لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بفن يهبط بصاحبه الى الحضيض ، ويسقط عدالته بين الناس .

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فانا نذكر بجانبها ما يجب على الأفراد والحكومات من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضربا من اللهو المكروه ، وانما هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف الغذاء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالى . بل المغرم بالسماع والمفرط فيه هو أيضا سفيه ، ترد شهادته ، لأن المواظبة على اللهو جناية !

والفن — كما تعلم — لا حياة له الا بوجود الهواة ، فلن يحسن الغناء الا اذا وجد هواة الانشاد والسماع ، ومتى كان الاكثار من الانشاد ، والافراط فى السماع ، جناية ، وكان من واجب كل فرد ان يحارب هذه الجناية ما استطاع ، فقد أصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالى من اباحته اذا لم يوجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعا أن تقول انه مباح .

غناء المراة والأمرد الجميل

ولا يجيز الغزالى أن يسمع الغناء من امراة لا تحل النظر اليها ، وتخشى الفتنة من سماعها ، وفى معناها الصبى الأمرد الذي تخشى فتنته .

وقد توقع الغزالى أن يسأل سائل : هل ذلك حرام فى كل حال ، حسما للباب ، أو لا يحرم الا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت ؟ وأجاب بأن هذه المسألة يتجاذبها أصلان أحدهما أن الخلوة بالأجنبية ، والنظر الى وجهها حرام ، سواء خيفت الفتنة أو لم تخف ، لأنها مظنة الفتنة على الجملة . والثانى أن النظر الى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين ، فان قسناه على النظر اليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، اذ الشهوة تدعو الى النظر فى أول هيجانها ، ولا تدعو الى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع ، بل هو أشد ، وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ، ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر الى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ، فينبغى أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه (١) .

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالى من أن يكون فى الغناء تشبيب بوصف الخدود ، والأصداغ ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر أوصاف النساء ، بشرط أن لا يكون فى امرأة معينة ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة الا أن تكون زوجته أو جاريته ، فان نزله على أجنبية فهو من العصاة . ويحرم على من كان فى غرة الشباب أن يستمع، اذا كانت الشهوة غالبة عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (٢) .

---

(١) انظر ص ٢٨٠ ج ٢ احياء .

ما يباح من الغناء

واليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالى :

١ ـ غناء الحجيج ، اذ يدورون فى البلاد بالطبل والشاهين والغناء .

٢ ـ ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو .

٣ ـ الزجريات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء . وهذا مباح فى كل قتال مباح ، ومندوب فى كل قتال مندوب، ومحظور فى قتال المسلمين وأهل الذمة .

٤ ـ اصوات النياحة فى البكاء على الخطايا والذنوب .

٥ ـ السماع فى أوقات السرور المباح ، كالغناء فى أيام العيد ، وفى العرس ، وفى وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن ، وعند قدوم الغائب .

٦ ـ سماع العشاق ، تحريكا للشوق ، وتهييجا للعشق ، وتسليه للنفس . وهذا حلال ان كان المشتاق اليه ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته ، أو سريته ، فيصغى الى غنائها لتضاعف لذته ، وكذلك ان غضبت منه جاريته، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب ، فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال ، فان باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعد ، اذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء .

٧ ـ سماع من احب الله وعشقه واشتاق الى لقائه ، فلا ينظر الى شىء الا رآه فيه . وقد أطال الغزالى فى هذه النقطة ، ثم قرر ان اطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة، لأن كل محبوب سواه يتصور له نظير ، اما فى الوجود واما

فى الامكان ، أما جمال الله فلا ثانى له ، لا فى الامكان ، ولا فى الوجود (١) .

آداب السماع

لا يعتد الغزالى بسماع من يطرب للغنـاء بمجرد الطبع ؟ ولاحظ له فى السماع الا استلذاذ الالحان والنعمات ، اذا كان هذا الذوق لا يتطلب لوجود غير الحيـاة ، فلكل حيـوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة . ويسخر الغزالى ممن ينزلون المسموع على حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أخس من أن تفرد بالبيان .

ويعتد فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملته لله ، أو من عزب عن فهم ، ما سوى الله حتى عزب عن نفسه واحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى عين الشهود ، الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام (!؟) .

واذا سمع احد هؤلاء « الموفقين » ذكر عتاب أو خطاب ، أو قبول او رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب او بعد ، أو تلهف على فائت ، أو تعطش الى منتظر ، أو شوق الى ورد ، أو طمع أو يأس ، أو وحشة أو انس أو وفاء بالوعد ، أو نقض للعهد ، أو خوف من فراق ، أو فرح بوصال ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ، ومدافعة الرقيب ، الى غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد أن يوافق بعضها حالا فى نفسه ، فيورى زناد قلبه .

ولهؤلاء وضع الغزالى الآداب الآتية :

١ ـ مراعاة الزمان ، والمكان ، والاخوان : فليس له أن يسمع وقت شغل القلب ولا فى شارع مطروق ، أو موضع كريه ، أو مع قوم من أهل الدنيا يحتاج الى مراقبتهم ، ومراعاتهم ،

٢ ـ أن يكون مصغيا الى ما يقول القـائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفـات الى الجوانب ، منحرزا عن النظر الى وجوه المستمعين ، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشـتغلا بنفسه ومراعاة قلبه .

٣ ـ أن لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط نفسه . ولكن ان رقص أو تبـاكى بغير قصد الرياء فهو مباح .

٤ ـ موافقة القيام فى القيام ، اذ قام واحد منهم فى وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير وجد ، وقامت له الجماعة ، فلا بد من الموافقة ، رعاية لأدب الصحبة .

وهناك أدب خامس وضعه الغزالى خاصا بالشيخ المرشد ، وهو ملاحظة المريدين ، فينبغى أن لا يسمع فى حضورهم ، اذا كان فيهم من لم يدرك من الطريق الا الأعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع ، أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات الى الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ، وأمنت غائلته ، وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما يجوز عليه وما يستحيل .

الرقص

وقـد رأينـا الغزالى يبيح الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو ما يجرى فى مجالس الغنـاء الذى قصد به الحث على العمـل للآخرة ، وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل فى مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريته . وعلى كل حال فلنسجل هنـا أن الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالى أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات . وما نريد أن نفصـل أثر هـذا التحرج فى حيـاة

الأمم ، وانما ننبه فقط على أن الغزالى يضع حول الشهوة أسوارا من حديد ، ولا تخرج الأخلاق عنده الا رجالا مملوئين بالحيطة ، قد بغضت اليهم بسمات الحياة ، وقلما ينجح هؤلاء فى ميدان الحياة لأن التنسك باب الخمود .

النقش والتصوير

اراد الغزالى ان يذم (الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبر ، فلم يزد على أن قال : « وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما (١) » .

اذن الصناعات دون العلوم ، وانما كان الطب والحساب الخ من الصناعات ، لأن العلم فيما يرى الغزالى هو ما يوصل الى الآخرة ، وما يخص الدنيا فهو صناعة . وقد نص على أن من الصناعات ما هى مهمة . ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها الى طلب التنعم والتزين فى الدنيا من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة ، ليكون بقيامه بها كافيا عن المسلمين مهما فى الدين . ثم قال :

« وليجتنب صناعة النقش والصياغة ، وتشييد البنيان بالجص ، وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين (٢) » .

وقد عد بيع أشكال الحيوانات المصورة فى أيام العيد لأجل الاطفال منكرا تجب ازالته ، والصور التى تكون على باب الحمام او داخل الحمام تجب ازالتها على كل من يدخله ان قدر ، فان كان الموضع مرتفعا لا تصل اليه يده فلا يجوز له الدخول الا

---

(١) انظر ص ٣٥٢ ج ٣ ع
(٢) ٧٩ ج ٢ .

لضرورة ، وليعدل الى حمام آخر ، فان مشـــاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها (١) » .

« ولا يمنع من صور الاشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان ... وأما الصور التى على النمارق ، والزرابى المفروشة، فليس منكرا . وكذا على الأطباق والقصاع ، لا الأوانى المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه (٤) » .

على ان كلمة الغزالى لم تكن واحـــدة فيما يخص البنـاء والزخرفة ، فقد رايت كيف بين أن تشـــييد البنيـان ، وكل ما تزخرف به الدنيا كرهه ذوو الدين ، ومع هـــذا قال بعد : « وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام ، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد تزين وتنقش ابوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه الا مجـرد الزينة فكذا الدور » .

واذا كان التزين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون صناعته غير مهمة (٢) .

خلاصة هـذا البحث

نرى مما سلف ان النقش مكروه وانه لا يجوز تصوير الحيوان، ولا حرج فى اســتعمال النمارق والزرابى المصـورة ، بصـورة

---

(١) وضع فضيلة الاســتاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتى : لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذى شوه وجه ابى الهول وغيره من الصور وجعل أكبر همه ذلك قد سرى اليه هذا الفكر من احياء الغـــزالى وقد رايت فى بعلبك صورا فى الرواق المحمول على الاعمدة وهى مشوهة ، وقيل لنا انها شـوهت من ايام دخول العرب ذلك البلد . وشاهدت كذلك صورة البغل وهو معبـود اهل ذلك البلد قديما مشوهة ، وهو وجه انسان بصورة اسد .

(٢) كأنى بالرجل ينظر الى الشيء نظرة علمية فيقضى بعدم الضرر فيه اذا كان على حد الاعتدال وينظر اليه نظرة صوفية فيكرهه وهذا منشأ الاضطراب الظاهرى لان الكلام فى موضوعين .

عبد الوهاب النجار

الحيوانات طبعا ، لأنها موضوع الاستثناء . ويظهر انها استثنيت لأن الصور فيها ستصير ممتهنة بالاستعمال ، وعلى الاخص الاطباق والقصاع . وهو يتبع فى هذا الراى جمهور الفقهاء ، اذ يرون التصوير داعيا الى الوثنية . وقد نهوا عما يذكر بعبادة الأوثان .

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب ان ننبه اجمالا على أن الغزالى لم يعن بتربية الأذواق وهذه الآراء التى قدمناها له فى الفنون الجميلة تدل على اهماله هذا الجانب من بناء الاخلاق .

ومما يلاحظ انه يغشى بعض النظرات الدقيقة فى كتبه بأخبار وأقاصيص تحمل القارىء حملا على ازدراء الزهادة ، والاخلاد الى الخمول . واكرر ما قلته غير مرة من ان فى هذا الشطط شيئا من الحق ، وهو الحرص البالغ على السلامة . والنفرة المطلقة من مواطن الشبهات . ولهذا القصد محاسن . وفيه كذلك كثير من العيوب .

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسميها الغزالى رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبى فى التعابير القديمه تقابل كلمة طفل فى التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صبية تقابل كلمة طفلة او فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية حسناء كما نقول فتاة حسناء .

وقد سبقت كلمتنا فى وراثة الاخلاق عن فطرة الاطفال ، فلا نعود اليها الآن ، وانما نذكر المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، وهو تفصيل ما اجملناه فى واجبات الآباء .

فيجب على الوالد فيما يرى :

١ - أن يؤدب ابنه ، ويهذبه ، ويعلمه محاسن الاخلاق ؛ ويحفظه من قرناء السوء .

٢ - وأن لا يحبب آلية الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لئلا يتعود التنعم : فيعسر تقويمه بعد ذلك .

٣ - واذا رأى فيه مخائل التمييز ، وبوادر الحياء ، فليعلم أن عقله مشرق ، وان تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور ؛ وأحسن ما تنمى به أن تستعان فى تأديبه وتهذيبه .

٤ - وليعلم أن اول ما يغلب على الطفل شره الطعام ، فينبغى أن يؤدب فى ذلك ، وأن يعود احذ الطعام بيمينه ، والبدء باسم الله ، والأخذ مما يليه ، وعدم السبق فى الطعام ، وعدم تحديق النظر اليه ، والى من يأكل معه ، والتمهل فى الأكل واجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللقم ، والحذر من تلطخ اليد والثوب ، وتعود الخبز القفار فى بعض الأحيان حتى لا يرى الادم حتما (١) .

٥ - وينبغى أن يقبح عنده كثرة الأكل ، بذم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الأكل ، وان يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بأى طعام كان .

٦ - وان يحبب اليه الأبيض من الثياب ، دون الملون ، وأن يفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وانما هو عادة النساء والمخنثين ، وأن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عودوا التنعم ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب فى ذلك .

---

(١) الخبز القفار هو الذى لا ادم فيه .

٧ - واذا ظهر من الطفل فعل محمود فينبغى أن يجازى عليه بما يفرح به ، وأن يمدح أمام الناس ، فان اساء مرة فيجمل بالوالد أن يتغافل عنه ، ولا يكاشفه ، ولا سيما اذا تستر الطفل واجتهد فى الاخفاء ، فان مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالاة . فان عاد فليعاتب سرا وليحذر عواقب الافتضاح ، وليكن العتب قليلا لئلا يهون على الطفل وقع الملام ، وسماع التأنيب ، وركوب القبيح .

٨ - وينبغى أن يمنع من النوم نهارا ؛ فان ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ؛ ولكن يمنع الفراش الوثير ؛ لتصلب اعضاؤه ويعود خشونة الفراش .

٩ - ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفى الا ما يعتقد انه قبيح .

١٠ - وليعود المشى فى بعض النهار ، لتحبب اليه الحركة والرياضة .

١١ - وليمنع من كشف اطرافه .

١٢ - وينبغى أن يمنع من الافتخار على اقرانه بشىء مما يملكه والده ، أو بشىء من مطاعمه وملابسه ؛ أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع ، وطيب الحديث .

١٣ - ويجب ان يعلم ان الرفعة فى الاعطاء لا فى الأخذ وأن الأخذ لؤم ، وخسة ، ودناءة ، ان كان غنيا ؛ وذلة ، ومهانة ، ان كان فقيرا : فلا يصح أن يأخذ شيئا من الأطفال .

١٤ - وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر سواه ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يسند راسه بساعده ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام .

١٥ - ويجب أن يمنع القسم ، صادقا كان أو كاذبا ، لئلا يعتاد ذلك .

١٦ - وليعود أن لا يتكلم الا مجيبا ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع اذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويفسح له المكان .

١٧ - ويجب أن يمنع من لغو الكلام ، ومن اللعن ، والسب .

١٨ - وليعود الصبر اذا ضربه المعلم ، فلا يكثر الصراخ ، ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وان كثرة الصراخ دأب المماليك والنساء .

١٩ - وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به : فان منع الصبى من اللعب يميت قلبه ، ويخمد ذكاءه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتاب .

٢٠ - وينبغى أن يعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى .

٢١ - واذا بلغ سن التمييز ، فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويعلم كل ما يحتاج اليه من أمور الشرع .

٢٢ - وليخوف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل ما يغلب على الأطفال .

هذه خلاصة ما وضع الغزالى فى التربية . وما انكر أن فيها شيئا من التكرار وارى انه فى مثل هذه المواطن جميل .

وانما الاحظ أنه لا معنى لان تحبب الى الطفل الثياب البيض

بنوع خاص . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة اذ ذاك (١) .
والاحظ كذلك انه لا يصح أن يعلم الصبى ان هناك فئة مخنثة تميل الى الملون من الثياب ، فقد يحسن ان لا تطرق اذان الصبى بمثل هذا الهجر ، بل يجب ان لا يعرف ان الطفل قد يتخلق بأخلاق النساء . ولا أفهم معنى لان يدعى الطفل الى عدم ارخاء يديه ، بل يضمهما الى صدره حين يمشى ! ويضحكنى أن ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم ، وكان أولى أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء ، التى لا تجمل بالمعلمين (٢) .

ومن ادق ما تنبه له الغزالى تلميحه الى أن يعلم الطفل اسرار البلوغ حين يصل اليه .

والغزالى يسمى المدرسة بالمكتب والكتاب ، وليس له فى هذا الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم فى عصره من المدارس الأوليه والابتدائية . ويتلخص هذا البرنامج (فى تعلم القرآن ، واحاديث الاخبار ، وحكايات الابرار) ولم تخطر له الرياضة ببال . ولم يتعرض للغه الأدب ، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يحفظ من الاشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون أن ذلك من الطرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس فى نفوس الصبيان بذور الفساد » .

والغزالى يعد الطفل فى الواقع لان يكون جنديا فى الحياة اذ يحرم عليه كل مظاهر اللين . وان كان لم يغفل عن غايتهالاخلاقية

---

(١) يرى الاستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية الى النظافة لان الثوب الابيض يعلن عن نفسه حين يحتاج الى التطهير .

(٢) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التى كانت بيده ما يأتى : ان أطفال أهل السودان فيهم هذه العادة على أتمها فانهم يعودون عدم البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الالم . ومن فعل ذلك عير . بل كثيرا ما تجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضعها على ساعده ويذهب الى أمه ليريها صبره على بقاء النار تأكل فى جسمه دون اظهار تألم قائلا : ابشرى يا أمى أنا أخو البنات .

حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظره فى كل ساعة ، وان العاقل من تزود من دنياه لأخراه . وأرى هذه الوصيه خطره ، اذ تضعف العزم فى نفوس الاحياء ، ولا نترك للاسلام نفسه جيشا يحفظ به ثغر ، أو يفتح به قطر ، وما كان الاسلام الا دين الغزاة الفاتحين .

تربية البنات

لم يتكلم الغزالى عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهبهن نصيبا من عنايته . ولكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقد كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون .

وسنرى حين نتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل أن يعلم زوجه ، فان لم يعرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، ولكنك سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامرأته لا يزيد عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام . ومعرفة الفرائض هذه لا تفيد المرأة شيئا فى الحياة المنزلية ، وهى العبء الملقى على عوائق النساء .

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، ورأيت ما خطه لبرنامج التدريس فى المكاتب الصغيره ، والان نقفك على رأيه فى تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الأمد القصير ، الذى أعد للأطفال .

والغزالى كان أستاذا فى المدرسة النظامية ، وكان يختلف الى دروسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ ، فمن البعيد أن لا تكون هذه الحركة ألهمته البحث

فى التعليم من حيث أنه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم !

ولقد تكلم الغزالى عن التعليم ، واطال فى كتاب الاحيـــاء ، وتكلم عنه فى الاملاء على ما اشكل من الاحياء ، وذكر انه (افضل من سائر الحرف والصناعات) وبين وجه هذه الافضلية بالتفضيل .

وكل ما تقيد به هذه الحرفة فيما يرى انه يجب أن يقصد بها وجه الله ، ويقول فى ذلك : (وانما المعلم هو المفيـــد للحياة الاخروية الدائمة ، اعنى معلم علوم الآخرة ، او علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيـا فهو هلاك واهلاك نعوذ بالله منه (١) .

وعلوم الدنيا هى فى رأيه ما يشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليوم الآخر . فالذى يعلم علوم الدنيا هذه هو بلا شك محترف . ويكفى أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين .

أضف الى هذا أن الغزالى ــ لورعه ــ يشبه العلم بالمال ، فكما ان لصاحب المال حال استفادة ، وحال ادخار ، وحال انفاق على نفسه ، وحـــال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير ، وهو أشرف الاحوال .

والتبصير هو التعليم . والغزالى لا ينكر ان يكون المرء معلما، فقد كان من المعلمين ، وانما يطالب المعلم بتعليم علوم الآخرة . أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وسترى فيما يذكر من آداب

(١) ص ٦٠ ج ١ .

المعلم عدم أخذ الاجر ، ولكن هذا لا يقدح فى نظره الى التعليم كمهنة : فانه يكفينا أن يدرك أن التعليم صناعة ، تحتمل الاجادة ، كما تحتمل القصور ، وانه يجب على المعلم كيت وكيت ، ليحسن أداء مهمته ، على وجه نافع مقبول .

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

١ – أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه . ويقول الغزالى فى توابع هذه البنوة : وكما ان حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذه الرجل الواحد ، التحاب والتواد .

٢ – أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب أجرا على افادة العلم ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا .

٣ – أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من العلم الجلى .

٤ – أن يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق ، بطريق التلميح والرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الاصرار .

٥ – أن لا يقبح فى نفس المتعلم التلوم التى وراء علمه : فليس لمعلم اللغة أن يقبح فى نفس المتعلم علم الفقه مثلا ، بل ينبغى ان يوسع عليه طريق التعليم فى غيره . وان كان متكفلا بعدة علوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة .

٦ ـ أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، ولا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله .

٧ ـ أن يلقى للمتعلم القاصر الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلى تدقيقا يدخره عنه .

٨ ـ أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قوله فعله . وهذا الأدب الاخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس اليه وأولاهم به ، اذ كانوا مرشدين . ومن حسن السياسة على الأقل أن يعمل المرشد بما يقول .

٩ ـ أن يجمل نفسه كى يعظم فى نفوس طلبته فلا يستصغروه ، ولم يذكر الغزالى هذا فى آداب المعلم . ولكن ذكره استطرادا فى باب النظافة حيث قال . « كان رسول الله مأمورا بالدعوى ، وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم . ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره عيونهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق الى الله : وهو أن يرعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه » .

١٠ ـ أن ينظر فى نية المتعلم : فان رآها حسنة علمه ، وان رآها سيئة اعرض عنه . فلا يجوز فيما يرى الغزالى أن نعلم من نرى فى أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبسه ، أو مسكنه ، ما يدل على فساد نيته ، وسوء قصده . ولا يكفى فيما يرى الغزالى أن يقول المعلم : انما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، ان شاء أحسن وان شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفا لقاطع الطريق ، ثم يقول : انما أريد السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فان استعمل السيف فى الأذى فهو وحده المسئول .

وربما كان يحسن بالغزالي أن ينصح المعلم ببذل الجهد في غزو الغرائز السيئة التي يراها في تلميذه ، فاما الضن عليه بالعلم فهو فيما أرى هروب من الواجب ، وعمل سلبي لا يغني ولا يفيد .

الفصـــل الخامس
آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتي من الواجبات :

١ ـ ان يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف .

٢ ـ أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فانه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق .

٣ ـ أن يذعن لنصيحة المعـــلم اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق .

٤ ـ أن يحترز في مبدأ أمره عن الاصغاء الى اختلاف الناس فان ذلك يحير ذهنه ويفتر رايه ، بل عليه أن يتقن أولا طـريقة استاذه ، ثم يصغي بعد ذلك الى الشبه والمذاهب .

٥ ـ أن لا يدع فنا من الفنون المحمودة الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالاهم واستوفاه ، وتطرف من البقية .

٦ ـ أن لا يخوض في فن من الفنون دفعة ، بل يراعي الترتيب .

٧ ـ أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض . وهــذه الطريقة فيما أرى انما تصلح في الفنون التي كان يعرفهـــا الغزالي اذ ذاك ، فمن الواضح أن الفقه مثلا طريق للاصول ؟ ولكن هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب ، أو أن النحو طريق الجغرافيا ، ووصف الشعوب ؟

٨ ـ ان يعرف أن شرف العلم انما يرجع الى شرف الثمرة أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالى أشرف من علم الطب ، لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية ، وثمرة الثانى السعادة الدنيوية والآخرة خير من الاولى . وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة أدلته . وعلم الطب أشرف من علم الحساب لأن الثمرة أولى من قوة الدليل .

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالى الى ان للحساب ثمرة لا تقل شأنا عن وثاقة دليله ، ولكن عذره أنه عاش فى عصر قد غاب عن انسانه أنه خلق لتعمير الوجود .

الباب العاشر

في الحقوق والواجبات

تمهيد

الحق هو ما لك ، والواجب هو ما عليك . فتقول : من حقى أن أتعلم ، ومن واجبى أن أعمل بما أعلم .

ولكن الغزالى يضع كلمة حق موضع كلمة واجب . وربما استغنى عنهما جميعا بكلمة أدب .

وقد فصل الغزالى حقوق المرء نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبين آداب التاجر ، والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب ما للمرء ، وما عليه .

ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره فى الحقوق والواجبات ليعرف القارىء اتجاه الفكر الاسلامى فى ذلك الحين .

— ١٠ —

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالى أن يجتهد فى أن لا يراه مولاه حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك الا بتوزيع اوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه الى مسائه .

ويحسن فيما يرى الغزالى أن يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر ، وأن يكون أول ما يجرى على لسانه ذكر الله ، وان لا يترك السواك فانه مطهرة للفم ، ومرضاه للرب ، ومسخطه للشيطان .

ولا يفوتنا أن نقرر أن عناية الغزالى بالحث على ما تدعو اليه الشريعة الاسلامية من الوضوء والغسل وما اليهما من أنواع الطهارة ، انما هو دعوة صريحة الى الحياة . فان الاسلام بعرضه الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عند الاحتلام والوقاع ، انما يرفع عن الناس آصار البطالة والخمول .

ولا يعلم الا الله ما كانت تصل اليه حالة الشرق لو لم ينتشر فيه الاسلام ، فانه يعوض على أهله ما فات أكثرهم من سلامة الذوق ، اذ لا يعرفون للنظافه قيمة ، ولا يقيمون للطهارة وزنا ، حتى لنجد من العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة الوضوء ، لان الطهارة فى نظرهم عبادة آلية ، لا تتعلق بها الأغراض، وسبحان من وهب العقول !!

غير اننا لا نوافق الغزالى فيما ذكر من آداب النوم ، اذ يحض المرء على ان ينام على يمينه كما يضطجع الميت فى لحده ، وان يتذكر ان النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ولعل الله يقبض روحه فى ليلته ، وان ينام على طهارة ، وان تكون وصيته مكتوبة تحت رأسه .. الخ .

وما كنت لأوافق الغزالى على ذلك ، لأنه يجب اقصاء فكرة الموت عن الاحياء فان التفكير فى الموت مدعاة الى الزهادة والجمود وهو كذلك نقص فى العزائم ، وخمود فى القرائح .

وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ، فلماذا لا نزين الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير فى رفعة الأقدار ، وسمو النفوس ؟

وقد فصل الغزالى آداب المرء نحو نفسه فى أكثر كتبه فى الاخلاق . ولا عيب عليه غير الافراط فى تحقير الدنيا ، وهو عيب فظيع ، فان الدنيا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن يرون الموت من جملة الأرزاق !

وهل كان الله عابثا يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التى رميتم عشاقها بالاثم والفسوق ؟

— ٢ —

واجب المرء نحو اخوانه فى الدين

وضع الغزالى عده آداب للرجل مع أخيه فى الدين ، بعضها خاص بكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن وجزء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى واسداء المعروف .

ويخطر بالبال هذا السؤال : ألا يرى الغزالى وجودا لغير المسلم ؟ وإلا فما رأيه فى معاملة من ليسوا بمسلمين ؟

وفى جواب هذا السؤال نذكر ما جاء فى احدى فتاويه(١) من أن الذمى كالمسلم فيما يرجع الى الايذاء . لأن الشرع عصم دمهم وأموالهم . فيفهم من هذا ان الذمى والمسلم يعاملان معاملة تكاد تكون واحدة ، وان لم ينص على ذلك فى الاحياء .

---

(١) أنظر ص ١٥ ج ١ من شرح الزبيدى .

والى القارىء خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

١ - ان لا يؤذى احدا منهم بفعل أو قول .

٢ - ان يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه .

٣ - ان لا يزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة ايام ، مهما غضب عليه .

٤ - أن يحسن الى كل من قدر على الاحسان اليه منهم ، بلا تمييز .

٥ - ان لا يدخل على أحد منهم الا باذنه ، بل يستأذن ثلاثا فان لم يؤذن له انصرف .

٦ - أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرىء بحسب طريقته ، فانه ان اراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمى بالفقه ، والعيى بالبيان ، آذى وتأذى .

٧ - أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان .

٨ - أن يكون مع الكافة مستبشرا طلق الوجه رقيقا .

٩ - ان لا يعد مسلما بوعد الا ويفى به .

١٠ - أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم الا كما يحب أن يعاملوه .

١١ - أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته

١٢ - ان يصلح ذات البين مهما وجد الى ذلك سبيلا .

١٣ - ان يستر عورات المسلمين كلهم . وقد استشهد الغزالى بهذا الحديث البديع : (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ! لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته) .

١٤ - أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين الى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر .

١٥ ـ أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن ظلم غيره ، مهما قدر . ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياما بأخوة الاسلام .

١٦ ـ أن يتقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة .

١٧ ـ أن يجامل أخاه ويواسيه اذا بلى بشر .

١٨ ـ أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين .

ويرى القارىء فى هذه الحقوق شيئا من التكرار . وهذا أيضا يمثل وجهة الغزالى فى الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطة ، ولا يزال بالمعنى يردده فى كتبه ، بل فى الكتاب الواحد حتى يرسخ فى نفس المستفيد .

ـ ٣ ـ

حقوق الجوار

ويرى الغزالى أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الاسلام ، فيستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويرى قوله عليه السلام : (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الاسلام ، وحق الرحم . وأما الذى له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الاسلام ، وأما الجار الذى له حق واحد فالجار المشرك) .

ويقول تعليقا على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار !

وقد وضع للجار ما يأتى من الواجبات :

١ ـ أن يبدأ جاره بالسلام .

٢ ـ وأن لا يطيل معه الكلام .

٣ ـ وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل الى داره .
٤ ـ وأن يعوده فى المرض .
٥ ـ وأن يعزيه فى المصيبة ، ويقيم معه فى العزاء .
٦ ـ وأن يهنئه فى الفرح ، ويظهر الشركة فى السرور معه .
٧ ـ وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما .
٨ ـ وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ماينكشف له
٩ ـ وأن لا يضايقه بوضع الجدع على جداره .
١٠ ـ وأن لا يصب الماء فى ميزابه ، ولا يطرح التراب فى فنائه .
١١ ـ وأن لا يضيق طريقه الى الدار .
١٢ ـ وأن ينعشه فى صرعته اذا نابته نائبة .
١٣ ـ وأن لا يغفل عن ملاحظة داره فى غيبته .
١٤ ـ وأن يغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر الى خادمته .
١٥ ـ وأن يتلطف لولده فى كلمته .
١٦ ـ وأن يرشده الى ما يجهله من أمر دينه ودنياه .

يقول الغزالى : هذا الى جملة الحقوق التى ذكرناها للمسلمين ، ولم يستثن المشرك فى جملة هذه الحقوق ، ولكنك رأيت أنه خص الذميين بهذه المساواة ، اذ كان ايذاء الحربى عنده غير حرام .

ـ ٤ ـ

حقوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار . وكذلك يثبت حقه بالقرابة . ويروى الغزالى فى هذا أن أسماء بنت أبى بكر قالت : « قدمت على أمى فقلت يا رسول الله : ان أمى قدمت على وهى مشركة ، أفاصلها ؟ قال نعم . وفى رواية : أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها » .

ومن الواضح أن القريب المسلم او الجار يثبت له فوق حق القرابة ما يثبت بأخوة الاسلام وبالجوار من الحقوق .

— ٥ —

حقوق الوالدين

يقول الغزالى : كيفية القيام بحق الوالدين تعرف مما ذكرنا فى حق الاخوه ، فان هذه الرابطة آكد من الاخوة ، بل أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات ، وان لم تجب فى الحرام المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم .

ويرى الغزالى أن ليس للانسان أن يبادر بالحج وهو فرض الا باذن والديه ، لأن المبادره نفل . وكذلك ليس له أن يخرج لطلب العلم الا باذنهما ؛ ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم اذا لم يكن فى البلد من يعلمه . وليته عمم هذا الحكم فى جميع العلوم الضرورية فى الحياة .

وينقل الغزالى عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد وهو يقدم الوالدة فى البر على الوالد .

— ٦ —

حقوق الأبناء

يجب على الوالد :

١ — ان يسمى ابنه اسما حسنا .

٢ — وأن يؤدبه اذا بلغ ست سنين ، فاذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فاذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضربه على الصلاة ، فاذا بلغ ست عشرة سنة زوجه .

٣ — وأن يعينه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله .

٤ ـ وأن يسوى بين أولاده .
٥ ـ وان يبدأ بالاناث اذا حمل لأولاده طرفة من السوق .

ـ ٧ ـ
واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالى ما يأتى من الواجبات :

١ ـ ان لا يحتكر ، فيدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار وهذا مطرد فى اجناس الأقوات . اما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالأدوية ، والعقاقير ، والزعفران وامثاله ، فلا يتعدى النهى اليه وان كان مطعوما . واما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسد القوت فى بعض الأحيان وان كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر . ومن العلماء من طرد التحريم فى السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجرى مجراه ؛ على أن احتكار الأطعمة جائز اذا استغنى الناس عنها ولم يخش من احتكارها قحط . وبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهة والتحريم .

وكان على الغزالى أن يبين حكم احتكار الأدوية اذا وجد وباء ، أو انتشر مرض من الأمراض . فقد تصبح الأدوية أهم من الأطعمة ، ويمسى احتكارها من عظائم الأمور (١) .

٢ ـ أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها .
٣ ـ أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا .
٤ ـ أن لا يكتم فى وزنها ومقدارها شيئا .
٥ ـ أن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه .

---

(١) ليس بمستعص على الانسان ان يفهم ذلك من كلام الغزالى . اذ هو يدير كلامه على محور واحد هو الرفق بالناس ورفع الحرج عنهم وعدم ارهاقهم بما يكون فيه مشقة عليهم .

عبد الوهاب النجار

٦ - أن لا يروج الزيف من الدراهم أثناء النقد ، اذ يستضر به المعامل ان لم يعرف ، وان عرف فسيروجه على غيره . وهكذا دواليك ، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصى لنفسه فحسب ، ولكن لئلا يسلم الى مسلم زيفا وهو لا يدرى فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم .

٧ - أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولا يمكن الا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب .

٨ - ان يحسن نيته فى ابتداء التجارة . فينوى بها الاستعفاف من السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد .

٩ - أن يقصد القيام فى تجارته أو صنعته بفرض من فروض الكفايات ، فان الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس .

١٠ - أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر فى التجارة ، ففى الخبر « لا يركب البحر الا بحج أو عمرة أو غزو » .

هكذا يرى الغزالى . وهذه منه نزعة صوفية لا تأتلف مع واجب الرجل الأخلاقى فى الحياة الاجتماعية . فللتاجر أن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن يركب البحر فى التجارة ، وأن يسلك الى الربح كل سبيل . والحج والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة . ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

١١ - أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواضع الشبهات ، ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى ، بل يستفتى قلبه . واذا حملت اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف والا أكل الشبهة .

١٢- ان يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ويعد جوابه ليوم الحساب والعقاب .

١٣- أن يقيل من يستقيله ، فانه لا يستقيل الا متندم مستضر بالبيع ، ولا ينبغى ان يكون سبب استضرار اخيه .

١٤- ان يخص فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو فى الحال عازم على ألا يطالبهم ان لم تظهر لهم ميسرة .

١٥- أن يحسن فى استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة .

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا ان ننوه بعناية الغزالى بصالح الهيئة الاجتماعية ، فان التاجر الذى يتأدب بهذه الآداب تمسى تجارته ولا شك ربحا عاما للناس ، ويصبح خادما لأهل بلده من حيث لا يعلمون .

هذا وجه الجمال فى هذه الآداب التى خص بها التجار وما انكر أن فيها جانبا من الضعف باثقال التاجر بكثير من التكاليف الظاهرة و المستورة ، فى حين انه يجب تمرينه على المخاطرة فى سبيل الحياة ، ولكن الغزالى لا تعدل بالسلامة شيئا والسعيد عنده من نجا بدينه ، وان خسر دنياه .

— ٨ —

آداب المسافر

وضع الغزالى فصولا مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته ، وعده نوعا من الحركة والمحافظة . وبين الباعث عليه من هرب أو طلب ، واطال فى ذلك وأجاد .

نحن ذاكرون هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

١ - ان يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، واعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ، ويرد ماعنده من الودائع ، ولا يأخذ لزاده الا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه .

٢ - أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من اهل الدين ، فان المرء على دين خليله .

٣ - أن يودع رفقاء الحضر ، والأهل ، والأصدقاء .

٤ - أن يرحل من المنزل بكرة فان الخير فى البكور .

٥ - أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فان الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار .

٦ - أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشى منفردا خارج القافلة ، فربما ينقطع ، او يغتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل .

٧ - أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يضربها فى وجهها ، وأن يروحها بالنزول عنها غدوة وعشية .

٨ - أن يحمل معه مرآة ، ومكحلة ومفراضا ، ومسواكا ومشطا ، وقارورة ، وركوة ، وحبلا .

٩ - أن ينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجتهد فى أن يسمع من كل واحد كلمة ، أو أدبا ينتفع به .

١٠ - أن لا يزيد على ثلاثة ايام فى زيارة اخ له ، واذا زار أحد أساتذته فى سفره ، فلا يقم عنده أكثر من يوم وليلة .

١١ - أن يرجع من سفره اذا راى فى نفسه نقصانا عما كان عليه فى الحضر .

واحب أن ينتبه القارىء الى دقة هذا الأدب الأخير .

— ٩ —

حقوق المرأة

لا يرى الغزالي ان المرأة تساوى الرجل ، بل يرى أن الرجل سيد المرأه . ويقول فيمن أطاع زوجه ، وملكها نفسه « انه عكس القضية . واطاع الشيطان لما قال : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » . اذ حق الرجل أن يكون متبوعا لا تابعا . وقد سمى الله « الرجالُ قوامون على النساء » ، وسمى الزوج سيدا فقال : « وألفيا سيدها لدى الباب » . فاذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا (١) » .

ولم يقتصر الغزالي على ذلك ، بل حكم على طبيعة المرأة حكما اقسى من الصخر ، فقد قال فى معرض الحديث عن أدب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا أعلم مبلغه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام : (مثلَ المرأة الصالحة كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب) .

واليك جملة ما وضع الغزالي للمرأة من الحقوق :

اولا — على الرجل ان يحسن الخلق معها ، وأن يتحمل الأذى منها ، ترحما عليها لقصور عقلها . ويقول الغزالي : « واعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها » .

---

(١) ان النساء يغلب عليهن المزاج العصبى . فهن يتأثرن بالتافه من الامور ويجعلن من الهفوة الصغيرة أمرا خطيرا ويصيرن الحبة من مخالفتهن قبة ويبنين علالي الشقاق على اوهن اساس . وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس لاحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن فى البيت نظائر ومنافسات كزوجة اخى الزوج واخته ونحو ذلك من لم زوج . وهكذا فهنالك الشقاق الدائم والخصام الذى لا ينقضى . ولا دواء لذلك سوى أن يكون الزوج قاهر الحكم ، نافذ الكلمة ، مطاع الامر ، فاذا ضعف او وهن فلا انقضاء لشقاء البيت .

عبد الوهاب النجار

ثانيا ــ أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة ، والمزاح ، والملاعبة ، فهى التى تطيب قلوب النساء . ويقول الغزالى : « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل الى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق » وهذا تأكيد لرأيه فى طبيعة المرأة .

ثالثا ــ الاعتدال فى الغيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادىء الأمور التى تخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى اساءة الظن ، والتعنت وتجسس البواطن .

رابعا ــ الاعتدال فى النفقة ، فلا ينبغى أن يقتر عليها فى الانفاق ، ولا ينبغى أن يسرف ، ولا ينبغى ترك الحلوى بالكلية ، وينبغى أن يأمر الرجل أهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفسد لو ترك . وللمرأة ان تفعل ذلك بحكم الحال من غير اذن الزوج . ولا ينبغى ان يستأثر الرجل عن أهله بمأكول طيب ، فان ذلك ينافى المعاشرة بالمعروف .

خامسا ــ على الرجل أن يعلم زوجه أحكام الصلاة ، فان لم يعرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم ما دام الزوج لم يقصر فى تعليمها الفرائض ــ فان قصر فلها الخروج للاستفادة ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها . ومتى تعلمت الفرائض فليس لها أن تخرج لتعلم فضل الا برضاه . وللرجل الحق فى أن لا يدخل عليها الرجال ، وأن يمنعها من الخروج الى المساجد والأسواق .

وهنا نلفت النظر الى أن الغزالى يقرر ويلح فى تحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة العجوز فقط هى التى يجوز لها عنده زيارة المساجد وان خالف ذلك بعض الشىء ما كان على عهد رسول الله . ويكاد يجزم بأن النبى لو شاهد أهل عصره لشدد فى التضييق على المرأة .

سادساً ـ اذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل ، فاذا خرج الى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن ، والعدل واجب فى العطاء والمبيت ، وأما فى الحب والوقاع فهو تكليف بما لا يطاق .

سابعا ـ اذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرهما ، فان كان من جانبهما جميعا ، أو من الرجل فلابد من حكمين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ، وليس للمرأة أن تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من جانبه لئلا تسلط فلا يقدر على اصلاحها كما يقول الغزالى .

وأما اذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فللرجل أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهرا ، ولكن ينبغى أن يتدرج فى تأديبها . فيقدم أولا الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فان لم ينجح أولاها ظهره فى المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال ، فان لم ينجح ذلك ضربها ضربا غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظما ، ولا يدمى لها جسما ، ولا يضرب وجهها فان ذلك منهى عنه .

ثامنا ـ أن ينظر الرجل فى حاجة امرأته الى التحصين ، فان تحصينها واجب عليه . وللغزالى فى هذا الموضوع كلام كله سذاجة : اذ تراه يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوقاع ، حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته ! ! وما أدرى كيف تصلح هذه اللحظة للأدعية والأوراد ، وما الى ذلك مما يضعف الشهوة ، ويبعث على الخمود !

تاسعا ـ الطلاق مباح ، ولكنه ايذاء . ولا يباح للرجل ايذاء المرأة الا بجناية من جانبها أو ضرورة من جانبه . ومهما آذت زوجها أو بذأت على أهله فهى جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . ويرى الغزالى أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة ، فاذا كرهها الوالد لغرض غير فاسد فقد جاز

الطلاق . وان كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى بمال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فان ذلك اجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . وعلى الزوج أن يتطلف فى التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف . وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل الجبر والامتاع ، وأن لا يفشى سرها لا فى الطلاق ولا فى النكاح .

ومما سلف بيانه ، نعرف أن الغزالى لم يفكر فى المرأة الا من حيث هى زوجة ، فلم يذكر شيئا عن حقوقها الاجتماعية ، ولم يتكلم عن تعليمها قبل الزواج ، ولم يسمح للمتزوجة بشىء من العلم أكثر من الفرائض ، وهى غاية بسيطة بالطبع ، لأن تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف . وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه فى طبيعة المرأة ، اذ كانت عنده فى مقام التابع ، ومن طاعة الشيطان أن تصبح فى مقام المتبوع !

— ١٠ —

الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالى بهذه الحقوق فى صيانة المرأة ، بل حض الرجل على الرفق بها فى كل حال ، فذكر فى ص ١٢١ من كتابه « التبر المسبوك » أن من أحب أن يكون مشفقا على زوجته رحيما بها ، فليذكر أن المرأة لا تقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها متى شاء ، وانها لا تقدر أن تأخذ شيئا بغير اذنه ، وهو قادر على ذلك ، وانها ما دامت فى حباله لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر على أن يتزوج عليها ، وأنه لا يخافها وهى تخافه ، وأنها يقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى بجميع أفعالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو لا يفارق أحدا ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجوارى دونها ، وأنها تخدمه دائما وهو

لا يخدمها ، وأنها تتلف نفسها اذا كان مريضا وهو لا يغتم لها ولو ماتت .

والاحظ أن هذه النصيحة الشعرية تفترض ان يكون الرجل مسيطرا على المراة ، وأنها كالحمل الوديع . ومن الواضح أن الرجل لا يكون دائما على هـذه السيطرة ، والمراة لن تكون دائما بهـذه الوداعة : ولكن عذر الغزالى فى اطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هذه الحال ، فالرجل فى الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ، وما عدا ذلك شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذى لا شك فيه ، من بين ما قال الغزالى ، أن الرجل يملك رقبة المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها ان شاء ، ويتصرف فى البيت بلا رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت من أجله أمها وأباها واقاربها ، وهو لم يفارق لأجلها أحدا من العالمين .

— ١١ —

واجبات المرأة

النكاح نوع رق ـ كما يقول الغزالى ـ فالزوجة رقيقة الزوج ؟ وعليها طاعته فى كل ما يطلب ، مما لا معصية فيه . واليك خلاصة ما عليها من الواجبات :

١ ـ أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، ملازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها واطلاعها على سطوح الجيران .

٢ ـ وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم الا فى حال يوجب الدخول .

٣ ـ وأن تحفظ بعلها فى غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته فى جميع أمورها ، ولا تخونه ، لا فى نفسها ولا فى ماله .

٤ ـ وأن لا تخرج من بيتها الا باذنه ، فان خرجت باذنه فمختفية

فى هيئـة رثة ، تطلب المواضـــع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها .

٥ – وأن لا تتعرف الى صديق بعلها فى حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه .

٦ – واذا استأذن صديق لبعلها على الباب ، وليس البعل حاضرا ، لم تستفهم ولم تعاوده فى الكلام ، غيرة على نفسها وبعلها وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله .

٧ – وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر اقاربها .

٨ – وأن تكون متنظفة فى نفسها مستعدة فى جميع الأحوال ليتمتع بها ان شاء .

٩ – وأن تشفق على اولادها .

١٠– وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب الأولاد .

١١– وأن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها .

١٢– وأن لا تذهب الى الحمام ، الا اذا لم يكن فى البيت مستحم ، وكانت نفساء أو مريضة ، وان دخلت فلا تدخل الا بمئزر سابغ .

— ١٢ —

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب فى تصور الغزالى للحياة ، وحرصه على النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد نتبين بذلك وجهة نظره فيما ينبغى أن يكون عليه الكاتب من الخبرة والكفاية ، ولم تنشأ الا لمثل ذلك كليات الصحافة فى العهد الحديث .

ويرى الغزالى أن الكاتب يجب عليه :

١ – أن يعرف بعد الماء وقربه تحت الأرض .

٢ – وان يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، فى الصيف والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم .

٣ – وان يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم .

٤ – وان يعرف اختيارات الأيام ، وما يصلح للمزارعين .

٥ – وان يعرف الطب والأدوية .

٦ – وان يعرف ريح السمال والجنوب .

٧ – وأن يعرف الشعر والقوافى .

٨ – وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء .

٩ – وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفعه وحطه ، كما قال !

١٠– وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه .

١١– وأن نطهر بشبا قلمه ما يجول فى نفسه .

١٢– وأن يعرف ما يمد من الحروف .

١٣– وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه .

وقد وضع الغزالى فوق ما تقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الأقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصلابة ، وما ينبغى أن يمتاز به القرطاس من التساوى والصقالة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من الجمال . وكل ما تقدم هو بالطبع صورة لرأيهم اذ ذاك فيما ينبغى أن يكون عليه الكتاب .

— ١٣ —

واجبات الملوك

يتكلم الغزالى كثيرا عن « الأمراء والسلاطين » ويذكر ما لهم وما عليهم ، وتجد فى حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من

الفرق بين ارشاد العامة ، وارشاد الأمراء والسلاطين كما يقول ، وقد وضع لهم كتابا خاصا سماه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، وهو الذى قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود اليه الآن .

ويستحسن الغزالى أن يقسم الملك نهاره الى أربعة أقسام : قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر فى أمور السلطنة ، وانصاف المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الأمور ، وسياسة الجمهور وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وانفاذ الرسل ، وقسم للأكل والنوم ، والتزود من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور . وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما أشبه ذلك .

وينصح الغزالى للملك بأن لا يشتغل دائما بلعب الشطرنج ، والنرد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه عن الأعمال ، ولكل عمل وقت ، فاذا فات عاد الربح خسرانا .

ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الاقلال ، ولكن هذا ينافى حرص الغزالى واصراره على حرب المسكرات ، فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دست أو وقعت سهوا فى كتاب « التبر المسبوك » .

ويجب فيما يرى الغزالى أن يراعى الملك ما يأتى من الأصول :

١ - أن يعرف قدر الولاية وخطرها ، وما يكون من سعادته اذا أحسن ، ومن شقائه اذا أساء .

٢ - أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلمانه ، وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فانه عن ظلمهم مسئول .

٣ - أن لا يتكبر ، فان التكبر داعية الغضب والانتقام .

٤ - أن يفرض نفسه واحدا من الرعية فى كل ما يعرض عليه فما لا يرضاه لنفسه لا ينبغى أن يرضاه لأحد من المسلمين

٥ – أن لا يشغل بنوافل العبـــادة ، وببـــابه أحد من أرباب الحوائج .

٦ – أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب الفاخرة ، واكل الأطعمة الطيبة ، بل يتعود القناعة في جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة .

٧ – أن يتجنب الشدة ، والعنف كلما أمكنه الرفق .

٨ – أن يجتهد في أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع .

٩ – أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع .

١٠– ان يعين رعيته اذا وقعت في ضائقة ، وان ينفق عليها من خزائنه ، اذا وقعت في قحط أو غلاء ، لأن في ذلك استبقاء لطاعتهم ودرءا لمطامع المحتكرين .

والغزالي لا يستنكر قسوة الملك ، اذا لزمت الرعيـة ، بل يدعو الى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول : وسلطان هـذا الزمان يجب أن تكون له «وفي سياسة ، واتم هيبة ، لأن اناس هذا الزمان ليسوا كالمتقدمين ، فان زماننا هذا زمان ذوى الوقاحة والسفهاء ، واهل القساوة والشحناء . واذا كان السلطـان والعياذ بالله بينهم ضعيفا أو كان غير ذي سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البـلاد ، وان الخلل يعود على الدنيا والدين » (١) .

والسياسة في كلامه هذا معناها الحزم في شدة وقسوة لينتهى المفسدون .

---

(١) ص ٥٥ « التبر المسبوك » .

— ١٤ —

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول ـ اذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعاجله بالعقوبة .

الثانى ـ اذا اتسعت حاله فى خدمته واستغنى ، فلا يطمع فى ماله وثروته .

الثالث ـ اذا سأله حاجة فلا يتوقف فى قضائها .

وينبغى أن يمنحه ثلاثة أشياء :

الأول ـ أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار ان يراه .

الثانى ـ أن لا يسمع فى حقه كلام مفسد .

الثالث ـ أن لا يكتم عنه شيئا من سره ، لأنه مدبر الدخل وبه عمارة الخزائن والولايات .

ويجب على الوزير :

أولا ـ أن يكون محبا للخير ، مبغضا للشر .

ثانيا ـ أن يعين الملك على الشفقة بالرعية اذا رأى منه الميل لذلك .

ثالثا ـ أن يرشده باللطف اذا رأى منه ميلا للظلم .

ويقول الغزالى فى نصح الملك الذى اهداه كتابه : « وينبغى أن تعلم أن دوام الملك بالوزير ، وان دوام الدنيا بالملك ، وينبغى أن تعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ٧٩

وهذه الواجبات التى وضعها للملوك والوزراء تعتبر فى الواقع مجملة بالنسبة لما يحتاجون اليه من شتى الآداب فى

معاملة الرعية ، ومعاملة جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك انه حكم الشرع فى جملة هذه الآداب ، وقد وضع الفقها ... حكام تخص الخلفاء والولاة ، وما أحسبه يخالفهم فى هذا الباب .

— ١٥ —

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانبا من جوانب الأخلاق عند الغزالى رأيه فى معامله الظلمه من الأمراء والسلاطين ، فقد حتم على من يأخذ مالا منهم أن ينظر كيف وصل اليهم ، وأن يتأمل الصفة التى استحق بها الأخذ ، والمقدار الذى يأخذه ، وهل يستحقه اذا اضيف الى حاله وحال شركائه فى الاستحقاق ، وبين أنه اذا لم يعرف للسلطان دخل الا من الحرام ؛ فالأخذ منه سحت محض . وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئا من مال الظالم على الاطلاق ، فان لم يستطع فيأخذ ما يتأكد انه حلال .

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محظور ، ولا تجوز زيارة الملك الجائر الا بعذرين : الأول — أن يكون من جهتهم امر الزام ، لا امر اكرام ، ويعلم الرجل انه ان امتنع أوذى ، أو فسدت طاعة الرعية : فتجب عليه الاجابة ، لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق ، حتى لا تضطرب الولاية .

الثانى — أن يدخل عليهم فى دفع ظلم عن مسلم سواه . أو عن نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التظلم .

واذا دخل عليك السلطان الظالم زائرا فجواب السلام لا بد منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه ان لم يكن معه أحد ، ثم تأخذ فى تعريفه ما يجهله ، وتخويفه فيما هو مستجرىء عليه ، وارشاده الى ما هو غافل عنه .

والأفضل فيما يرى الغزالى أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا يرونه ! والأمر كذلك فى معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدمهم .

وللغزالى فى هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمون من القناطر والطرقات والمساجد والسقايات والأسواق . واخص ما يلاحظ أنه انما يدعو الى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل البعد عما يفضى الى فتنة أو اضطراب .

— ١٦ —

حقوق الاخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصداقة ، الى غير ذلك مما تثمره الألفة والالفة — كما نص الغزالى — ثمرة حسن الخلق ، اذ يوجبه التحاب والتآلف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر التباغض ، والتحاسد ، والتدابر .

ويجب فيما يرى الغزالى أن يكون للرجل اعداء يبغضهم فى الله ، كما يجب أن يكون له أصدقاء يحبهم فى الله .

ولكن الحب فى الله ، والبغض فى الله غامض ، ولكشف الغطاء عنه ، قسم الصحبة الى : ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع فى المكتب ، او فى المدرسة ، أو فى السوق ، أو على باب السلطان ، أو فى الأسفار ، والى ما ينشأ اختيار ويقصد ، وهو المراد . اذ لا ثواب ولا عقاب الا على الأفعال الاختيارية . والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة . وهذه الأمور لا يقصد بها الانسان غيره الا اذا احبه . والذى يحب : اما أن يحب لذاته ، واما أن يحب للتوصل به الى مقصود ، وذلك المقصود : اما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها . واما ان يكون متعلقا بالآخرة ، واما أن يكون متعلقا بالله تعالى .

حب المرء لذاته وجماله

يرى الغزالى ان الانسان قد يحب لذاته ، لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة فى الطباع الباطنة والاخلاق الخفية ، ويدخل فى هذا القسم ، فيما يرى ، الحب للجمال اذا لم يكن للمحب غرض خبيث ، فان الجمال مستملح لذاته ، وان قدر فقد أصل الشهوة . والغزالى يضرب المثل لهذا بالنظر الى الفواكه، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، والى الماء الجارى، والخضرة من غير غرض مذموم اذ تحب لعينها . وهذا الحب كما يقول الغزالى لا يدخل فيه الحب لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا يوصف بمدح ولا بذم .

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يحب الانسان لينال من ذاته غير ذاته . كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله ، أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده .

والمتوسل اليه ــ كما يقول الغزالى ــ ان كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب فى الله ، وان لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به الا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه ، فهو أيضا خارج عن الحب لله ، فانه انما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم .

وينقسم هذا الحب فيما يرى الغزالى الى مذموم ومباح ، فان كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهر الاقران ، وحيازة أموال اليتامى ، وظلم الرعية بولاية القضاء أو غيره ، كان الحب مذموما . وان كان يقصد به التوصل الى مباح فهو مباح .

الحب للمنافع الاخروية

وقد يحب الانسان ، لا لذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس راجعا الى حظوظه فى الدنيا ، بل يرجع الى حظوظه فى الآخرة ، كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخره . وهذا من جملة المحبين فى الله . ومثله من احب زوجته لأنها آلة الى مقاصد دينية ، كالتحصن والولد الصالح .

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الغزالى : ليس من شرط حب الله أن لا يحب فى العاجلة حظا البتة . ويقول : اذا اجتمع فى قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا . فاجتمع فى شخص واحد المعنيان جميعا حتى صلح لأن يتوسل به الى الله والى الدنيا ، فاذا أحبه لصلاحه للأمرين جميعا فهو من المحبين فى الله ، كمن يحب استاذه الذى يعلمه الدين، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال .

الدنيا خليقه بالحب

ولا يفوتنا ان ننوه بما وفق اليه الغزالى حين قال : « وعلى الجمله ، فاذا لم يكن حب السعادة فى الآخرة مناقضا لحب الله تعالى ، فحب السلامة ، والصحة والكفاية والكرامة فى الدنيا ، كيف يكون مناقضا لحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين احداهما أقرب من الاخرى . فكيف يتصور أن يحب الانسان حظوظ نفسه غدا ولا يحبها اليوم ؟ وانما يحبها غدا لأن الغد سيصير حالا راهنة . فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة . الا أن الحظوظ العاجلة منقسمة الى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذى احترز عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه . والى مالا يضاد ، وهو الذى لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح وأكل الحلال .

« وليس بمستنكر ان يشتد حبك لانسان لجملة اغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل فى جملة الحب لله » .

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها فى صوابها تناقض ما يردده الغزالى من احتقار الأغراض الدنيوية ، والاشادة بالحياة الأخروية مما يخيل الى القارىء ان الدنيا عنده احقر من ان تتعلق بها الأغراض !

الحب لله

وقد يحب الانسان فى الله ولله . دون ان ينال منه شىء ، أو يتوسل به الى امر وراء داته . وهدا اعلى الدرجات . وهو غاية فى الدقة والغموض .

ميزان الحب

بين الغزالى أن المرء قد يحب لداته ، وقد يحب لمقصود دنيوى او اخروى ينال منه ، وقد يحب الله . لا لغرض يقصد فى حال او مآل .

ولكن ما هى دلائل ذلك الحب ، حميدا كان او غير حميد ؟ وبأى ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالى ميزانا هو ادق موازين الحب فى هدا الوجود، وهو المال ! وانظر قوله : « ومن احب ملكا أو شخصا جميلا احب خواصه وخدمه ، وأحب من احبه ، الا انه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظا الا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال :

اريد وصاله ويريد هجرى
فأترك ما اريد لما يريد

وقول من قال ...

فما لجرح اذا ارضاكم ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض، كما تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه فى نصف ماله ، او فى ثلثه ، أو فى عشره . فمقادير الأموال موازين المحبة ، اذ لا تعرف درجة المحبوب الا بمحبوب يترك فى مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يملك لنفسه شيئا » .

المال هو أدق موازين الحب فى هذا الوجود ، وقد افصح عن ذلك الفزالى ، وان سبقه قول جميل :

سليمى مالى يا بثين فانمـــا
يبين عنـــد المـــال كل ضنين

ما للأخ على اخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الفزالى للمحبة . لا ترانا فى حاجة الى جمال ما فصله من حقوق الأخوة ، ويكفى أن نذكر انه يرى للاخ حقا على اخيه : فى نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ، ولكل حق من هذه الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوي عليه الصدور من حب قوى أو ضعيف .

حقوق الأخ المذنب

على انى أرى من الواجب ان اذكر راى الغزالى فى حقوق الأخ المذنب ، فانه فيما أعتقد راى كله صواب ، وهو فى الوقت نفسه كثير على عصر كالعصر الذى عاش فيه الفزالى ، فلسنا نجهل أن الناس كانوا اذ ذاك قليلى التسامح ، وانهم كانوا مملوئين بالريب والظنون .

يرى الغزالى أن الصداقة لحمة كلحمة النسب . والقريب لا

ينبغى أن يهجر بالمعصية . فقد قال تعالى للنبى فى عشيرته : « فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون » ولم يقل انى برىء منكم ، مراعاة لحق القرابة ، ولحمة النسب . قال الغزالى « ومن حيث أن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة ، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد . ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال . وقد أصابته جائحة ، وألمت به آفة افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى ان يراقب ويراعى ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التى ألمت به . فالأخوة عدة للنائبات ، وهذا من أشد النوائب » .

وقد توقع الغزالى ان يقول قائل : ان مقارف المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء . لأن الحكم اذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها . وعلة عقد الأخوة التعاون فى الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية . وقد أجاب بأن المعصية انما منعت ابتداء المؤاخاة مع الفاسق لأنه لم يتقدم له حق ، أما الأخ المذنب فقد ثبتت أخوته ، فلا تسقط بالمعصية ، كما لا تسقط القرابة ، ومتى بقيت فقد بقى ماكان لها من الحقوق .

ويزيد الغزالى أن مصاحبة الفاسق خير من مجانبته ، اذ كانت الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والاقلاع عن الباطل ، بخلاف المجافاة ، فقد تقوى فيه الاصرار والعناد .

وهذه عظة بالغة ، لأولئك الذين كلما رأوا مبطلا فروا منه باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

— ١٧ —

البغض فى الله

يقول الغزالى : « كل من يحب فى الله لا بد أن يبغض فى الله فانك أن احببت انسانا لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فان

عصاه لا بد أن تبغضه ، لانه عاص لله وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده ، ولكن البغض كما رأيت لا يوجب المجافاة .

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله اما ان يكون مخالفا فى عقده أو فى عمله ، والمخالف فى العقد اما مبتدع أو كافر ، والمبتدع اما داع الى بدعته او ساكت ، اما بعجزه أو باختياره : فأقسام الفساد فى الاعتقاد ثلاثة :

الاول ــ الكفر والكافر ان كان محاربا فهو يستحق القتل والارقاق ، وان كان ذميا فلا يجوز ايذاؤه الا بالاعراض عنه والتحقير له .

الثاني ــ المبتدع الذى يدعو الى بدعته . فان كانت البدعة بحيث يكفر بها فامره اشد من الذمى . لانه لا يقر بجزية ، ولا يسامح بعقد ذمة . وان كان مما لا يكفر به فامره بينه وبين الله اخف من أمر الكافر لا محالة ، ولكن الأمر فى الانكار عليه أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعد . اما المبتدع الذى يدعو الى البدعة ويزعم أن ما يدعو اليه حق فهو سبب لغواية الخلق وشره متعد ، فالاستحباب فى اظهار بغضه ، ومعاداته ، والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتنفير الناس منه ، أشد .

الثالث ــ المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ، ولا يخاف الاقتداء به ، فأمره أهون . والأولى أن لا يفاتح بالتغليظ والاهانة ، بل يتلطف به فى النصح ، فان قلوب العوام سريعة التقلب .

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فانواعه ثلاثة :

الأول ــ وهو اشدها ، ما يتضرر به الناس فى دنياهم ، كالظلم

والغصب . وشهادة الزور ، والغيبة . والنميمة ، وهذه معاص شديدة ، لانها ترجع الى ايذاء الخلق . وأصحاب هـذه المعاصى ينقسمون الى من يظلم فى الدماء ، والى من يظلم فى الأموال ، والى من يظلم فى الاعراض ، بعضها أشد من بعض ، والاسـتحباب فى اهانتهم ، والاعراض عنهم مؤكد جداً .

الثانى ـ ما يتضرر به الناس فى اخراهم لا فى دنياهم ، كعمل صاحب الماخور الذى يهيىء أسباب الفساد ويسهل طرقها على الخلق ، وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه .

وانا لا افهم كيف يرى الغزالى أن هذا لا يضر النـاس فى دنياهم (١) .

الثالث ـ عمل الذى يفسق فى نفسه ، بشرب خمر . أو ترك واجب ، أو مقارفة محظور يخصه . والأمر فيه أخف مما سبقه ، ولكنه ان صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به منه ، ولو بالضرب والاستخفاف .

نتيجة

ويحسن بالقارىء أن يضم الحب فى الله ، والبغض فى الله ، الى ما قرره الغزالى من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الأبواب بعضها الى بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المريد أو ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالى .

والرجل الذى أحاطه بالحسبة ، والحب فى الله ، والبغض فى الله ، هو رجل يعرف ما يجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التى تصلح بصلاح الأفراد ، فيهذب نفسه أولا ليفهم بالضبط ما له وما عليه ،

(١) لم يكن للزنا فى عهده من المضار الدنيوية من الامراض الفتاكة كالزهرى ونحـوه ما له اليوم فلم يرتق بنظـره الى أكثر من الضرر الدينى لانه هـو الماثل أمامه .

عبد الوهاب النجار

ثم يدعو الناس الى حفظ أموالهم وأنفسهم ؟ وينهاهم عن اقتراف ما يضر بهم وباخوانهم فى الدين ، ثم يبغض بقلبه وبجوارحه من يغض من العقيدة ، او يظلم الناس . وقد فصل الغزالى ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه بكثير من الآيات والأحاديث والأخبار ».

— ١٨ —

آداب الزواج

يسميها الغزالى آداب النكاح ، وهو أصح فى التعبير ، لأن النكاح فى كتب التشريع لا براد به الجماع ، وانما يقصد به العقد ، ولكننا قلنا آداب الزواج ، مجاراة للعرف الحديث .

وقد وضع الغزالى عدة آداب للنكاح ، تعد فى الواقع ترغيبا فيه ، وهى فى جملتها من الآداب العادية . ويهمنى منها أدب واحد ، أصاب الغزالى فى الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش . فقد ذكر ان الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هى مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى اصلاحهن ، وارشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لاجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فانها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعايه عظيم . وانما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها . والا فقد قال عليه السلام : « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » . ثم قال : « الا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » وليس من اشتغل باصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل باصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله » ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : احداها أنه

يطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقد قال عليه السلام : « ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وان الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته » .

ويقرر الغزالى بعد هذا أن فى الصبر على الأهل رياضة للنفس ، وكسرا للغضب ، وتحسينا للخلق . ويذكرنى هذا الأدب بما يكرره سيدى الاستاذ الدكتور منصور فهمى فى رسائله من كلمة « غرم الحياة وغنمها » ويريد بذلك الترحيب بما فى الحياة من متاعب ، فى سبيل ما فيها من الطيبات . والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور . والشبان الذين ينفرون من الزواج ايثارا للراحة ، انما هم جبناء ، ضعفاء ، لا يصلحون للجلاد فى ميدان الحياة .

— ١٩ —

الخروج من المظـــالم

ونريد أن نبين رأى الغزالى فيما يجب على التائب الذى ظلم الناس . لأن فى ذلك بيانا لرأيه فى احترام ما يلزم المرء من مختلف الحقوق . وقد بدأ الكلام فى هذا الموضوع بقوله عليه السلام : (من كانت له عند أخيه مظلمة فى عرض أو مال ، فليتحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هنالك دينار ولا درهم) .

مظلمة العرض

فان كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله . ثم يستحل المغتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله . لئلا يقارف بريائه معصية جديدة .

مظلمة المال

وان كانت المظلمة فى المال فعليه ان يميز الحرام ، وان ينظر فى مصرفه .

فان كان الحرام معلوم العين : من غصب ، او وديعة ، او غير ذلك ، فأمره سهل . وان كان متلبسا فلا يخلو أمره من أن يكون فى مال هو من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، او أن يكون فى أعيان متمايزة : كالعبيد والدور والثياب .

فان كان فى المتماثلات ، او كان شائعا فى المــال كله ، كمن اكتسب بتجارة يعلم أنه قد كذب فى بعضها بالمرابحة ، وصدق فى بعضها ، أو من غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك فى الحبوب والدراهم والدنانير ، فلا يخلو أمره من أن يكون معلوم القدر أو مجهولا . فان كان معلوم القدر : كأن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وان أشكل فلهطريقان : أحدهما الأخذ باليقين ، والاخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء .

وفى الاعيان المتمايزة : كالدور والعبيد ، يوزع القاضى الثمن بقدر النسبة . وان كانت متفاوتة كأخذ من طالبالبيع قيمة أنفس الدور مثلا ، وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الاقل ويقــدر التفاوت بالعرف .

صرف المــال الحــرام

فاذا اخرج الحرام فلا يخلو امره :

(أ) اما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف اليــه او الى وارثه . وان كان غائبا فينتظر حضوره . وان كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده الى وقت حضوره .

(ب) واما أن يكون المالك غير معين ميئوس منه لا يدرى أمات عن وارث ام لا . فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الامر فيه . فان لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينفقه على نفسه وعلى أولاده ان كان فقيرا . ومثل ذلك ما لو تعذر الرد لكثرة الملاك ، كغلول الغنيمة ، فانه كيف يقدر على جمع الغزاة بعد تفرقهم ؟ وان قدر فكيف يفرق دينارا واحدا على ألف او الفين .

(جـ) واما أن يكون من مال الفيىء والأموال المرشدة لمصـالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك الى القناطر ، والمساجد ، والطرق ، وامثال هذه الامور التى يشترك فى الانتفاع بها عامة المسلمين .

مظلمة النفس

وان كانت المظلمة فى النفس ، كالقتل ، فينظر فى نوعه ، فان كان خطأ فليسلم الديه ، وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص وله أن يتعرف الى ولى الدم ويحكمه فى روحه ، فان شاء عفا عنه وان شاء قتله . وقد تنبه الغزالى الى أن هناك ذنوبا يجب أن تستر ، فلا يصح أن يظهر فيها الاستحلال ، لأن فى اظهاره جناية جديدة . والخروج من مثل هذه المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ، والاحسان الموصول الى من أساء المرء اليه ، فان فى الاحسان جبرا للاساءة ، وهو كل ما يستطيعه التائب فى مثل هذه الحالى .

— ٢٠ —

واجب الاحتساب

الحسبة والاحتساب فى عرف المسلمين عبارة عن الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله » لقوله تعالى :

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية ، اذا قام به واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره . واذ كانت القـــدرة شرطا للحسبة فقد أصبحت على ذوى السلطان أوجب ، لانهم اقدر من غيرهم . ومتى أقامت الحكومة محتسبا كان عليه أن يبحث عن المنكر الظاهر ليصل الى انكاره ، والمعروف المتروك ليأمر باقامته وكان لكل مسلم الحق فى أن يستعديه فيما يجب انكاره .

ومن الفروق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ، وان لم يحضره خصم مستعد ، وليس للقاضى أن يتعرض لذلك الا بحضور خصم يجوز له ســــماع الدعوى منه . وأنه يجوز للمحتسب أن يستعمل القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضى غير فحص القضية بالأناة والوقار .

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام القضاء ، واحكام المظالم فى الحكومات الاسلامية ، فلنكتف بهــذا القدر ، تمهيدا لرأى الغزالى فى شروط الاحتساب .

شروط المحتسب

ولا يجب على امرىء فيما يرى الغزالى أن يأمر بخير ، أو ينهى عن شر ، الا بالشروط الآتية :

اولا ــ أن يكون مكلفا . فلا يجب على الصبى أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر بل يجوز له ذلك ، وليس لاحد أن يمنعه .

ثانيا ــ أن يكون مؤمنا . ومفهوم أن الغزالى لا يعترف للجاحد بشىء حتى يصلح للارشاد .

ثالثا ــ أن يكون عدلا . ويناقش الغزالى هذا الشرط ، ويذكر أن الأنبياء قد اختلف فى عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العــزيز

دال على نسبة آدم عليه السلام الى المعصية ، وكذا جماعة من الانبياء ، فلو اشترطنا في الارشاد أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي لأغلق هذا الباب .

رابعا — أن يكون مأذونا من الامام والوالي . وقد ناقش الغزالي هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب باذن الوالي بعد اطلاقه في الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له . وقرر أنه يجب على المرء زجر العاصي أينما رآه ، وكيفما رآه .

خامسا — أن يكون قادرا . فليس على العاجز حسبة الا بقلبه . ولا يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسي ، بل يلتحق به ما يخاف منه مكروها يناله ، فذلك في معنى العجز ، وكذلك اذا لم يخف مكرها وعلم أن انكاره لاينفع — وقد اختلفت كلمة الغزالي في هذه النقطة ففي ص ٣٢٢ ج ٣ من الاحياء ينص على سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها لا تفيد . وفي ص ١٥٢ ج ١ يقول في النهي عن كسف العورة في الحمام « فاما قوله : اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذرا ، بل لا بد من الذكر ، فلا يخلو قلب امرىء عن التأثر من سماع الانكار واستشعار الاحتراز عند التلبس بالمعاصي . وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه » .

وقد توقع الغزالي أن يقول قائل : ان المكروه المتوقع ما حده الانسان . فان الانسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة ، وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف الا ويتوقع منه نوع من الأذى . وقد يكون منه أن يسعى به الى سلطان ، أو يقدح فيه في مجلس ينضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟

وأجاب الغزالي بأن الحسبة لا تسقط الا بالمكروه الظاهر كمن

يعلم أنه يضرب ضربا مؤلما يتأذى به ، أو يعلم بأنه تنهب داره ، ويخرب بيته ، وتسلب ثيابه (١) .

المنكر المنهى عنه

ولا ينهى عن شيء فيما يرى الغزالى الا بالشروط الآتية :

أولا ــ أن يكون منكرا ، أى محذور الوقوع فى الشرع . قال الغزالى : « وانما عدلنا عن لفظ المعصية الى هذا ، لأن المنكر أعم من المصيبة ، اذ من راى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا ان راى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه . ثم قال : ولا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة فى الحمام ، والخلوة بالأجنبية ، واتباع النظر للنسوة الأجنبيات ، كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنه » .

ثانيا ــ أن يكون المنكر موجودا فى الحال ، فلا حسبة على من فرغ من شرب الخمر ، ولا على من يعلم من قرينة حاله أنه عازم على الشرب فى ليلته .

ثالثا ــ أن يكون المنكر ظاهرا . فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه ، وقد أمرنا أن نستر ما ستر الله ، وننكر على من أبدى لنا صفحته .

رابعا ــ أن يكون المنكر معلوما بغير اجتهاد ، فكل ما هو فى محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الغزالى لحرية الرأى والتفكير ، وما أحوج المصلحين الى تأمله والعمل بمقتضاه !

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق .

أما العلم فليعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ، ليقتصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن

(١) انظر ص ٣٢٣ ج ٢ احياء .

مخالفة معلومه ،فربما يعلم أنه مسرف فى الحسبة ، وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو اصل هذا الباب .

قال الغزالى : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات ، وان فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها » (١) .

وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ، وانما يسقط أثره من القلوب بظهوره للناس .

أنواع المنكرات

قسم الغزالى المنكرات الى مكروهة ومحظورة ، وبين أن منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام الا اذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم فى الشرع يجب تبليغه الى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور واجب والسكوت عليه حرام .

ثم ذكر طائفة من المنكرات التى تجرى فى المساجد ، والأسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة . وآراؤه فى هذا الباب مسددة ، ترجع الى الحرص على سلامة الناس فى دينهم ومعاشهم ، واصلاح ذات بينهم . فمنها دعوته الى منع ما يؤدى الى تضييق الطرق واستضرار المارة ، ودعوته الى منع الملاك من تحميل الدواب ما لا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان . ودعوته الى منع الاسراف فى الطعام والبناء . والذى يتأمل ما سرده الغزالى من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف فى نفوس الأفراد والجماعات .

---

(١) ص ٣٢٧ ج ٣ احياء .

درجات الاحتسـاب

للاحتساب درجات ، وهي :

(١) التعريف (٢) ثم النهى (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم ايقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السـلاح (١٠) ثم الاستظهـار بالأعوان وجمع الجنود .

وفى الدرجـة الأخيرة يقول الغزالى : « وربما يستمر الفـاسق ايضا بأعوانه ، ويؤدى ذلك الى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . فهـذا قد ظهر الاختلاف فى احتيـاجه الى اذن الامـام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك ، لأنه يؤدى الى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد . وقال آخرون : لا يحتاج الى الاذن . وهو الاقيس ، لأنه جاز للآحاد الأمر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر الى ثوان وثوالث ، وقد ينتهى لا محالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعـاون . فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمـر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه » ص ٣٢٦ ج ٣ .

ارشـاد الأمراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الأمراء والسلاطين ــ فيما يرى الغزالى ــ الا الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ . أما المنع بالقهر فليس لآحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك الفتن ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر .

وأما التخشين فى القول ، كقوله : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله ، وما يجرى مجراه ، فذلك ان كان يحرك فتنة يتعدى شرها الى غيره لم يجز ، وان كان لا يخاف الا على نفسه ، فهو جائز ، بل مندوب اليه ، ومن قتل فى هذا فهو شهيد .

الباب الحادى عشر

فى تأثير الغزالى فى عصره

وما تلاه من العصور

تمهيـــد

اثر الغزالى فى عصره اثرا غير قليل : فشطر اهل العلم ، والولاة ؛ شطرين : احدهما ينصره ، والآخر يخـــذله ، وما زال الفريقـــان يختصمان حتى طيرا شهرته فى جميع الآفاق .

وقد راى الغزالى فى حيـاته من يقدسه ، ويقـدمه على جميع العلمـــاء ؛ وراى فى الوقت نفسه كتبه تحرق فى بعض الأقطـــار الاسلامية ، رميا لها بالدعوة الخفية الى الكفر والالحاد !

— ٩ —

تجديده للقرن الخامس

وكان جمهور المسلمين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم فى هذه العقيدة كلام طويل، وفيها يقول الجلال السيوطى فى أرجوزته :

والشرط فى ذلك أن تمضى المائة ... وهو على حياته بين الفئة
يشار بالعلم الى مقامه ... وينصر السنة فى كلامه
وأن يكون جامعا لكل فن ... وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون فى حديث قد روى ... من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فردا هو المشهور ... قد نطق الحديث والجمهور

وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ومبعوث الثانية الشافعى ، والثالثة الأشعرى أو ابن سريج ، والرابعة الاسفراييني أو الصعلوكى أو الباقلانى . ويتفقون على أن مبعوث المائة الخامسة هو الغزالى ، ويقول السيوطى فى ذلك :

والخامس الحبر هو الغزالى ... وعده ما فيه من جدال (١)

وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما ترتكز عليه من أساس قوى أو ضعيف ، فهى فى ذاتها فكرة سخيفة ، ونظم السيوطى فيها أسخف ، ويكفى أن يعلم القارىء أن الغزالى بذ معاصريه وأخملهم ، حتى جاء المتأخرون فعدوه مجدد المائة الخامسة ، وقد يكونون مخطئين !

(١) راجع شرح الزبيدى ص ٢٦ ج ١ .

— ٢ —

المنامات والاحلام

ومما يدل على أن الغزالى شغل الناس ، واحتل أفئدتهم ، وصار موضع وساوسهم ، وهواجسهم ، وأحلامهم ، ما رأيناه لغير واحد من المنامات المتشابهة فى تأييد الغزالى ، ونشر فضله .

فهـذا السبكى يذكر فى طبقـاته أنه كان فى زمانه شخص يكره الغزالى ويذمه ويعيبه فى الديار المصرية ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما بجانبه ، والغزالى جالس بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا يتكلم فى ! وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هاتوا السـياط ، وأمر به فضرب لأجل الغزالى ، وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكى ويحكيه للناس (! ؟) .

ويذكر السبكى ايضـا ان ابا الحسن بن حرزهم لما وقف على الأحياء وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف للسنة ، وكان شيخا مطاعا فى بلاد المغرب ، فأمر باحضار كل ما فيها من نسخ الأحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب الى النواحى ، وشدد فى ذلك ، وتوعد من يخفى شيئًا منه ، فأحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على أحراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الجمعة رأى ابن حرزهم فى المنام كأنه داخل من باب الجـامع الذى تعـود الدخـول منه ، فرأى فى ركن

المسجد نورا ، واذا بالنبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهمـــا جلوس ، والامام أبو حامد قائم وبيده الاحيـــاء فقال يا رسول الله : هذا خصمى ! ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما الى أن وصل الى النبى صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب الأحيـــاء ، وقال : يا رسول الله انظر فيه ، فان كان بدعة مخالفـا لسنتك كما زعم ، تبت الى الله تعالى ، وان كان شيئا تستحسنه حصل لى من بركتك ، فانصفنى من خصمى ! فنظر فيـه رسول الله ورقة ورقة الى آخره ، ثم قال : ان هذا شىء حسن ، ثم ناوله أبا بكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذى بعثك بالحق يا رسول الله انه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال ابو بكر : فأمر رسول الله بتجريد أبى الحسن بن حرزهم من ثيابه : وضربه حد المفترى ، فجرد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعـد خمسة أسـواط ، وقال يا رسول الله ، انما حصل ذلك منه اجتهـادا فى سنتك وتعظيما . فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكث قريبا من الشهر متألما من الضرب ، ثم سكن عنـــه الألم ، ومكث الى ان مات ، وأثر الســـياط على ظهره (؟ !) .

وهناك المنام الذى رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدى رسول الله قواعد العقائد الذى صنفه الغزالى ، وهو منام طويل نقله السبكى فى طبقاته . وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، ثم بدا لى أن اقتصر على ما ذكرت رغبة فى الايجاز .

وانا لا اتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالى من أصحاب الكرامات ، كما نوه بذلك مترجموه ، كلا ! وانما اتخذها دليلا عـلى

ما وصلت اليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فان لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته ؛ وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم ايقاظ ، وعلى الأخص اذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء ، وسبحان من جل عن الشريك ! .

— ٣ —

تلامذة الغزالى واصحابه

ومما يبين عن أثر العالم فى عصره ، تلامذته واصحابه : فهم فى علمهم ، وادبهم ، أثر من آثاره . وقد أثر الغزالى تأثيرا حسنا فى جمهور كبير من تلامذته واصحابه ، ذكرهم الزبيدى ، منهم القاضى أبو نصر احمد بن عبد الله الخمقرى (نسبة الى خمس قرى التى تعرف بسيخ رية) ولد سنة ٤٦٦ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الامام أبو الفتح أحمد ابن على بن محمد بن برهان — بفتح الباء — ولد سنة ٤٧٦ وتوفى سنة ٥١٨ ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعيل بن القاسم الطوسى توفى سنة ٤٨٦ ومنهم أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النوقانى قتل فى مشهد على بن موسى الرضى سنة ٥٥٤ فى واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن تومرت المصمودى الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن على ملك المغرب ، دخل الشرق وتفقه على الغزالى . ومنهم أبو حامد محمد بن عبد الله بن محمد الجوزقانى الاسفراييني . ومنهم أبو سعيد محمد بن على الجاوانى الكردى حدث بكتاب « الجام العوام » للغزالى عنه . ومنهم الامام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالى ، تفقه عليه وشرح كتابه « البسيط » .

وما أريد أن أطيل فى هذا الباب ، وانما أنص هنا على أن تلامذة

الغزالى احدثوا اثرا كبيرا فى الحياة الاسلامية ، واكثرهم ماتوا شهداء ، وليس اشتراك العلماء فى الحركات العامة ، الا أثرا لقوتهم المعنوية ، وايمانهم بما يدعون اليه . وانص أيضا على أن تلامذة الغزالى لم يعرفوه غالبا الا بمؤلف الاحياء ، فهم لم يصحبوه لمؤلفاته فى الفقه أو المنطق أو الأصول ، وانما صحبوه على أنه داع الى الله ، ومرشد لمكارم الأخلاق .

— ٤ —

مؤلفاته وفتاواه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالى فى الحياة الاسلامية ، عناية الناس بمؤلفاته وفتاواه . فانا نجد مثلا كتابه الوجيز فى الفقه وضع له نحو سبعين شرحا كما قال الزبيدى ، وقد قيل : لو كان الغزالى نبيا لكان معجزته الوجيز ! وممن شرح هذا الكتاب الفخر الرازى وأبو الثناء محمود بن ابى بكر الارموى . والعماد ابو حماد بن يونس الاربلى وابو الفتوح العجلى ، وأبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى الرافعى ، وقد اختصر النووى من شرح الرافعى كتابا سماه الروضة ، وأخرج احاديثه ابن الملقن فى سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم اختصره فى اربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه فى جزء ، وسماه المنتقى . ولخصه أيضا الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز ايضا البدر الزركشى ، والبدر ابن جماعة ، والشهاب البوصيرى ، والجلال السيوطى .

ونجد أيضا كتابه « الوسيط » فى الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن يحيى النيسابورى شرحا سماه « المحيط » فى ستة عشر مجلدا ، وشرحه نجم الدين احمد بن على بن الرفعة فى ستين مجلدا وسماه « المطلب » وشرحه النجم القمولى وسماه « البحر المحيط » ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدى فى ص ٤٣ ج ١ شرح الاحياء .

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسي يمدح كتبه الأربعة في الفقه :

هذب المذهب حبر احسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ونجد كذلك كتابه « المستصفى » في الأصول موضع عناية العلماء ، فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الأشبيلي المتوفى سنة ٦٥١ هـ . وشرحه أبو علي الحسن بن عبد العزيز الفهري المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، وعليه تعليقات لسليمان بن داود الغرناطي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ .

ونجد كتابه « تهافت الفلاسفة » قد أحدث رجة عنيفة بين فلاسفة المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، وألف كتابا في نقده ، ومقام ابن رشد في عالم الفلسفة غير مجهول . ثم جاء خوجه زاده المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، وألف كتابا في التحكيم بين الغزالي وابن رشد باشارة السلطان محمد الفاتح العثماني . ووضع علاء الدين بن علي الطوسي كتابا في المحاكمة بين الغزالي وابن رشد سماه « الذخيرة » ومنه نسخه بدار الكتب المصرية نمرة ١٧٤ .

ونجد كتابه « قواعد العقائد » شرحه ركن الدين الاسترابادي ومحمد أمين بن صدر الدين الشرواني .

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضنون به على غير أهله) الى الغزالي . وممن بحث ذلك السبكي وصاحب « تحفه الارشاد » وصنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، كتابا في رده ، وهذا مظهر لعناية العلماء بنفي ما دس عليه .

وليست عناية العلماء بفتاواه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد جمعها غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التي كان يعظ بها الناس في بغداد ، ورأيناهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد

لتفرقة (انظر نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست ار الكتب المصرية) .

ولو رجعنا الى ما ألف فى الوعظ والفقه فى الأعصر الأخيرة إينا اكثر المؤلفين يرجعون الى الغزالى فى أكثر الأبواب .

وقد اخبرنى صديقى عبد القوى افندى الحلبى ان من النادر ، تنشأ مكتبة فى أى قطر من الأقطار الاسلامية ، ولا تشتمل إئمتها على طائفة من كتب الغزالى فى الفقه والأخلاق .

— ٥ —

علاقة الفقه بالأخلاق

وقد يبدو لأول نظرة ، ان لا صله بين اهتمام العلماء بمؤلفاته ، الفقه وبين تأثرهم بما كتب فى الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا ن روح السائد فى ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ، إينا أن اهتمام المؤلفين شرح مصنفات الغزالى انما كان أثرا يمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال متقد أن لصلاح المؤلف تأثرا فى الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب فى لحساب والنجوم .

اضف الى هذا أن الغزالى نفسه كان يعنى بالفقه والتوحيد ، مؤلفاته الأخلاقية ، فكأنه يرى هذين الفنين جزءا أو مقدمة علم الأخلاق .

والذين عنوا بنقد كتبه انما التفتوا ايضا الى الوجهة لأخلاقية ، فالقضاة منهم كانوا يرونه خطرا على الأخلاق ، لأنه جانب الشريعة ، وهى فيما يرون اساس الأخلاق . والفلاسفة منهم كانوا يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلميهم ، وصاحبنا هذا يريد أن يأتى على تلك القواعد باذاعته وساوس المتصوفة ، وقد وقع ما كانوا يحذرون .

- ٦ -

تأثير الاحياء

ولئن قالوا فى « الوجيز » ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريبا منه فى مؤلفاته فى الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فان ابعد كتبه اثرا ، وأسيرها ذكرا ، وإبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه « احياء علوم الدين » بلا جدال .

كتب الغزالى فى الفقه ، ولكن لم يجدد مذهبه الا بمقدار فلم يثر فتنة . وكتب فى المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواه غير الابانة والايضاح . وكتب فى الأصول ، ولكن بحيث لا يثير الخصومة ولا يهيج اللدد . وكتب فى الفلسفة . ولكنه لم يزد على أن تغنى بليلى معاصريه . وكتب فى التوحيد ، فلم يخالف الأشاعرة الا قليلا ، فظل مستور الحال .

وما كتب « الاحياء » حتى التفت الناس اليه من كل جانب وسار اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقا اليه أو عتبا عليه ، أو بغضا له ، أو رفقا به . وقد شهد هذه الضجة ، وسمع هذه الصيحة ، وهو حى يرزق . وحاول أن يهدى ناقديه بكتاب يوضح فيه ما غمض فى الاحياء ، وهو « الاملاء على اشكالات الاحياء » ولكنه فى الواقع لم يزده الا اشكالا الى اشكال . فلج الناس فى المراء فوضع كتابه « المنهاج » على أن يكون موضع وفاق ، فكان فى الواقع أيضا ضغثا على ابالة ، ثم مات الغزالى قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته بل قامت قيامة الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصومة التى كانت بين انصار الغزالى وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف ، لأن أنصار

زالي جميعا صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جمعا من ماء الشريعة . وابعدهم غورا فى النيل منه هم المتصدرون للفتيا القضاء .

فبينا نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهذيان) نجد ابا حسن الشاذلى يذكر انه راى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه قد باهي موسي وعيسي بالعزالى . وقال : افى امتيكما حبر كهذا ؟ قالا . لا ! ونجد ابا العباس المرسى يشهد له بالصديقية العظمى ! ليت شعري ماهيه ؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهذيان وبين من يحلم بأن لا نظير له فى امة موسى وعيسى عليهما السلام .

وقد قدمت لك شيئا من المنامات المتعلقة به ، وبينت ما لها من أسباب ، وازيد الآن أن كل هذه المنامات مسببة عن « الاحياء » فهى تارة تقع لناقدى ذالك الكتاب ، وتارة تقع للمنتفعين به من علماء الاسلام .

والذين احرقوا « الاحيـاء » لم يحرقوه لأنه كتاب هين ؛ والذين الفوا الكتب فى نقده ، لم يعملوا ذلك لأنه كتاب هين ، وانما نقده هؤلاء ، واحرقه اولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خطر ، وليكن خطرا على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر وفتنـة ، وليكن كتلة زندقه والحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنينا الآن .

واشهر من نقد « الاحياء » الامام أبو عبد الله المازرى المالكى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ وقد ناقشه السبكى فى طبقاته ، فليرجع اليه من شاء ، ويتلخص نقد المازرى فى أن الغزالى غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ، وأن كتابه (متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الاشارات) ويتلخص رد السبكى فى رمى المازرى بالحسد والكيد للصـوفية فى شخص الغزالى ، وممن نقده أبو الوليـد

الطرشـوشي وتجـد جملة من نقـده فى الجزء الأول من شرح « الاحياء » للزبيدى . فأما الذين كتبوا فى فضـل الاحياء فهم كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيدروس ، وضع كتابا سماه : « تعريف الأحياء ، بفضائل الاحياء » وفى ايدى الناس كتاب لبعض الفضلاء اسمه : « بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين » .

واطال السبكى فى مدحه حتى نقل عن بعض المحققين انه قال : « لو لم يكن للناس فى الكتب التى صـنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى « ثم قال : « وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتنـاء بهـا واشاعتها ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقلما ينظر فيه ناظر الا ويتعظ به فى الحال .

ويدل على مبلغ تأثير « الاحياء » عناية العلماء به ، فانا نجد الحافظ العراقى خرج أحاديثه فى كتابين : أحدهما كبير الحجم فى مجلدين ، وهو الذى صنفه فى سنة ٧٥١ هـ ثم اختصره فى مجلد وسماه « المغنى عن حمل الاسفار » . ثم آتى تلميذه شهاب الدين ابن حجر العسقلانى فاستدرك عليه ما فاته فى مجلد . وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى كتابا سماه : « تحفة الأحياء فيما فات من تخريج أحاديث الاحياء » وقد سبقت كلمتنا فيما نقل السبكى من الأحاديث الموضوعة .

وممن اختصر « الاحياء » ابو الفتوح أحمد بن محمد الغزالى المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه « لباب الاحياء » واحمد هذا هو اخو الغزالى . ثم اختصره احمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ . ثم محمـد بن سـعيد اليمنى ، ويحيى بن أبى الخير اليمنى ، ومحمد بن عمر ابن عثمان البلخى وسماه « عين العلم وزين الحلم » (انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) ، واختصره عبد الوهاب بن على الخطيب المراغى وسماه « لبـابة

ياء » واختصره الشمس محمد بن على بن جعفر العجلونى
ور بالبلالى شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة
ه .

واختصره ابن الجوزى فى كتاب سماه : « منهاج القاصدين »
ه نسخه مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧ .

وللاحياء شرح مطول يقع فى عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من
صفحات ، ألفه الزبيدى ، وقد اعتمدت على هذا الشرح فى
حقيق كثير من مواطن الخلاف .

ولم يقف الأمر عند شرح الاحياء ، واختصاره ، وتخريج
حاديثه ، بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت فى
لاحياء ، وهى : « ليس فى الامكان أبدع مما كان » وممن شرح
هذه الكلمة : عبد الوهاب الشعرانى ، وعبد الكريم الجبلى ،
ومحمد المغربى شيخ الجلال السيوطى ، واحمد بن مبارك
السجلماسى ، وأبو بكر بن عربى . ووضع ناصر الدين بن المنير
الاسكندرى رسالة فى هذه المسألة سماها : « الضياء المتلالى ، فى
تعقب الاحياء للغزالى » وفى مناقضة هذه الرسالة الف السيد
السمهودى رسالة تقع فى سبعة كراريس كما قال الزبيدى .
والف البرهان البقاعى رسالة فى هذه المسألة سماها « تهديم
الأركان » وألف الجلال السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها
« تشييد الأركان » .

- ٧ -

الانتفاع بمؤلفات الغزالى

ولقد تتبعت العصور التى تلت عصر الغزالى فوجدت الانتفاع
بمؤلفاته ظاهرا كل الظهور فى حياة علماء الدين والتصوف
والأخلاق . ولقد رأيت من بينهم من هم يحفظ كتاب الاحياء عن

ظهر قلب . ورأيت منهم من كان يتقرب الى الله بنسخ هذا الكتاب . وتجد فى ص ٦٩ ج ٣ من « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » مظهرا لأثر الغزالى فى ذلك العصر ، اذ تجد من العلماء من يتخذ وردا من الاحياء كما يتخذ وردا من القرآن ولولا خوف الاطالة لضربت للقارىء عشرات الأمثال .

وفى العصر الحاضر يدرس كتاب الاحياء فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وكان الأستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب .

والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلامذته دائما بالانتفاع بكتاب الاحياء . وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأ أن أكون كما أراد الأستاذ ، فقد رأيت كيف صورت الغزالى بصورة الرجل الذى قد يخطىء وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !

وأثر الغزالى ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضا سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب « سبيل السعادة » الذى وضعه الأستاذ منذ بضع سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة فى فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق صدره، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين !

ويمكن الحكم بان دراسة كتاب الاحياء فى الأزهر مجردا من آراء المفكرين فى نقده ، وتمييز غثه من سمينه ، كانت السبب فى افساد العقلية الأزهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو بأصحابها الى الطمع فى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

والأمل كبير فى أن يصل هذا الصوت الى من بيدهم الأمر فى الأزهر والمعاهد الدينية : فيغيروا ذلك المنهج القديم فى دراسة الأخلاق ، فان فى الأزهر ولواحقه نحو عشرين الفا من الطلبة تميتهم

تلك المذاهب البالية ، التى يعولون عليها فى فهم نزعات النفوس ، وخلجات القلوب . وسبحان من لو شاء لهدانا واياهم سواء السبيل !

— ٨ —

عناية الأجانب بالغزالى

ومما يتصل بتأثير الغزالى فى الحياة العلمية ، عناية الأجانب به : فقد كتبت عنه عدة مؤلفات بالفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية . ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المسلمون . ويعده الدكتور زويمر واحدا من أربعه ويقول : « كل باحث فى تاريخ الاسلام يلتقى بأربعة من أولئك العطاحل العظماء . وهم محمد نبى المسلمين نفسه ، والبخارى ، والأشعرى ، والغزالى » .

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقلية الشرقية ، وكتابه عن الغزالى من الكتب القيمة ؛ وتجد فيه من مظهر العناية بالغزالى ما كتبه عن قبره ، نقلا عن خطاب وصله من القس دونالدسن فى ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالى ووجد فى احدى زوايا الحجر كلمة (غزالى) و (بوحا) وأصلها بالطبع أبو حامد . وهذا هو الرسم الذى أرسله قس دونالدسن الى الدكتور زويمر عن قبر الغزالى .

ومن أجود ما كتب بالفرنسويه عن الغزالى كتاب Carra de Vaux والمسيو « كارادى فو » هذا رجل خبير بالحياة الاسلامية ، وله كتاب عن ابن سينا أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئا عن المدارس الفلسفية عند المسلمين ، وانى لآسف حين أقرر أن المستشرقين يفهمون مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر الذين اذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبحهم الله) وقد أخبرنى حضرة الأستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوفا وضع كتابا عن الغزالى ، وانى لألوم فى أن غفلت عن

هذا الكتاب ، فان الطريقة التي جرى عليها المسيو كازانوفا في كتابة « محمد ونهاية العالم » طريقة تغرى الباحث بتعقبما يكتب هـذا الرجل الدقيق . وآسف أيضا على ان الظروف لا تسمح بأن أترجم شيئا من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمي عنده فوق كل مقام ، وانما أدعو من يحب الاطلاع الى مراجعة Mohamed et la fin du monde فان فيـه من المباحث ما يواتى شـهوات العقـول ، وللعقول شـهوات !! .

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroes concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع الى المقدمة التي وضعها المسيو Lucien Gautier حين نقل « الدرة الفاخرة » الى الفرنسوية Traité d'eschatologie musulmane ويحسن الاطـلاع على الجزء التاسـع من المجموعة السـابعة من Journal asiatique وفي مقدور القارىء أن يرجع الى Encyclopédie de l'Islam 20 Livre اذا اراد ان يعرف ماكتب عن الغـزالى بالفرنسوية والانجليزية والالمانيـة . وقد أخبرنى حضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق انه علم ان في اللغة التركية عدة مؤلفات عن الغزالى . واحسب أن السبيل اليها ممهد لمن شاء .

واحب أن يعفينى القـارىء من تفصيل ما أعرف عن نظـر المستشرقين الى الغـزالى ومذاهبـه الصوفية ، فانى مضطر الى الاكتفاء بارشاده الى طريق الاطلاع .

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالى في الشرق والغرب ، وتغلغله في أعماق الحياة العلمية ، فان الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه في الأخلاق ، ولكن سيكون الفوز للحياة .

الا ان الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة امام الحيـاة ، كما انهزمت المسيحية لخروجها على ما للحيـاة من قوانين : كذلك تنهزم الأخـلاق امام الحيـاة ، حين تخلو عما فى الحياة من عناصر وأصول .

وهكذا انهزم الغزالى حين نازل الحياة !

حرم النقش والتصـوير . ولكن النزعات البشرية مشت فى طريقها بقوة . ولم نصدف عن النقوش والتصاوير !

وحرم الغناء . ولكن مشت الاذواق فى سبيلها بقوه ، ولم نزل ظامئه الى الأنغام والألحان !

وليته حين حرم النقش والتصوير والغنـاء ، وضع لذلك عللا معقوله ! ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو الى الوثنيه ، وهذا كذب على الواقع ، فطالما أحببنا تهاويل الصور ، ولم نفكر فى الوثنية . وحرم الغناء لأنه يدعو الى شرب الخمر . وهذا ظن مردود ، فطالما سمعنا عبد اللطيف أفندى البنـا وابراهيم أفندى القبـانى والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر فى الخمر ، ولا فى مجالس الخمر !!

ليست الأخلاق شيئا آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق التى تبنى بها الأمم ليست ما يعرفه الغزالى من التواضع . والتوكل ، والخمول ، وانما هى فهم قوانين الحياة وأحب أن أكرر كلمة الحياة : لأنها عندى غاية الأخلاق .

والفضـائل السلبيه كالصبر ، والزهد ، والقنـاعة ، لن تكون فضائل حتى نقضى الظروف باعتبـارها أسلحه ماضيه فى سـبيل الحياه . فقد يكون الخمول من أسباب النباهة وذيوع الشهرة ، كما يكون الصيت أحيانا من أسباب الخمول .

ولا قيمة للحياة بغير القوة . فيجب ان تكون الأخلاق بابا الى الحياة القوية . وطالما شككت فى قوله عليه السلام : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا . واحشرنى فى زمرة المساكين » !

الباب الثاني عشر

في أنصار الغزالي وخصومه

تمهيد

قدمنا أن الخصومة كان مثارها الفرق بين الفقه والتصوف ، وأن أنصار الغزالى كانوا فى الأغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا فى الأكثر من الفقهاء . ونريد الآن أن نقفك على ترجمة طائفة من أنصار الغزالى وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئا مما اختص به أولئك العلماء الذين حاربوا الغزالى أو أيدوه ، لنمهد لك السبيل الى فهم الحركة العقلية التى أوجدتها مؤلفات الغزالى ، وسبيلنا الايجاز فى هذا الباب ، لأن المقام لا يسمح بالتطويل .

ابن رشد

ولد فى قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . ودرس فى صغره الفقه والتوحيد والأصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفه . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الأقاويل ». توفى رحمه الله بمراكش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد ان ذاق الأمرين من نفى واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة القدماء !

والذى يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى ما لقيه فى زمانه ، يعلم أن العرب كانوا يحتضرون ، وان دولتهم كانت تمشى الى الفناء ، لأن الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ، لا يصلحون مطلقا للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل .

وخصومة ابن رشد للغزالى تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع الغزالى كتابا سماه « تهافت الفلاسفة » ، والغرض من الكتاب ظاهر من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت »، والذى يهمنى من معارضة ابن رشد للغزالى انما هو دفاعه عن ابن سينا والفارابى ، فقد كان الغزالى يراهما من الكفار .

ويتلخص دفاع ابن رشد فى أن مسألة قدم العالم وحدوثه التى كانت مثار الخلاف ، انما كان الاختلاف فيما بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف فى التسمية وبخاصة عند بعض القدماء . فان هناك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين . وقد اتفقوا فى الطرفين

واختلفوا فى الواسطة . أما الطرف الأول فهو موجود وجد عن شىء ومن شىء ، أى عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على وجوده وهذه هى حال الأجسام التى يدرك تكونها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث . وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شىء ولا عن شىء ولا تقدمه زمان . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله . وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شىء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شىء أى عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره . والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فان المتكلمين يسلمون بأن الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شىء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضا متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، وانما يختلفون فى الزمان الماضى والوجود الماضى فالمتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب افلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال فى المستقبل . يقول ابن رشد : « فهذا الموجود الأخير الأمر فيه بين أنه قد اخذ شبها من الوجود الكائن الحقيقى ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديما ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثا . وهو فى الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا . فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ، فان الآراء التى شأنها هذا يجب أن تكون فى الغاية من التباعد ، أعنى أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون فى هذه المسألة » .

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل الى كلام هو فى الواقع صفع لادعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوثه من الأمور الهينة التى يصدرون عنها الفتوى كانها مسالة طلاق !!
واليك ما يقول فى ذلك :

« مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر الشرع اذا تصفح ظهر فى الآيات الواردة فى الأنباء عن ايجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة . وان نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين اعنى غير منقطع . وذلك أن قوله تعـالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة ايام وكان عرشـه على المـاء) . يقتضى بظاهره وجودا قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزمانا قبل هذا الزمان ، اعنى المقترن بصورة هذا الوجود ، الذى هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) . يقتضى بظاهره وجودا ثانيا بعد هذا الوجود . وقوله تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان) ، يقتضى بظاهره أن السموات خلقت من شيء » .

وهناك صفعه ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد . ذلك بأن هؤلاء القوم يختلقون من الأساليب والاصطلاحات مالا يعرفه الدين ، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر . « فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا » ؟ !

واليك ما يقول ابن رشد فى ذلك :

« والمتكلمون ليسوا فى قولهم ايضا فى العالم على ظاهر الشرع ،

بل متاولون ، فانه ليس فى الشرع أن الله كان موجودا مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصا أبدا ، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ! ثم قال : والظاهر الذى قلناه من الشرع فى وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء . ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة اما مصيبين مأجورين ، واما مخطئين معذورين فان التصديق بالشىء من قبل الدليل القائم فى النفس هو شىء اضطرارى لا اختيارى ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق ، كما لنا ان نقوم أو لا نقوم ، واذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له اذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان أخطأ فله أجر » .

وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا فى تكفير الفلاسفة بل اسرفوا فى تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأى العام جملة تعابير هى مناط الكفر والايمان . وفى كتاب « فيصل التفرقة» للغزالى مظهر لهذه الآراء الفاسدة التى ظنها الأولون حقائق ، وهى فى الواقع أباطيل .

والذى أراه أن مجازفة علماء التوحيد فى الحكم بحدوث العالم ، وفى وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفى تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا فى غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد . وستسخر المقادير منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم ألوف الألوف من أصحاب الشرائع والقوانين .

ابن تيمية

ولد بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ .
وقدم به والده الى دمشق فى سنة ٦٦٧ هـ حين استولى التتار على حران . وقد تلقى عن والده الفقه والأصول ، ثم عنى بالنظر فى الحساب والجبر والفلسفة ، وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين .
وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف . منها تعارض العقل والنقل والجواب الصحيح فى الرد على النصارى واثبات المعاد والرد على ابن سينا واثبات الصفات والرد على الامامية ... الخ .

قال الحافظ ابن كثير : وفى رجب سنة ٧٠٤ هـ راح الشيخ تقى الدين بن تيمية الى مسجد الفارنج وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك . فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما .
وبهذا وأمثاله أبرزوا له العداوة . وكذلك بكلامه فى ابن عربى وأتباعه ، فحسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولم يبال بمن عاداه . ولم يصلوا اليه بمكروه . وأكثر ما نالوا منه الحبس ، مع انه لم ينقطع عن البحث لا بمصر ولا بالشام .

وكان ابن تيمية كثيرا ما ينشد هذه الأبيات :

لو لم تكن لى فى القلوب مهابة

لم يطعن الأعداء فى ويقدحوا

كالليث لماهيب خط له الزبى(١)

وعوت لهيبتــه الكلاب النبــح

يرمونني شــزر العيــون لانني

غلست في طلب العلاء وصبحوا

وقد توفى رحمه الله فى صباح الاثنين عاشر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ وهو فى السجن . فأخرج الى الجامع فى يوم مشهود لم يعهد فى دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال بمائتى الف ومن النساء بخمسة عشر الفا . ورثاه كثير من العلماء منهم ابن الوردى .

والذى يعود الى ترجمة ابن تيمية في الكتب التى عنى مؤلفوها بترجمته يعرف كثيرا عن العقليــة الاسلامية فى القرن التامن ، ويكفى أن نلفت القارىء الى قولهم « ودفن بمقابر الصوفية » فان لذلك معاني لا تغرب عن ذهن اللبيب ، وما اريد أن أزيد .

وابن تيمية من كبار المفكرين فى الاسلام ، ولكنه لا يخلو من سذاجة . فانك بينما تراه يتوغل فى المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجاة فى هاوية الأوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر .

(١) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة .

وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، اذ كلّ أمة قبلّ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم(١) » وهذا بالطبع حكم لا سند له من معقول ، أو منقول .

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالى لأنه كتب فصولا كثيرة فى تناقضه ، وتسعيه بعض آرائه . ومن اعجب ما رايت له ، حكمه بأن الغزالى هجر طريق الصوفية فى اخريات أيامه ، وفى ذلك يقول : « ولهذا تبين له فى آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخارى ومسلم ومات فى أثناء ذلك على أحسن احواله ، وكان كارها ما وقع فى كتبه من نحو هذه الامور مما أنكره الناس عليه » .هـ

وانا لا استبعد كلام ابن تيمية ، فان الغزالى كان متقلبا فى آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة فقيه ، وتارة صوفى ، وتارة فيلسوف .

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من يفضل الولى على النبى ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبى . فانا نراه يمدح ابن سينا لأنه يفضل النبى على الفيلسوف ، ويسمى طريقه طريق العقلاء ، ويذم الفارابى لأنه يفضل الفيلسوف على النبى ، ويسمى طريقه طريق الغلاة . ويذم محيى الدين بن عربى لأنه كان يدعى انه كان يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى

(١) أنظر مقدمة رقع الملام .

يوحى به الى النبى ، لأن الملك على أصلهم هو الحال الذى فى نفس النبى ، والنبى فى زعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضـــل من النبى لأنه لا يحتاج الى وسيط .

واحب أن أنبه القارىء الى أنى انما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الاسلاميه . لا اكثر ولا اقل ، والمؤرخ غير مسئول .

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية . ولد فى سنة ٥٧١ هـ . وتوفى سنة ٦٩١ هـ لقى فى حياته ضروبا من الشدة بسبب آرائه الحرة . فقد حبس مدة لانكاره ان تشد الرحال الى قبر الخليل . وقد حبس مع ابن تيمية فى المدة الاخيرة ، ولم يفرج عنه الا بعد موت أستاذه . وله عدة تصانيف . منها « مدارج السالكين » ، و « شرح الكتاب العزيز » ، و « نقد المنقول » ، « والمحك المميز بين المردود والمقبول » ، و « أعلام الموقعين » ... الخ .

وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالى ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن اغلاط الاحياء ، فلا نعود اليها الآن .

وأكرر ما قلته من أننى أوجز كل الايجاز فى هذا الباب . فلهؤلاء الذين اترجمهم آراء هى غاية فى الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجراة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغــون فى الاحتياط ، لأن العالم الاسلامى كان يضطهد الفلاسفة اذ ذاك .

ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب فى الفلسفة الاسلامية لاستطعنا ان نرفع عن هؤلاء الأفذاذ آصار الخمول .

السبكى

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ . والسبكى هذا من كبار المؤلفين . وكتابه « جمع الجوامع » فى الأصول يدل على كده وكدحه فى سبيل العلم ، وان كان غايه فى اللبس والغموض . وكتابه « طبقات الشافعية الكبرى » كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب . وعيب السبكى يرجع الى ضعفه فى النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التى اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير .

ويعتبر السبكى من أنصار الغزالى ، وقد كتب عنه فى الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه . وهو يعتقد كل سذاجة أنه لو لم يكن لدى المسلمين غير كتاب الاحياء لكفى ! ! وما أريد ان اطيل فى الكلام عن السبكى ، فقد عرضنا له عده مرات .

الزبيدى

هو محمد بن محمد الحسينى الزبيدى . وهو من علماء القرن الثانى عشر ، وقد وضع شرحا مطولا للاحياء فى عشر مجلدات ، انتهى من تأليف الجزء الأول منه فى يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة ١١٩٣ هـ . وفى هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالى .

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ولكن دفاعه عنه دفاع سخيف لا قيمة له ، لا فى نظر الشرع ولا فى نظر العقل . من ذلك قوله فى تأييد ما يراه الغزالى من أن الزواج ميل الى الدنيا :

« وأما كون التزويج من جملة الميل الى الدنيا فهو ظاهر ، لانه فى الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل الا بالوقوع فى الآفات التى كان عنها بمعزل أيام عزوبته ، لا سيما ان كان متجردا عن القيام بالأسباب التى تجلب له أمر معاشه فانه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن اليه بلقمة او خرقة أو غيرهما فأبغض الخلق اليه من يذمه عنده خوفا من أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذى أحسن اليه » .

وهذا كلام غير مفهوم فى الواقع ، فضلا عن أن يكون دفاعا عن رأى يرى الناس انه غير صواب .

الباب الثالث عشر

فى الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدثين

تمهيــد

هذا باب اذا أطلته طال ، لأن لآراء الغزالى أشباها كثيرة ، فى الفلسفة الحديثة ، وتحملنى الرغبة فى الايجاز على الاكتفاء بأهم وجوه المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين . وحسبى ان أدل القارىء على كيفية السير فى هذا الطريق .

— ١ —

الغزالى وديكارت Descartes

اقرب الفلاسفة شبها بالغزالى هو « ديكارت » لأنه ارتاب كما ارتاب الغزالى ، وبقى فى شكه وارتيابه زمنا غير قليل .

ولد « ديكارت » فى لاهاى سنة ١٥٩٦ م أى بعد الغزالى بنحو ٥٠٣ سنة . تلقى العلم فى مدرسة يسوعية ، كاكثر الاطفال لعهده ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ، واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرا كل ما وقع فى يده من نادر المؤلفات ، كما حدث عن نفسه . ورحل الى باريس فى السادسة عشرة من عمره ، وتطوع فى الجندية ، وعمل عدة سياحات فى المانيا ، والسويد ، والدانيمارك ، ثم استقر فى هولنده ، حيث رأى الاقامة فيها انفع لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا اذ ذاك .

وبعد ان اقام فى هولنده عشرين سنة ، مكبا على وضع مذهبه ، دعته كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك لبلاد ، فقضى نحبه فى سنة ١٦٥٠ بعد ان أمضى نحو سنة فى ستوكهلم ثم حملت جثته الى فرنسا فى سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة Saint-Etienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت فى نظر مؤرخى الآداب الفرنسية أول رجل عبر عن آرائه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيين لغة

فلسفية ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية . وأهم ما يعنينا من مؤلفاته :

أولا —	Règles pour la direction de lésprit
ثانيا —	Discours de la méthode
ثالثا —	Méditations métaphysiques
رابعا —	Les principes de la philosophie
خامسا —	Les passions de l'âme

ففى هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية . فليرجع اليها من شاء ، فانه لا يوجد عنه شيء مقنع بالعربية .

شكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالى حين رأى صبيان النصارى لا نشوء لهم الا على لتنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع التقليد ، ورأى الناس فى الأكثر اما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، واما ان يكونوا أقوياء فيسرعوا الى الحكم ثقة بقوتهم ، فاذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون الى سواء السبيل .

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رآه فى أسفاره من اختلاف العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبينه من تأثير التربية فى التفرقة بين أخلاق الشعوب .

واهم ما تنبه له فى رحلاته ، الشك فى قيمة الرأى العام ، والاستهانة بكثرة الأصوات ، لأن اجماع الامة على رأى ، لا يدل على

انه راى الأمة ، فقد يكون راى فرد واحد ، حملت عليه الأمة لسبب من الأسباب .

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل « ديكارت » على الارتياب ، اذ قلما يوجد رأى غريب بعيد التصديق الا وقد قال به فيلسوف .

ولكن ديكارت كان فى ارتيابه أصرح من الغزالى . فبينما نجد الغزالى يحدثنا بأنه دام قريبا من شهرين على مذهب الفلسفة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » أى انه لم يكاشف الناس بشكه الا حين اجمعوا او كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان الآراء التى بنى عليها آراءه حين ظنها حقه ، وبوجوب التخلى مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناء جديدا على اساس جديد .

ونرى الغزالى شك فى المحسوسات ، لأنه ينظر الى الظل فيراه واقفا لا يتحرك ، فيحكم بنفى الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، انه يتحرك ولكن بالتدريج . ثم نراه هم بالشك فى العقليات ، لأنه يعتقد فى النوم أمورا ، ويتخيل أحوالا لها ثباتا واستقرارا ، ثم يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته اصل ، فيسأل : بم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ، وقد يمكن أن تطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الأشياء التى سلم بأنها اثبت من غيرها واصح ، انما كان اعتمد فى صحتها وثباتها على الحواس ،

وقد تبين غير مرة أن الحواس خداعة ـ وهو كذلك يرى فى نومه تصورات يعلم حين يستيقظ انها باطلة ، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو فى كليهما مضلل مخدوع ؟ !

الفرق بين الغزالى وديكارت

الفرق عظيم جدا بين الغزالى وديكارت ، فان الغزالى خرج من شكه بطريقة لا تصل بأحد الى يقين ، خرج من شكه بنور الله ، ونور الله هذا لا يعرفه العلم ، حتى يضمه الى ما لديه من أصول ، والغزالى نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وينقل أن رسول الله لما سئل عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قال : نور يقذفه الله فى القلب فيشرح به الصدر ، فقيل وما علامته ؟ قال : التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود . يقول الغزالى : وهو الذى قال صلى الله عليه وسلم فيه (ان الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ! ! .

وما دام الغزالى لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب » كما قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك . وهذا ما يناقض كل ما فعله ديكارت للخروج من شكوكه ، وكذلك كان الغزالى سببا لخمود الفلسفة فى الشرق كما كان « ديكارت » سببا لنهوضها فى الغرب .

أسلوب ديكارت

لم ير ديكارت من الحكمة أن يخرج على ما فى بلاده من عادات وقوانين ، بل راى من الخير أن يحافظ على الدين الذى نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولا واعتدالا عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه فى طمأنينه وسكون .

ويقول بول جانيه Paul Janet ان ديكارت حين اقتنع بعدم كفايه العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياب كما فعل مونتينى Montaigne بل راى من الواجب أن يبنى صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول ان الغزالى انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياب كما فعل مونتينى ، ولم يفكر فى وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكارت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدى من يشاء !

وأول ما يبدأ به « ديكارت » هو الدعوة الى نبذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التى تنطوى على مختلف الآراء ، ليست أقرب الى الحقيقة من التعقلات البسيطة التى يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه . والمهم عنده أن تحسن التفكير ، لا أن تعرف كيف فكر الناس . والبناء الذى قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذى يقوم به عدد من المهندسين ، فان وحدة الذوق من موجبات الجمال .

ويرى « ديكارت » أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد . والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضي ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلال .

وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولا — لا يصح قبول شيء على انه حق ، ما لم يعرف (ما هو) بغاية الوضوح .

ثانيا — تقسيم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء ، ليكون ادراكها سهل المنال .

ثالثا — ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة .

رابعا — فرض نظام في الموضوعات التي لا يسبق بعضها بعضا في الطبع .

يقول « بول جانيه » : « ولهذه القواعد الأربع في ذهن ديكارت معنى جد محدود . والقاعدة الأولى تظهر كأنها عادية ، وليس كذلك ، فان اغفال كل سلطة ، واقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان في أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة (١) .

ومن جانب آخر ينبغي أن نفهم كلمة (وضوح) فان كل ما نعتقده بقوة ليس واضحا ، ولأجل وضوحه ينبغي أن يخلص

---

(١) بدعة : هي الكلمة التي اخترناها لترجمة كلمة (nouveauté) لأنها اقرب الى المراد .

العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الأفكار بوضوح وتمييز ، فان مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هي التي تولد من اعماق العقل واضحة متميزة . وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، اذ كل واضح معقول » .

والجارحه التي تدرك الحقيقة مباشرة هي البصيرة intuition ولا يريد بها ديكارت ما يتغير من احكام الحواس والخيال ، وانما يريد بها ادراك العقل السليم اليقظ : الادراك السهل الواضح الذي لا يتطرق اليه اى شك ، الادراك الحازم الذي يولد فقط من أضواء العقل .

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل انسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ، وأنه يفكر . ويستطيع كذلك ان يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وان ٢ + ٢ = ٤ كما ان ٣ + ١ = ٤ لأن هذه الأحكام مدركة بغاية الوضوح والجلاء .

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فماذا يمكن أن يعتبر صحيحا حينئذ ؟ قد لا يثبت الا عدم وجود شيء يقيني في العالم ، ولكن يبقى بالطبع أن هناك انسانا شك ، وان هذا الانسان لا محالة موجود وهنا يقول ديكارت كلمته المأثورة Je pense, donc je suis انا أفكر ، فانا اذن موجود . ولا بأس فيما يرى ديكارت ان يغش الانسان ويخدع ، فان هذا يدل فقط على أنه رأى الأشياء على غير ما هي عليه ، ولا ينافي انه كائن موجود .

ويرى ديكارت أنه قد يرغب فى أشياء لن تكون فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لا خيال .

وجملة القول فى أسلوب ديكارت أنه لا شيء أوضح لديه من فكره ، فهو يؤمن أولا بوجوده ، ثم ينتقل الى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء .

ولفلسفة « ديكارت » كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل ما قيل فى النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا اليه فى مؤلف خاص .

— ٢ —

الغزالى وبسكال Pascal

ولد بسكال فى كليرمون فى ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ وانتقل به أبوه الى باريس فى سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذى عنى بتربيته على قوة الفكر ، وحسن الاستنباط . وقد شغف بسكال بالرياضة ، وألف فيها وهو يافع . ثم مال الى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، حمل عليها بضعف صحته ، واضطراره الى حياة العزلة والانفراد .

واشتهر بسكال بكتابه « الأفكار » Pensées وهو مجموعة آراء جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه Lettres provinciales يمثل رأيه فى حياة القسيسين والرهبان .

ووجه الشبه بين الغزالى وبسكال هو أن كلا منهما ابتدأ حياته بقوة تهـارة ، ثم انتهت به صحته الى الرضـا بالخمول فى ظلال التنسك والزهد ، فقد رايت كيف اقبل الغزالى على كل علم ، وكيف درس كل النحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رايت كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعد كل ما سوى مذهبهم ضلالا فى ضلال ! !

وكذلك ابتدأ بسكال بتأييد مذهب ديكارت ، والتحمس لنصرة العقـل ، ومحاربة الوساوس القديمه . حتى لنجـده يدافع عن الشهوات الكبيرة التى توجد الأعمال العظيمة ، كالحب والطمع . وذلك فى رسالته Discours sur les passions de l'amour ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوما بعد يوم واضطر الى العزلة فى Port-Royal واختـار الفلسـفة الصوفية التى لخصها فى محادثته مع مسيو دى سـاسى كما قال بول جانيـه ، ثم عول اخيرا على الاكتفاء بالانجيل .

ومما يقرب بسكال من الغزالى شكه فى قوة الطبيعة الانسانية ، فهو يرى ان الانسان مملوء بالخطأ الغريزى الذى لا يزول الا بعناية الله . وليس هناك شىء يهدى الانسان الى الحقيقة ، بل كل شىء

يخدعه . ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فان كلا منهما يخدم صاحبه ، والناس يدعو بعضهم بعضا الى الخداع : فهم يتبادلون المدح لعلمهم فيما بينهم بكراهة الحقيقة التى تنافى المديح ، وكذلك لا يتكلم امرؤ فى حضرتك كما يتكلم فى مغيبك ، فالانسان فى نظر بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق .

وقد بالغ بسكال فى احتقار العقل . ثم تمنى لو أنه عرف جميع الأشياء بالوحى والشعور ولم يحتج أبدا الى العقل ! ! ويتهم بسكال عقله بافرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لا يأتى مطلقا من ناحية العقل ، وانما يأتى من شعور القلب ، ومن هداية الله ؛ ويجوز أن يأتى الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع للنجاة ! وهذا بالطبع اسراف .

— ٣ —

الغزالى وهوبس Hobbes

ولد هوبس فى انجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل الى باريس فى سن الاربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا مرة ثانية وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف « جسندى » صاحب الفضل على « موليير » و « فولتير » . ثم مات فى انجلترا سنة ١٦٧٩ .

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه La nature humaine وكتابه Leviarhan أو La matière, la forme et l'autorité du gouvernement

وفى هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ، والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والاحساس عنده ليس الا حركة من حركات المخ ، وهذه الحركة متى وافقت الوظائف الحيوية انتجت اللذة ، واللذة تولد الرغبة ، والرغبة تولد الارادة . فليست الارادة اذا الا رغبة مسيطرة . وهوبس لا يعرف باعثا للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم . والعواطف عنده ليست الا صورا لحب الذات .

وهوبس من اصحاب نظرية العقد الاجتماعى Contrat social التى عنى بها جان جاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الانسان مفطور على الأثرة والشره ، وأن جميع أعماله انما هى سلم الى مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع القوى فى الضعيف . ويتخيل هوبس أن آباءنا الأولين لم يروا سبيلا الى السلامة من شر الأقوياء غير الانضمام تحت لواء سلطة بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تتمثل فى الملك ، ولهذا الملك جميع الحقوق التى كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ، وليس عليه الا واجب واحد هو : حفظ الأمن .

ويرى هوبس تأييدا لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه كفر ومروق .

ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعى تأييد الملوكية ، ولا كذلك روسو حين يدافع عن هذه النظرية فانه يرى أن حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما افسدوها بأنفسهم

اضطروا الى أن يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته ليتكون من مجموع هذه الأجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ، وهذه القوة لا تمثل فى الملك كما يرى هوبس ، وانما تمثل فى شخص هو مندوب الأمة ، ولها عزله حين تريد .

الى هنا لا يرى القارىء أى تناسب بين هوبس وبين الغزالى والواقع أن الجمع بينهما بعيد لأن الغزالى رجل تضحيه وايثار ، والخير عنده يرجع فى الأكثر الى نفع الناس ، فى حين ان هوبس يرى الخير فى أن يعمل المرء لنفسه ، قبل أن يحلم بسواه . ولكنى رايت بعد البحث انهما يتفقان فى تكييف وجهة الطبيعة الانسانية ، وان اختلفا فى غاية الأخلاق ، فاذا كان هوبس يرى اعمال المرء مظهرا للأثرة ، ويرى حب المرء لجاره ليس الا ضربا من حب النفس ، وأن طاعته للقوانين الأخلاقيــة ليست الا سعيا فى سبيل نفعه ، فكذلك الغزالى يتهم اكثر العاملين بالرياء ، ويرميهم بحب الذات .

والغزالى يسىء الظن بالطبيعة الانسانية ، ويرى العمل فى الأغلب لا يراد به الا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولا يزال بالطبيعة الانسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك والارتياب ، حتى يصل بعد الفحص الى أن هناك رياء « هو اخفى من دبيب النمل » ومن كلامه : « رب عبد يخلص فى عمله ، ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ، ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وهـذا السرور يدل على رياء خفى ، فلولا التفات القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس » .

والفرق بين الغزالى وهوبس ، يرجع الى أن هوبس يريد أن يجعل وجهة الطبيعة الانسانية أساسا للأخلاق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره . ولكن الغزالى يرى أن الخير لا يكون الا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لأن وجهة الغزالى وجهة اسلامية ، لا ضرر فيها ولا ضرار .

— ٤ —

الغزالى وبوتلر Butler

« بوتلر » هو فيلسوف انجليزى ولد سنة ١٦٩٢ وتوفى سنة ١٧٥٢ وهو يعول أكثر من الغزالى على الفطرة الانسانية وعنده أن المرء يستطيع بنفسه أن يدرك ما فى عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان لم يعلم شيئا من المباحث الأخلاقية . ويرى أنه لا شىء يدعونا الى طاعة قانون الأخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلر فرقا بين السريرة التى تحتم طاعة الاخلاق وبين حب النفس ما دمنــا نفهم سـعادتنا الحقيقية فان الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالى بعض الاتفاق ، لأن وجهة نظر الغزالى اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة فى الواجب وان كان لا يرى الواجب فى المنفعة ، فان هذا شىء قد يكون وقد لا يكون ، الا ان اردنا ما هو نافع فى الواقع . على أن بوتلر يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالأمور الاخروية ، ويرى اتفاقهما فى الأمور الدنيوية كثير الوقوع ، لا واجب الوجود .

واجمل ما فى بوتلر حكمه على الفضائل بانها قانون الطبيعة فى حين أن الغزالى يراها ضروبا من التكاليف .

— ٥ —

الغزالى وكارليل Karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ فى قرية اكلفكان بجنوب اسكوتلاندة من والد يشتغل بصناعة البناء . تلقى مبادىء العلم فى قريته . ثم دخل جامعة ادنبرج فى الثالثة عشرة من عمره . وفى التاسعة عشرة من عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة أنان ، وبعد ثلاث سنين صار رئيس مدرسة ببلدة كركالدى . وفى سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم . وذهب الى ادنبرج ، وهو لا يدرى ماذا يعمل ، ولكنه درس علم المعادن ، واضطر من أجله الى تعلم الألمانية التى كانت سببا لذيوع شهرته . وتوفى سنة ١٨٨١ .

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن الديانات . حتى لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها فى رأيه ليست الا افراطا فى العجب من الشىء ، حتى ينقلب هذا العجب تقديسا وعبادة ، ولأنه يرى ان الأقدمين ما قدسوا شيئا الا لأنه اله ، أو رمزا الى اله . ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذى ترجمه الاستاذ محمد السباعى . وفى هذا الكتاب فصل ممتع عن النبى محمد صلوات الله عليه وسلامه . كان سببا فى تغيير وجهة انظار الأجانب نحو الاسلام . ومن كلامه فى ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد مهذب من أبناء هـذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور . وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال

السخيفة المخجلة . فان الرسالة التى اداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس امثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان يظن أحدكم أن هذه الرسالة ألتى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر اكذوبة وخدعة ؟ اما انا فلا استطيع ان أرى هذا الراى ابدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج . ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول . فما الناس الا بله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث واضلولة ، كان الأولى بها ان لا تخلق . فوا أسفاه ، ما أسوأ مثل هذا الزعم . وما اضعف اهله ، واحقهم بالرثاء والمرحمة !! » .

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، فناقش من رموه بالقسوة ، واستعمال السيف ، وبين ان المسيحية نفسها لجأت الى القوة حين لم ينفع التسامح . ورد على من زعموا ان القرآن مملوء بالتعقيد ، وبين أن سبب هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل بلاغة القرآن وحلاوته . وعارض من نسبوا الى رسول الله الهفوات ، وأكد ان طلب العصمة طلب سخيف ، فان العصمة لله وحده ، واكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء انه برىء من هذه الهفوات .

الكفر والايمان

يتفق الغزالى وكارليل فى ان كلا منهما مؤمن ثابت اليقين ، ويختلفان فى فهم السريرة الانسانية ، وفى نتيجة التفكير . فالغزالى لا يعترف للضمير بالصلاحية للحكم ، وانما الشرع هو الفيصل فى الحسن والقبح ، فما حسنه الشرع فهو حسن ، وما قبحه فهو قبيح . ولكن كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدى ، وهو جزء من الطبيعة الانسانية ، فهو قوة غريزية لا نحتاج فى كسبها الى شرائع ولا قوانين .

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن الالحاد والتفكير يجتمعان فى قلب رجل واحد . والاخلاص عنـده هو الأساس . ومن كلامه : « يرجى لنا أن نفهم الوثنية متى سلمنا اولا أنها كانت فى حين من الاحيان دينا صحيحا فى اعتقاد اهلها ، فلنوقن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك اصحاء العقول والحواس ، ايقاظا قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم فى حال من الأحوال . ولنوقن كذلك انا لو كنا وجدنا معهم ، لآمنا بما كانوا يؤمنون به ، ولكنا واياهم سواسية فى سائر الأشياء » .

ويتلخص رأى كارليل فى أن كل دين فيه عنصر من الحق ، والوثنية عنده ليست الا رموزا شعرية ، وتمثيلا بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكل دين فيما يرى انما هو رمز وتمثيل ، ولكن الاختلاف هو فى المشاعر والأفكار ، والفرق بيننا وبين الوثنيين يرجع الى الشكل اكثر مما يرجع الى الجوهر ، لأن كلا منا يرى التفكير فى ملكوت الله نوعا من العبادة ، ونحن لو اغرمنا بالكون كما اغرم الوثنيون به لرأينا الله فى كل نجم ، بل فى كل زهرة .

راى الغزالى فى الاجتهاد

لا يمكن لامرىء ان يكفر ، فى نظر كارليل ، ما دام مخلصـا فى عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن الغزالى يرى أن الاجتهاد له حد محدود والمختار عنده أن الإثم والخطأ متلازمان فكل مخطىء آثم وكل آثم مخطىء ، ومن انتفى عنه الاثم انتفى عنه الخطأ ، وهو يقسم النظريات الى ظنية وقطعية : ولا اثم فى الظنيات اذ لا خطأ فيها . والقطعيات عنده ثلاثة اقسام : كلامية ، واصولية ، وفقهية ، ويعنى بالكلامية العقليات المحضة ، والحق فيها عنده واحد . ومن

اخطأ الحق فيها فهو آثم . ويدخل فى هذا القسم حدوث العالم ، واثبات المحدث ، وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز الرؤية ، وخلق الأعمال ، وارادة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع المعتزلة والخوارج والروافض والمبتدعة . فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد ، ومن اخطأه فهو آثم فان أخطأ فيما يرجع الى الايمان بالله ورسوله فهو كافر . وان أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما فى مسألة الرؤية وخلق الاعمال وارادة الكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق وضل ، ومخطىء من حيث أخطأ الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قولا مخالفا للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه الكفر . ويعنى بالأصولية كون الاجماع حجة ، وكون القياس حجة ، وكون خبر الواحد حجة ... الخ . وهذه المسائل أدلتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطىء آثم . والفقهيات بعضها يكفر المرء بانكاره ، وبعضها يأثم بجحوده ، فانكار تحريم الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم ، كفر . وانكار الفقهيات المعلومة بالاجماع خطأ واثم .

تحرير هذه المسألة

الأصل فى الحكم الأخلاقى أن يتبع غرض العامل من عمله : ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . فالعمل الذى أريد به الخير ، هو خير : وان كان ضارا فى ذاته . والعمل الذى أريد به الشر ، هو شر : وان كان نافعا فى ذاته . ويطالب الرجل فقط بأن يتروى قبل ان يعمل ، ليعرف ما فى العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد فى البحث فقد أمن المسئولية ، واستحق حسن الجزاء .

ولقد تتبعت ما كتبه علماء المسلمين فى هذه المسألة فرايتهم لا يكادون يهتدون . وسبب ضلالهم يرجع الى انهم خلطوا بين الوجهة الأخلاقية ، والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذى يقتل مسلما خطأ مدين من الوجهة

القضائية ولكنه برىء من الوجهة الأخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل .
والشرع محق في اعتماده على الوجهة القضائية ، لأن فيها استئصالا
للجرائم ، ولأن القاضي متى عذر كل من ادعى الخطأ فقد يفلت منه
كثير من المجرمين .

والذى يدلك على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، انه
يكتفى بايمان المقلد . مع أن الايمان لا ينفع فيه التقليد . ويقول
الباجورى فى ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة ما نصه : « والخلاف
فى ايمان المقلد انما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله وأما
بالنظر الى أحكام الدنيا فيكفى فيها الاقرار فقط . فمن أقر جرت
عليه الأحكام الاسلامية ، ولم يحكم عليه بالكفر ، الا ان اقترن بشىء
يقتضى الكفر كالسجود لصنم » وهذا واضح الدلالة على أن النجاة
لا تكون باتباع الشرع . ولكن بالايمان به . والايمان شىء آخر غير
ظواهر الأعمال .

الخطأ والعناد

كان على الغزالى أن يفرق بين من يخطىء فى العقليات بعد
اجتهاده ، وبين من يعاند . فان الأقرب الى الحق أن ينجو من نظر فى
الشريعة الاسلامية من الفلاسفة بنية حسنة وبقصد الاقتناع ،
ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا فى وجه المسلمين .
ولو أن الغزالى نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا والفارابى ، الا ان
أمكن أن يثبت عندهما العناد مع أنهما لم ينكرا الرسالة المحمدية ،
ولكن الناس لعهد الغزالى كانوا فيما يظهر مصابين بداء الشك فى
عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالمروق .

وقد جرت بينى وبين فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى مناقشة
فى هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الأستاذ يرى أن الكفر
يكفى فيه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق الا بالعناد ثم رأيته فيما
بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأى . وقد نقل الغزالى فى المستصفى

« أنه ذهب الى أن مخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدهرية ، ان كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو ايضا معذور . وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى اذ استد عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه قال : « لا اثم على المجتهد مع انه مخطىء ، وتجرى عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فانه آثم » وهذا يدل على ان الجاحظ مع حكمه بنفى الاثم عن المجتهد المخطىء يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التى حدثتك عنها منذ قليل .

ويظهر أنه كان لهذا الرأى أنصار فيما سلف ، فقد جاء فى فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ ما نصه « وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد فى المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفى الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفى الاثم والمعذورية ، لأحقية القول والمأجورية » وجاء فى ارشاد الفحول ص ٢٤١ ما نصه « مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد أصاب ، ومن أخطأه فقيل يكفر . ومن القائلين بذلك الشافعى فمن أصحابه من حمله على ظاهره . ومنهم من حمله على كفران النعم » .

وحكم ابن الحاجب فى المختصر عن العنبرى أن كل مجتهد مصيب . قال ابن دقيق العيد : « ما نقل عن العنبرى والجاحظ ، ان أرادا ان كل واحد من المجتهدين مصيب لما فى نفس الأمر ، فباطل ، وان ارادا ان من بذل الوسع ولم يقصر فى الأصوليات يكون معذورا غير معاقب ، فهذا أقرب . لانه قد يعتقد فيه أنه لو عوقب وكلف بعد استفراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكانى ص ٢٤٢ .

ترجيح بلا مرجح

يرى الغزالى فى كتاب « فيصل التفرقة » أن الرحمة تشمل كثيرا من الأمم السالفه ، وان كان أكثرهم يعرضون على النار ، اما عرضه خفيفه ، فى لحظة أو فى ساعة ، واما فى مدة ، حتى يطلق عليها اسم بعث النار . ويرى أن أكثر نصارى الروم والترك لعهده تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ، ومنهم من بلغه اسمه مفسرونا بأكاذيب تصرف المرء عن النظر . ويرى فى كتاب « الصحبة » أنه لا ثواب ولا عقاب الا على الأفعال الاختيارية .

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيرا من الأمم السالفة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك ونصارى الروم ممن لم يبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرفه مشوهة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب الا على ما يفعل المرء باختياره ؟ اليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر اليه ، أو أكره عليه ، ظلم وعدوان ؟

واذا كان ذلك كذلك ، كما يعبر الكتاب الأقدمون ، فلماذا تحكم بكفر من لم يعلم وجوب النظر ، أو علم بوجوب النظر ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع . ولماذا تحكم بنفى الاثم عمن يجتهد ويخطىء فى المسائل الفقهية ، وتحكم بالاثم والكفر على من يجتهد ويخطىء فى المسائل الكلامية ؟ ألا يسع العذر جميع المفكرين على السواء ؟ فان لم يسعهم ، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحا بلا مرجح ، وهو فى رأيكم غير معقول ؟

ظلم الأبرياء

وما عجبت لشىء كما عجبت من حكم الجاحظ بمعاملة المعذورين كما يعامل الكفار . فانه اذا صح لديه أن مخالف ملة الاسلام من اليهود والنصارى والدهرية ، أن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو

أيضاً معذور ، وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، اقول اذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء معاملة الكفار ، وهم عند الله ناجون ؟ أفنكون نحن أغير من الله على دينه الذي لم يكلف فيه نفسا الا وسعها ؟

ولقد اعلم ان الجاحظ لو كان حيا وسمع هذا السؤال ، لاجاب بأن في هذا التشديد تقليلا للخوارج على الدين . وهذا جواب معقول ، ولكن يلاحظ انه تأييد لما قلناه آنفا من أن علماء المسلمين نظروا الي هذه المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية . وكان عليهم أن يتنبهوا الي الفرق بين القضاء والأخلاق ، فمن الواضح ان القتل الخطأ معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع ان الذي يقتل خطأ بريء أمام نفسه ، وأمام ربه ، وأمام الواقع .

واحب أن انبه القاريء الى انى فى هذا الحكم لا أتكلم من وجهة شرعية ، فقد يدعى المدعون ان الشرع لا يعرف ذلك . وانما أتكلم من وجهة فلسفية ، وافترض ان الشرع ان لم يتنبه لهذا الحكم ، فقد كان يجب أن يتنبه له ، وأن يضع له الحدود ، فان المعذور بريء ، ومن الظلم أن يقتل الأبرياء .

— ٦ —

الغزالي وسبينوزا Spinoza

ولد « سبينوزا » فى امستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية ، وقد اضطهده اليهود لشكه فى تعاليم اليهودية . وهم احدهم بقتله . فاضطر لذلك الي أن يعتزل فى لاهاى ، وصار يكسب قوته بالعمل فى صقل زجاج التلسكوب والميكروسكوب . وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ، ولكنه رفض قبول المعونة بعزة وإباء . وعرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ، ولكنه لم يقبل . حبا فى الاستقلال . وعاش عيش الناسكين . وقد

أصيب بمرض الصدر ، فاحتمله بلا شكاية . ثم مات سنة ١٦٧٧ بعد أن حكم أهل عصره بكفره .

وأهم مؤلفاته traite théologico politique وقد نشر في حياته ، وفيه اخضع الكتاب المقدس للنقد وحرية الفكر . وكتابه Ethique ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ، وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات .

وسبينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو كل شيء . وان كل شيء هو الله . وهو في ذلك يخالف الغزالي اذ يرى لله وجودا غير وجود العالم . والله في رأيه هو المدبر لهذا الكون ، ولكن سبينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالا في كل ذرة ، وفي كل حبة ، وفي كل نبتة ، وفي كل ورقة ، وفي كل دابة ، الى آخر ما في الوجود . وليس للانسان حرية ، وان اعتقد أنه حر ، وانما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن اجل هذا ثار رجال الدين على سبينوزا ورموه بالزندقة ، قال الدكتور رابوبرت : « وما كان أبعده عن الالحاد ، فقد كان مملوءا بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد شرب الألوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه الا الله (١) » . وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذر به المسلمون عن البسطامي والحلاج ، ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود .

وغاية الأخلاق عند سبينوزا هي كمال الطبيعة الانسانية ، فكل علم لا يفضي الى ذلك فهو في رأيه غير مفيد ، وهو يتفق مع الغزالي في هذا المعنى الأخير : أي في احتقار كل علم لا يوصل الى السعادة ، وان اختلفت غايتهما بعض الاختلاف . فان غاية الأخلاق عند الغزالي هي السعادة الأخروية .

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٦٦ .

ومع أن سبينوزا يعمل لكمال الطبيعة الانسانية ، فانه يرى أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الأمور الاعتبارية ، اذ ليس هذا التمييز الا صورة ننتزعها من الموازنة بين الأشياء . فاذا كان الغزالى يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه ، فان سبينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر هو الضار . وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد قوتنا ويعدها للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع فى سبيلها العوائق . وينتج من ذلك أن الخير يحدث الفرح والشر يحدث الحزن .

ويبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة فى اكمال العقل لأنه فى رايه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة فى الواقع هى طمأنينة النفس ، التى تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شرا الا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الامن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالى فى هذه النقطة الأخيرة .

ومن أظهر الفروق بين الغزالى وسبينوزا نفى الشخصية الانسانية ، ونفى المسئولية . وهذا واضح ، لأنه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سبينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسئول . أما الغزالى فيرى وجود الشخصية الانسانية ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب ، وان كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئا بغير هداية الله .

— ٧ —

الغزالى وجسندى Gassendi

ولد « جسندى » فى بروفنس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢ .

اشتغل حينا بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيسا وسافر الى هولنده واشتغل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم دعى لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية فى باريس سنة ١٦٤٥ وظل بها الى أن توفى سنة ١٦٥٥ .

وأهم ما يمتاز به جسندى هو دفاعه عن فلسفة ابيقور المتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد . وابيقور هذا يرى أن غاية الأخلاق هى السعادة الذاتية : فليست الفضيلة فضيلة الا لأنها تجلب لذة ، وليست الرذيلة رذيلة الا لأنها تحدث ألما ، ولا قيمة لأى عمل فى نفسه الا بنسبته الى اللذائذ والآلام . وقد كان ابيقور يدافع عن مذهبه بطريقة تقربه من رضا العقلاء ، فكان يرى أنه لا مانع من احتمال الآلام ، لأن ما فى الخروج على الفضيلة من اللذة لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك ما فى الصبر على ترك الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيرا من الآلام التى يتعرض لها باقتراف المنكرات .

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فهما غير صحيح ، فحسبوه فقط داعيا الى اللذة واخذوا يصفون الرجل الخليع بأنه (ابيقورى) فجاء « جسندى » فأحيا تعاليم هذا المذهب ودافع عنه . وقد أثر جسندى فى عصره تأثيرا شديدا . وحسبه أن كان من تلامذته « موليير » .

والغزالى تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ، ولكن الفرق بينهما بعيد ، فان جسندى يرى اللذة غرضا من أهم اغراض الانسان . ولكن الغزالى يراها صفة من صفاته ، فللعين لذة ، وللأذن لذة ، ولعضو التناسل لذة . ولا قيمة للحياة بغير هذه اللذات . ولكن يجب أن تحد بحدود العقل والشرع ، ومن السهل أن يعرف المرء ما لهما من الحدود . ولكن جسندى يحد اللذة بما لا يصحبه الم ولا يعقبه الم . وهنا موضع الخلاف ، فان الزنا فى نظر الغزالى ليست له اضرار دنيوية ، ولكنه يذهب بصاحبه الى النار .

— ٨ —

الغزالى ومالبرانش Malebranche

ولد « مالبرانش » فى باريس سـنة ١٦٣٨ ومكث قسيسـا خمسين سنة . وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة . وقد توفى بعد مرض طويل سنة ١٧١٥ .

وأهم مؤلفاته Traité de Morale, Recherhe de la Verité وهو من أنصار دكارت والمعجبين به ، ومن القائلين بوجوب حـرية الفكر الى أقصى حد . والقاعدة عنده أنه لا يصح أن نسلم تماما الا بالقضايا التى تظهر لنا واضحة الى حد انه لا يمكننـا أن نرفض التسليم بها ، والا تعرضنا لعتب العقل ، وتأنيب الضمير .

والقاعدة الأخلاقية عند مالبرانش انه لا يصح أن نحب خيرا من الخيرات حبا تاما ، ما دمنا نستطيع الا نحبه بلا ندم . وهنا يتفق مع الغزالى ، فيقرر أنه لا يجب أن نحب غير الله حبا تاما مطلقا . ونحن نذكر أن الغزالى قرر أن الحب المطلق لا يكون لغير الله ، لأنه لا نظير له ، لا فى الامكان ولا فى الوجود .

ويتفق مالبرانش مع الغزالى فى عدم الثقة بأحكام الحواس ، لأنه رأى البصر يختلف حكمه على الأشياء باختلاف القرب والبعـد ، ويضيف الى ذلك شكه فى الوحدة الزمنية ، لأنه يرى اليوم على طوله قصيرا بالنسـبة الى الفرح المسرور . ويرى السـاعة على قصرها طويلة بالنسبة الى المتألم الحزين .

ويتفق الغـزالى ومالبرانش فى فهم الرجل الخـير ، فاذا كان الغزالى يقرر انه ما هلك امرؤ عرف قدره ، فان مالبرانش يقرر أن الانسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سـعيدا الا بقـدر ما يستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الالهية .

ويفترق الغزالى ومالبرانش فى تقدير اللذة . فهى عند الغزالى خير الى حد محدود ، ثم تنقلب الى شر . وهى عند مالبرانش خير دائما ، وان كان التمتع بها لا يفيد دائما ، لأنها قد تصرفنا عن الله .
ويختلفان كذلك فى فهم الألم ، فهو عند مالبرانش يكاد يكون خيرا ، وان كان شرا بالفعل . والغرض من ذلك تبرير الاحتمـال . أما الغزالى فلا يخص الألم باهتمام خاص ، وان كان يرحب بكل ما يناله من الأذى فى سبيل الله .

وبعد هذه المقارنات الموجزة . أوصى القارىء بأن يعتبر هـذا الباب لمة يسيرة فى جانب ما يجب من درس آراء الفلاسفة المحدثين واحضه على اتمام ما فاتنى اتمامه ، والله بالتوفيق كفيل .

الباب الرابع عشر
فى آراء علماء العصر فى الغزالى

تمهيد

لا يوجد هذا الباب فى النسخة التى قدمت للجامعة المصرية ، وانما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تتميما السلسلة التاريخية ، التى أردت أن أبين بها قيمة الغزالى فى مختلف العصور .

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم فى الغزالى بجراة وصراحة . وحجتهم فى ذلك ان الرأى العام لا يحبل فى الغزالى غير المدح الخالص ، وللغزالى كسائر المؤلفين حسنات وسيئات ، وهم لا يستطيعون أن يبدوا شيئا من سيئاته فىالعلانية ، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردة من النقد ، والا كانوا عرضة للسخرية والاستهزاء !

واذا كانت الخطة التى جريت عليها فى نقد الغزالى تقضى على بنشر ما له وما عليه ، عملا بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت ان اثبت آراء أنصار الغزالى وخصومه فى هذا العصر ، وأدونها كما هى بلا زيادة ولا نقص ، معتمدا فى ذلك على محادثات خاصة دارت بينى وبينهم ، وعلى سند كتابى فيما يتعلق برأى حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضره صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار . وأنا أشكر هذين الاستاذين بصفة خاصة : لأنى لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشىء مكتوب ، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التى قامت بعد الامتحان افهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر فى مصر لا ظهير لها ولا نصير .

ـ ١ ـ

رأى الدكتور منصور فهمى

الدكتور منصور علم من أعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب آرائه ما يقدر لامثاله عادة من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعة فى سنة ١٩١٣ مجاراة للجمهور الذى غضب وثار بسبب ما شـاع اذ ذاك من أنه رمى النبى عليـه الصلاة والسلام بحب الشهوات . وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم مبين ، فنصحه يومئذ بأن يصلى الجمعة فى الأزهر ليكون فى ذلك قطع لألسنة المرجفين ، وليستطيع دولته أن يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع ، ولكن الدكتور منصور ابى أن يشهـد العلماء له بالايمان ، لأن الله على ايمانه شهيد ، فشكر لسـعد باشا رفقه به ، وظل بعيدا عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع اليهـا عالى الرأس فى سنة ١٩٢١ .

وللدكتور منصور رسالة عن الغـزالى نال بهـا الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرأيه فى الغزالى قيمة خاصة . وهو لا يعد خصما للغزالى ولا نصيرا له ، وانما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات ، رفقه به ، وظل بعيدا عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع اليها عالى والاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب .

— ٢ —

رأى الشيخ على عبد الرازق

الأستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الأدب والبيان فى الأزهر منـذ اثنى عشر عاما ، وأماليه فى علم البيان دليل على عقليته النـادرة . ولو مضى فى التأليف لأصبح قليل الأمثال .

وقد درس الغزالى بعناية ، وهو يقف ازاءه موقف الحيـاد . ويقرر أن الغزالى أوجد حركة فكرية فى العالم الاسلامى . اما قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الأنظار ، فمن الناس من يراها ضارة ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين .

— ٣ —

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلمـاء ، وهو ذو نفوذ كبير فى الأزهر والمعاهد الدينية ،وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلامذته . ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لأنها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله فى دروسه الخاصة وبين ما يدونه فى تلك المصنفات ، اذ كان يريد أن يصل بكتبه الى افهـام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية . ورسالته

الصغيرة فى تفسير قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيرا على هجره لهذا الاسلوب البديع ، واقباله على خطة الترغيب والترهيب ، التى تذكرنا بكتاب الاحياء .

ويكاد يعد الشيخ الدجوى خليفة للغزالى فى هذا العصر ، ففيه تقريبا كل خصائصه ، من القدرة ، والاخلاص ، وقوة النفوذ ، وبغض الفلسفة ، والحذر من أن يتجاوز العقل ما له من الحدود .

— ٤ —

راى الأستاذ جاد المولى

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر . تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثانى ، فسافر فى أول بعثة أرسلها دولة سعد باشا زغلول حين كان وزيرا للمعارف فى سنة ١٩٠٧ فقضى ثلاث سنين فى الكلية الجامعة بمدينة ردنج . ثم عين فى سنة ١٩١٠ مساعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد وقضى بها ثلاث سنين . ثم عاد فى سنة ١٩١٣ فعين فى قلم الترجمة بوزارة الأشغال فقضى بها ثلاث سنين . وفى سنة ١٩١٦ نقل الى الديوان العالى ، وظل فى خدمة الملك الى سنة ١٩٢٢ حيث نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية .

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الأستاذ عبده خير الدين ليشتركا فى الامتحان الذى تقدمت له فى الجامعة المصرية . ويذكر الجمهور ان الأستاذ جاد المولى بك كان يتأجج غيرة على الغزالى ،

وقد ناقشني بشدة في كل الموضوعات التي خالفت فيها الغزالي .
فبدا لي بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالي من جديد ، فتوجهت الى منزله لهذه الغاية ، فتفضل وأطلعني على المحاضرات التي كان القاها عن الغزالي في سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثير من الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء .

والأستاذ جاد المولى بك لا يشك في أن المسلمين انتفعوا بالتصوف أيما انتفاع ، ويقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالي في نشره واذاعته . وقد كان الأستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو يحدثني عن ذلك بما كتبه الأستاذ الغمراوى بك في كتاب الغرائز ويقول : ان الصوفي هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة الى النواحي النافعة ، كذلك يجب على الصوفي أن يراقب حركات المريدين . لأن التصوف ليس الا رياضة للنفوس .

وبالرغم من عناية الغزالي بالتصوف ، فان الأستاذ جاد المولى بك يراه من المجددين وقد سألته عن معنى هذا التجديد ، فقرر أنه يريد به النهوض بالأفكار الاسلامية التي آمن بها الغزالي ، والتي كاد يقضي عليها تيار الفلسفة اذ ذاك .

— ٥ —

راى الشيخ عبد العزيز جاويش

والأستاذ عبد العزيز جاويش امام من ائمة المسلمين في هذا العصر . وهو معروف في جميع الأقطار الاسلامية ، وله ابحاث في فلسفة التشريع تعز على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفي

والاضطهاد أيما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الأمم والشعوب ، وعده الانجليز من بين أعدائهم الألداء فى الحرب العالمية . ولقبوه بالرجل الخطر المخيف .

ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالى . فهو أولا يؤمن بقوة الغزالى ومتانته ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه الى منزلة المجتهد المطلق ، مع انه كان « جاهلا » بفن الحديث . ويرى الشيخ جاويش ان جهل الغزالى بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمته العلمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذيوع اسمه فى العالمين . ويقرر الشيخ جاويش أن الغزالى متناقض ، وانه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف فى الكتاب الواحد ، ولأنه لم ينكر شيئا الا وقد قال به فى بعض أحواله .

— ٦ —

راى الكونت دى جالارزا

ظل الكونت دى جالارزا أستاذا للفلسفة فى الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادر فى كرم الأخلاق . وله مؤلفات فى الفلسفة لا عيب فيها غير الغموض ، وعذره فى ذلك أنه اجنبى عن اللغة العربية .

وهو من اشد انصار الغزالى ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ويعجب كثيرا بوجهته الروحية وله على الغزالى مأخذ واحد وهو منعه الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع نفسه شيئا من العلوم . ويرى أن الغزالى حرم بذلك من كانوا أهلا للاستفادة ، وان كان عصم من ليسوا أهلا للانتفاع ، من سواد الناس . والغزالى فى رايه غاية الغايات فى الاخلاص .

— ٧ —

راى الدكتور العنانى

الدكتور على العنانى من كبار الأساتذة فى هذا العصر ، وقد مكث فى المانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من ان يدرس الفلسفة دراسة عميقة ، وهو من اساتذة الجامعة المصرية .

والدكتور العنانى ينظر الى الغزالى نظرة خاصة ، من حيث تطور الفكر الاسلامى فهو يرى أن الفكرة الاسلامية كانت تعتمد أولا على الوحى ، ثم دخل العقل على انه مفسر وموضح ، ولكنه ما زال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحى استقلالا تاما ، فرأى الغزالى أن يقف فى وجه هذا الاستقلال ، فأخذ يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى أخمل ذكرهم فى الشرق ، وبذلك انتقلت الفلسفة الى الأندلس ، ووجدت هناك مرعاها الخصيب .

والدكتور العنانى يرى ان الغزالى سلك تلك السبيل خضوعا للرأى العام فى البداية ، ولكنه تأثر بما دعا اليه فى النهاية ، وعاد حربا للعقل ، وسلاما للمبادىء الروحية . وهو لا يصدق ما ذكره ابن تيمية من رجوعه الى ظاهر الشريعة ، فان الرجل كان اخذ اخذا بمذاهب الصوفية ، وان كان لا ينكر مع ذلك أن له آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس .

— ٨ —

راى الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر ، فقد يندر أن يفوته شيء من معارف هذا الجيل . وهو أعرف الناس بروح العرب والاسلام . وقد درس الغزالى دراسة جيدة . وله على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارىء فى الهوامش ، وهى ملاحظات سديدة لم نشأ ان نحرم منها القراء . وقد قابلته اخيرا

فذكر لى انه فاته ان يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالى من تحريم الغناء فى اكثر الاحيان ، وهو يرى ان الغزالى محق فيما يقرر من الاكتفاء باباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحـــريم . لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضطرب الأحوال .

ورأى الشيخ النجار فى الغزالى رأى وسط : فهو يرى انه فى جملته لا نظير له ، وان الحكم بتناقضه فيه شىء من المبالغة ؛ لأن الرجل كان ينظر الى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه فى ذلك أكبر تأثير . وينكر عليه المبالغة فى متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يبيحه للفقير من تمزيق الثوب قطعا مربعة تصلح للترقيع ويقول : هذا الفقير اما أن يكون فى حالة صحو أو فى حالة ذهول : فان كان ذاهلا فهو معذور ، ولا حكم له ، وان كان صاحيا فهو عابث ، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحا لأن يرقع به سواه ؟ ان هذا الا اتلاف !

— ٩ —

رأى الشيخ حسين والى

الأستاذ الشيخ حسين والى من كبار العلماء ومؤلفاته تمتــاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذى ظهر منذ سنين ، ولولا انه شغل بالادارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم فى بسط آراء المتقدمين فى الأصول والتوحيد والأخلاق .

ويعد الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالى ، فهو يدافع من وجهته فى التصوف لأن التصوف فى رأيه لا يخرج عن الأصول الاسلامية ، والغلو الذى نراه فى الاحياء ليس الا تمكينا للمعانى التى يدعو اليها الغزالى . وهو لا يرى أن الغزالى قصد بمؤلفاته فئة من الناس ، وانما يرى انه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ بقدر استعداده ، وبقدر ما يصلح له من أنواع الخلال . والغزالى عنده معذور فيما وقع له من ضعيف الحديث . لأنه لم يرد غير

تأييد وجهة نظره فيما اتفق له من الاحاديث والاخبار والآثار .
ومن البعيد أن يضع حديثا فى كتاب من كتبه وهو يعلم أنه موضوع أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والاخلاص .

— ١٠ —

راى الشيخ عبد الباقى سرور

الأستاذ الشيخ عبد الباقى سرور من العلماء الافذاذ الذين جمعو بين المعقول والمنقول وكتابه عن « ماضى الاسلام وحاضره » الذى نشره فى جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون فى العهد الأخير . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليـــه ، فهو لذلك اعرف العلماء بالحركة الفكرية ، وأعلمهم بما يجرى فى عالم السياسة ، والفلسفة والاجتماع . وهو فوق ذلك اغير الناس على وطنه ودينه ، وانه لعلى خلق عظيم .

ويرى الشيخ عبد الباقى انه ليس للغزالى مذهب خاص ، وانما يتنوع دفاعه بتنوع الرأى الذى يدافع عنه ، وهذا منشأ ما فى كتبه من تباين الآراء : فقد كان يحتج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية ، وهو يناقش الفلاسـفة ، ويريد أن يجمع فى يده كل الأسلحة الفكرية ليدفع بها طغيان الفلسفة الذى كان يخشى على الدين من تياره . والشيخ عبد الباقى يرى أن التصوف فى كتب الغزالى انما كتب للصوفية ، لا لجميع الناس ، كما يظن ذلك كثير من الباحثين . ودليل هذا رجوعه فى أخريات أيامه الى دراسة كتب السنة حتى ليذكرون أنه مات والبخارى على صدره . ولعـدم اختصاص الغزالى بمذهب خاص وجهة شريفة ، هى تحرى الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهده من مختلف المذاهب . وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقى ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية التى تغل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الانتفاع بثمرات العقول .

— ١١ —

راى الشيخ أحمد أمين

احسن ما يوصف به الأستاذ الشيخ احمد امين أنه رجل نافع ، فان كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة ، التى تغرس الحياة فى نفس المستفيد . وعمله فى لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل الذى يعرف أن لا حياة لأمته بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبير فى الحركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل .

ويرى الشيخ أحمد أمين ان الغزالى حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، واعلى شأن التصوف والصوفية . وحبب ذلك الى الناس . واسـلوبه فى الترغيب والترهيب انفع الأساليب فى هداية الجماهير . ويرى معنا أن الغزالى لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه . وأن آراءه فى الأخلاق لا تنفع فى هذه الأيام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شيء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارىء ما وفقنا اليه فى درس الأخلاق عند الغزالى ، نوصيه بأن يرجع ان شاء الى كتاب الاحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفى ، والى المصادر الأجنبية التى ذكرناها فى غير هذا المكان ، والى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالى ، ليعرف صحة ما فى هذا الكتاب من مختلف الأحكام .

ونحن لا ننكر اننا كنا قساة فى نقد الغزالى ، ولكنا نرجو ان يتنبه القارىء أيضا الى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته . ونحب أن يذكر الذين أسرفوا فى اللوم عندما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لارضائهم أو اغضابهم ، وانما وضعنا نصب اعيننا غاية واحدة ، هى خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصة لوجه الله ، لا للناس .

واحب ان أسجل هنا كذلك ، انى ترددت فيما نصحنى به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التى ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئا ، وانما اضفت اليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية ، وانما أنا وحدى المسئول .

* * *

أما بعد فانى أسأل الله ان يجزينى بفضله على ما قدمت فى سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، واليه وحده أرفع الرجاء ، فقد منى الناس بالجحود ، ونكران الجميل .

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَاتُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَاتُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .

الاسلام والأخلاق

يقول المرجفون انى قررت أن الدين الاسلامى دين فتح لا دين اخلاق . ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الأكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول . فليس من الجائز أن رجلا مثلى قضى فى الأزهر خمسة عشر عاما يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بأن الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل انه يجد معارضين أشداء من طلبة الأزهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل .

وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الأحاديث !

قلت فى رسالتى : « ان ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتـــدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جمـــلة الأرزاق » فلما سألنى حضرات الأساتذة الممتحنين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله : « فان قلت فما قولك فى القعـــود فى البلد بغير كسب : أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلـــكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراما ، بل لا يبعد أن يأتيــــه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعنـــــد ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب » .

وهنا لا أكتم القارىء انى حملت على الغزالى حملة شديدة ورميته بجهل اسرار الدين ، وسخرت من الآداب التى وضعها للمتوكل حين

(*) نشرت هذه الكلمة فى المقطم بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٩٢٤ .

يخرج من بيته : اذ يدعوه الى ان لا يترك فى البيت متاعا يحرص عل
السراق ، والى أن لا يحزن اذا سرق متاعه بل يفرح اذا أمكنه ، وا
أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ود
على تأسفه على ما فات ، ويدعوه الى أن يفتم لأجل السارق وعصيا
وتعركه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالمـا !

ثم قلت فى التعليق على هده الآداب المينه « وما أدرى ما الذى
انسى الغزالى أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوح
وان يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل : من أراد أن
يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن
صاحبه من صنع المعروف » !

عند ذلك تذمر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الشيخ
اللبان : لا عيب على الغزالى فى ذلك لأن الدين الاسلامى دين أخلاق ،
فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الأخلاق فى شيء
ان يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق ،
فهل جانبت فى ذلك الصواب ؟

والظاهر ان حضرات العلمـــاء فهموا من الفتح التخريب ،
والاعتداء على الشعوب . كلا يا هؤلاء ! الدين الاسلامى دين فتح ،
رضيتم أم كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنها الدين الحنيف ،
وأنتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » انما تجارون الأجانب الذين
يتوددون اليكم بوصف الاسلام بالقناعة والرضا بالقلبل . وهـذا
خطأ صراح ، فان الدين الاسلامى أبعد الأديان عن الزهادة ، وابغضها
للخمول ، ولا حرج على الاسلام فى أن يرغب اتباعه فى امتلاك ناصية
العالم ، فان هذا أمل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية ، أو ملة
قوية ، وضعت حدا لمطامعها فى الحياة ، وانما ترغم الأمم الضعيفة ،
أو الملل الضعيفة ، على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم

يأمروا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان ، بل أمروهم بالرفق بهم ، والابقاء عليهم ، كما امروهم بعدم التعرض للأطفال والنســاء والكهول . وأقول لكم : ان هذه المعاملة لا تدل على أن الاسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على ان الاسلام كان احكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتنفير القلوب . وهذه الملاينة ، وذلك الرفق ، من الأسلحة الماضية فى اســتلال السخــائم ، والتبشير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبى الى سبيل ربه بالحــكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتى هى أحسن ، حتى ظفر بالفتح المبين .

هذا ما أريد من أن الاسلام دين فتح وامتــلاك . ولو بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ، ورأى ما أنتم عليه من قلة وذلة ، لبلل رداءه بدموعه ، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيبا . أفتحسبون أن قوله عليه الصلاة والسلام (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) معناه انه جاء لينشر علينا ، ويذيع فينا ، تلك المبادىء السقيمة ، التى دافع عنها الغزالى وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم فى ذلك مع الأسف علماء هذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟

أنا لا انكر أن التوكل فضيلة ، ولكن انكر ان يكون معناه الاقتناع بأن الموت من جمــلة الأرزاق ، وانما التوكل أن تقتحم المصاعب معتمــدا على الله (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة . ولكن على أن يكون صبرا على الجهاد لا صبرا على الضيم ، والخمول فضيلة . ولكن على معنى أن تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حسابا . فأما ما نقل الغزالى من أن بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة على ثلاثة ايثارا للخمول ، فهى خطة سلبية ، وهروب من الواجب ، تعالت الأخلاق عما يصفون !

ومن العجيب أن نجد العلمــاء يضربون الأمثال بزهد النبى وخلفائه ، وكان عليهم أن يعرفوا أن الزهد من النبى وخلفائه فضيلة

قضت بها الضرورة ، وها نحن أولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير الى ما يملك رؤساء الحكومات نظر المحقق المغيظ ، فلا عجب أن يتنبه رسول الله صاحب الخلق العظيم الى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام الأمور . ولو قضت الظروف اد ذاك بأن يكون النبى فردا من جماعة يسوسها غيره ، لرأيناه ينمى ثروته ، ويسعى جادا فى استغلال ما يملك من أرض أو مال .. على أنى اعلم من سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على أنه كان ينظر الى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعزاز ، وحسبنا ان نتلو قول أصدق القائلين : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهل ترونه قال : آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنتين أو حسنات ؟ ! أو ليس من جلال الدنيا أن تسوى بالآخرة ؟

من أجل هذا ترونني أنكر أن تكون « الأخلاق » فى الاسلام معناها الرضا بالموجود وان قل وهان ، ومن أجل هدا عارضت الغزالى بعد ما عاشرته فى مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون منى بعد هذا البيان ؟

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عربية وفرنسوية . أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالى ، وهى : احياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والاربعين فى أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والادب فى الدين ، ومشكاة الأنوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ، والجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما أشكل من الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفى فى الأصول .

ومما يتعلق بالغزالى من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، وشرح الاحياء للزبيدى وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب الأخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح أنطون ، والذخيرة فى المحاكمة بين تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسى ، وحياة الغزالى للدكتور زويمر ، وفتاوى ابن تيمية ، واعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقال لابن رشد ، ومحاضرات الكونت دى جالارزا فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ ومبادىء الفلسفة تعريب أحمد أمين ، والملل والنحل للشهرستانى ، ومعجم البلدان لياقوت .

واهم المصادر الفرنسية :

Gazali, par Carra de Vaux

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali, par Moher

Traité d'eschatologie musulmane, par Lucien Gautier.

Encyclopédie de l'Islam (20ème livre).

Histoire de la philosophie, par Paul Janet.

Cours de philosophie, par E. Boirac

Averroës, par E. Renan.

فهرس

الباب الأول

فى العصر الذى عاش فيه الغزالى

الباب الثانى

فى حياة الغزالى

الباب الثالث

فى المنابع التى استقى منها الغزالى

الباب الرابع

فى مؤلفات الغزالى

الباب الخامس

فى مباحث تمس الأخلاق

الموضـــوع	الصفحة

الباب السادس

فى الأخلاق

الباب السابع

فى الفضائل

الباب الثامن

فى توقى الرذائل

الباب التاسع

فى العلوم والفنون والتربية

الباب العاشر

فى الحقوق والواجبات

الباب الحادى عشر
فى تاثير الغزالى فى عصره
وما تلاه من العصور

الباب الثانى عشر
فى أنصار الغزالى وخصومه

الباب الثالث عشر
فى الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدثين

الباب الرابع عشر
فى آراء علماء العصر فى الغزالى

الموضـــوع	الصفحة
٧ - رأى الدكتور العنـــاتى	٣٧٦
٨ - رأى الشيخ عبد الوهاب النجار	٣٧٦
٩ - راى الشيخ حسين والى	٣٧٧
١٠ - راى الشيخ عبد الباقى سرور	٣٧٨
١١ - رأى الشيخ احمد أمين	٣٧٩
خاتمة الكتاب	٣٨١
الاســلام والاخــلاق	٣٨٣
المراجــع	٣٨٧
الفهرس	٣٨٩

رقم الايداع بدار الكتب/٥٨٥٨/ ١٩٧٠

الشعب

٩٩ شارع قصر العيني بالقاهرة

تليفون ٧٤٨١٠